أنا مايكل

رواية

تأليف

عماد البليك

طبعة ٢٠١٩

البليك، عماد

أنا مايكل: رواية /عماد البليك؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٨ .

٣٠٤ ص، ٢٠ سم

تدمك: ١ ٦٩٠ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

أنا مايكل

رواية

تأليف

عماد البليك

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٨/١٥٥٢٨

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٦٩٠-١

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٩

الكتاب : أنا مايكل

المؤلف : عماد البليك

الغلاف : عبدالله نصر

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

إشارة ١..

هذه الرواية كتبت مرتين.. في المرة الأولى إلى نصفها تقريباً.. كتبت على عجل.. لكن أمر ما شاء أن تدمر.. أي تلغى عن جهاز الحاسوب «لابتوب».. فقد احترق الهارديسك ومعه ضاعت المحاولة الأولى. وهذه هي النسخة الثانية، التي اعتمدت على شذرات من الذاكرة وقليل من المسودات كانت في البريد الإلكتروني الخاص بي.. وليس بالضرورة أن ثمة تطابق بين النسختين.. ففي كل مرة يتم فيها تجريب الكتابة في الموضوع نفسه تكون هناك فكرة أخرى مغايرة.. لحد كبير.

إشارة ٢..

ليس في التاريخ الإنساني سيرة واحدة لكل شيء.. على العكس هناك سيرة واحدة لأشياء كثيرة متشابهة.

إشارة ٣..

من تجاربي الشخصية في حياتي فهمت أن الموت ليس مخيفاً إلى هذه الدرجة التي يتوقعها البعض.. فهمت ذلك من خلال فقدان أحب الناس إليّ، أبي.. فقد أدركت من خلال رحيله أن الحياة تولد جديدة في كل يوم تشرق فيه الشمس.. من خلال ما نضيفه إليها من معنى يكتسب صفة الخلود.. إليه أهدي هذه الرواية امتداداً لذكراه الخالدة.

القسم الأول

الزهرة الجديدة

(١)

على ارتفاع ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، كانت طائرة الإيرباص A٣٢٠ التي تقل ١٥٠ مسافراً وخمسة من أفراد الطاقم قد استعدت للهبوط الاضطراري على منطقة مغطاة بحشائش السافنا المتفرقة، قريباً من نهر النيل الأزرق الذي ينبع من بحيرة تانا.

ساد الرعب بين الركاب، بعد أن أعلن لهم الكابتن توقف محرك الطائرة بشكل مفاجئ، غير أنه كان يفهم السبب، فقد اصطدمت الطائرة بسرب من الطيور التي يبدو أنها عائدة إلى مواطنها في وسط أفريقيا، مروراً بالجزيرة العربية فهضاب الحبشة.

قبل دقائق معدودات كان منظر سرب الطيور الذي سدّ الأفق تماماً مثيراً وجاذباً لأغلب ركاب الطائرة، وقد علّق أحدهم بصوت عالٍ مسموع لمن حوله:

«لقد انتهى موسم الحب وغادر الشتاء، وها هي الطيور الأفريقية تعود من شمال إيران وأفغانستان»

قال الراكب ذلك في محاولة منه لإسماع صوته لإحدى المضيفات التي بدت مثيرة له، يريد إشعارها على نحو ما بأن مواسم الحب لا تنتهي باستطراده قائلاً:

«انتهى موسم التزاوج في الطقس البارد ولكن الربيع قادم»

لم يكن كابتن طائرة الخطوط الإيطالية التي غادرت مطار روما قبل عدة ساعات متجهة إلى أديس أبابا، العاصمة الأثيوبية، يتوقع مثل هذا المصير المجهول الذي يواجهه الآن؛ ليس لأنه طيّار محترف له خبرة عشرين عاماً في قيادة الطائرات بشتى أنواعها فحسب، بل لأنه على يقين تام بمتانة هذا النوع من الطائرات التي تعاقدت عليها الخطوط الإيطالية مؤخراً، بعد أن اشتهرت بها خطوط الطيران الأمريكية لاسيما شركة «يو أس أيرويز».

وإذا كان المعني الجودة فنادراً ما تتعرض هذه الطائرات لمثل هذه المفاجآت غير السعيدة، سواء تعلق الأمر بأسراب من الطيور تعد بالآلاف، رآها الكابتن تتهادى أمام ناظريه وحاول الإفلات من تزاحمها، أو تعلق الأمر بأي قدر آخر يمكن أن يحدث بلا مقدمات، حيث السفر في السماء مجازفة كبيرة.

لكن رغم التوتر الذي ساد ركاب الطائرة وحركة الطاقم السريعة وهم يخبرون الركاب مجدداً بتعليمات السلامة، التي

نـادراً مـا تؤخـذ بمنتهـي الجديـة في بدايـة الرحلـة، إلا أن الكابـتن كان يشـعر بـأن المهمـة سـهلة جـداً، فلـن تمـر سـوى عشـر دقائـق علـى الأكثـر ليكـون كل شـيء قـد مـرّ بسـلام، بهبـوط الطائـرة علـى الأرض ونجـاة الجميـع.

ومـا حـدث أنـه قبـل أن تمضـي الدقائـق العشـر، كان الكابـتن الأرمنـي، قـد أمـر الطاقـم بطمأنـة الـركاب، مجـدداً، وهـو يواجـه مغامـرة المـوت ببـرود أعصـاب وكأنـه يقـود طائـرة في لعبـة فيديـو، سـاخراً في دواخلـه مـن الخـوف المتوقـع داخـل صالـة الـركاب.

وكلّـم نفسـه: نعـم.. لا أحـد يحـب المـوت إلا أن يكـون مصابـاً بانفصـام عقلـي أو أنـه يائـس مـن الحيـاة إلـى درجـة لا رجعـة عنهـا، لكنـه إذا كان يعلـم أنـه بإمـارة كابـتن متمـرس إذن لاختلـف الوضـع، ولتسـلى بهـذه الدقائـق يراقـب كيـف أن الاقتـراب مـن المـوت في مثـل هـذه الظـروف أشـبه بقضـاء لحظـات مرحـة في أحـد ألعـاب مدينـة الملاهـي، حيـث الخطـر والمتعـة التـي تنتهـي بالتنفـس بشـهيق مرتفـع، والتفكيـر في البـدء مـن جديـد مـع لعبـة أخـرى.

يتذكـر الكابـتن الأرمنـي أن حلـم الطيـران في السـماء، كان قـد راوده منـذ طفولتـه المبكـرة، لكنـه لـم يكـن يأخـذ الأمـر بجديـة متوقعـاً أنـه سـيصبح كابـتن طيـران جـوي في يـوم مـن الأيـام.

كانت جدته العجوز ماريا تريده أن يتخرج في كلية الفنون الجميلة ليرسم لها أحلامها التي تراها في الليل، وهي أمنية غريبة في حد ذاتها، لكن لجدة عاشت ثلاثة أرباع حياتها تجمع الكتب الفنية وتصرف ثروة معقولة ورثتها عن أبيها في شراء اللوحات الفنية في المزادات الفنية، دون أن تكون قادرة على الإمساك بريشة لأنها مصابة بشلل نصفي منذ صغرها، فقد كان إسقاط الكثير من الأحلام على الحفدة أمر لا مفر منه، خاصة أن حفيدها الذي يحلم في طفولته بأن يصبح كابتن طيران، امتلك في نظرها المقومات الكافية لكي يكون رساماً كبيراً لا يقل شأناً عن غوستاف دوريه الذي رسم لوحة اليهودي التائه، التي كانت الجدة تعتبرها من أعظم الآثار الفنية البشرية الخالدة.

مع مضي الأيام فإن الحياة تسلك مسالك مختلفة غير الأحلام القديمة، فالحياة تجبرنا على الطاعة حتى لو كنا واثقين في قدراتنا إلى مدى بعيد.

ظل الكابتن يعيد استحضار هذه الحكمة التي كثيراً ما رددتها جدته لتقنعه بأن حلمه مع الطيران لن يكون سوى حلم يظل يحمله في دماغه إلى أن يموت. لكن الأيام نفسها أثبتت أن الحكمة المأثورة للجدة صحيحة ولكن في الاتجاه المعاكس.

تحقق حلم الحفيد في حين خذلت الجدة، وكان هذا الخذلان أكبر تأكيد على أن الجدة حكيمة فعلاً، وإن كانت قد ابتكرت حكمتها لكي تغرس في دماغ الحفيد ما يجعله يتنازل عن حلمه لأجل حلمها.

●●●

(٢)

شعر الكابتن بنشوة انتصاره لحلمه القديم، وهو يهبط إلى ارتفاع ٥٠٠٠ قدم بسرعة بطيئة، متحكماً في عجلة القيادة بمهارة فائقة، وفي الوقت نفسه كان يحدث نفسه بأنه لو قد كان فناناً لأصبح من الأثرياء، ولعاش حياة مترفة كسولة، بعيداً عن هذا السفر المتواصل إلى ما لانهاية.

يستعيد ما قالته له جدته ذات يوم بعد أن استلم شهادة الطيران، وبعد أن قاد أول رحلة دولية من روما إلى فرانكفورت:

«ستعيش طويلاً لا تخف، ولكن العيش في السماء سيجعلك ترى الموت قريباً في كل لحظة»

يتذكر أنه ردّ عليها:

«وهكذا شأن العائشين على الأرض، فحوادث السيارات تقتل المئات وكذلك الزلازل والفيضانات المدمرة والأعاصير»

ولم يذكر لها ما يمكن أن يؤلمها جدا ذلك الجزء المتعلق بتاريخ العائلة.

قبل أن يكمل قاطعته الجدة بثقتها المفرطة في ذاتها رغم هزيمة حلمها تجاه حفيدها، بأن عليه ألا يدعي المعرفة، فطالما أختار أن يكون كابتن طيران، ليصبح مجرد عامل آلي يقود آلة، ولم يختر طريق الفن، فقد افترقا هو والحكمة إلى الأبد.

«فالفن هو المهنة الأزلية التي تجعل الإنسان حتى لو مات، يبقى خالداً»

قالت له وهي تضيف:

«أما قائد طائرة، كابتن، مهما اختلفت المسميات فهو في النهاية سيفنى كالملايين ولن يعد أحد يتذكره بعد مرور السنوات. فلا مكان للرجال الآليين في سجلات التاريخ»

استغرق الكابتن الأرمني واسمه «تشارنتس أوكسودينوس» في ذكريات حياته، وأحلام جدته القديمة، وذكرياتها عمّا كان مؤلماً لها بالفعل؛ هجرتها مع عائلتها وهي طفلة من أرمينيا الشرقية المجاورة للعراق في عام ١٩١٥، إلى روما، هرباً من حملات الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها من قبل الجنود الأتراك في تحالفهم مع روسيا القيصرية.

ذلك الهروب الذي كانت نتيجته أن فقدت الجدة وهي طفلة نصف طاقة جسدها، تقريباً، بعجزها عن تحريك يديها فقد اخترقت رصاصة موجهة من أحد الجنود الهائجين، يدها اليمنى فاليسرى، في قدر عجيب ظل يضايقها كلما استرجعته.

●●●

(٣)

قطع صوت مراقب الحركة في مطار أديس أبابا، تأملات الكابتن، لا بسؤاله عن وضع الطائرة الآن كما هو متوقع، ولكن بسؤال آخر لم يبدو مناسباً لأوكسودينوس في هذه اللحظات الحرجة، بالرغم من أن الكابتن كان قد شعر بالخجل من نفسه، أن يسمح لها بالتهاون بالاستغراق في ماضيه وماضي عائلته، في حين أن حياة العشرات الآن متوقفة على تركيزه الشديد، فليس الوقت للتسلي بأرواح البشر.

سمع سؤال مراقب الحركة:

«سيد أوكسودينوس كم عدد الركاب في مقصورة رجال الأعمال؟»

يبدو السؤال بسيطاً جداً ولا علاقة له بما يجري، كما فهم الكابتن من الوهلة الأولى، قبل أن يفكر فيه بجدية.

ولأنه كان يجهل الإجابة؛ انتابه شعور غامض بأن ثمة ما هو غائب عنه وعليه أن يتوخى الحذر، فالأقدار الإلهية ليست لعبة، إذا ما قررت أن تتسلى بحياة الناس.

«لا أعرف..»

رد الكابتن..

كاد أن يقول:

«هذا ليس اختصاصي»

غير أنه صمت قليلاً وأراد أن يسأل:

«لماذا هذا السؤال الغريب في هذه اللحظة بالذات؟»

من جديد سمع المراقب يحدثه بالإيطالية وبنبرة غضب:

«هل تسمعني.. كابتن أوكسودينوس.. هل تسمعني؟!»

«نعم أسمعك.. لكنني اعتقد!»

قبل أن يكمل، جاءه صوت المراقب عبر أجهزة الاتصال في قمرة القيادة:

«تعتقد أن السؤال في غير محله! لا يوجد مجال للتفسير الآن، فقط حاول أن تعرف وأخبرني»

كرر المراقب العبارات الأخيرة مرتين، ثلاثة..

«أخبرني..»

فجأة تشوش الاتصال وانقطع تماماً بين الطائرة والمطار، في حين بقي الكابتن مشغولاً بأمرين في آن واحد، أمر ذلك السؤال

الأخيـر بدرجـة أقـل، والهبـوط بسـلامة بدرجـة أكبـر، خاصـة أن الأوضـاع بـدأت في التعقيـد فجـأة، فقـد ازدادت سـرعة الطائـرة نحـو الأسـفل بدرجـة واضحـة وغيـر محسـوبة، في حـين سـمعت أصـوات مرتفعـة تنبعـث مـن صالـة الطائـرة، وكأن هنـاك أشـخاص يتشـاجرون، وهـو مـا زاد اسـتغراب الكابـتن، أي سـبب يدعـو للشـجار والجميـع في مواجهـة المـوت.

●●●

(٤)

في قاعة صغيرة مخصصة للمناسبات داخل «فندق قلوبال» الواقع على شارع «دير زيت» بأديس أبابا، علقت صورة كبيرة لمغني الريغي المعروف بوب مارلي، تبدو فيها جدائل شعره متدلية سوداء وكأنها مدهونة للتوّ.

لم يكن هذا الفندق مشهور جداً، وهو من فئة الأربعة نجوم، غير أن طائفة الراستافارية العالمية كانت قد اتخذته مقراً لها داخل أثيوبيا لعقد اجتماعاتها السرية السنوية، بحضور الأعضاء الكبار من مختلف بلدان العالم.

كان هناك ثلاثة شباب أثيوبيون من الطائفة يجهزون القاعة في حين رنّ هاتف أحدهم في جيب بنطاله.

أخرج الهاتف المحمول، ليسمع المتصل به يحدثه:

«أنباء سيئة.. حياة الزعيم في خطر»

لثوان كان الشاب ذو الجدائل الطويلة والبشرة السمراء، الذي يبدو من بعيد، كما لو أنه نسخة من بوب مارلي الزعيم الأساسي للطائفة الراستافارية إلى أن مات في ١١ مايو ١٩٨١م.

تصلّب الشاب في مكانه عاجزاً عن الحركة أو التفكير، ونسي أين كان يقف، حتى استرجع ذاكرته مع سماع محدثه عبر الهاتف، يخبره:

«أوقفوا كل شيء، حتى إشعار آخر.. فمستقبل الطائفة الآن في خطر»

لم يفهم الشاب ماذا يعني محدثه، بقوله مستقبل الطائفة في خطر، فهو يعلم أن الطائفة الراستافارية لا تتأثر بموت الزعيم، فإذا رحل عن العالم فثمة من يخلفه، وهكذا سيستمر الوضع إلى يوم الدينونة؛ لأن أعضاؤها ظلوا يؤمنون تماماً بأن الخالد الوحيد هو زعيمهم الروحي ملك أثيوبيا السابق هيلا سلاسى، وهو الذي يحافظ على خلود طائفته، ويحركها من على البعد.

فسلاسي عندهم، هو الإله الذي حل جسداً في الأرض، وهو المسيح الأسود الخالد في التاريخ الإنساني، الذي رقت روحه بموته إلى كوكب بعيد تسكنه، وحيث ترك بصمته إلى الأبد في أناس طابعهم الخير، وحيث لن يكون للأشرار من ملجأ في قلوبهم، مع شعارهم الذي كان مكتوباً بخط عريض في لافتة بالقاعة..

«حتماً سوف تموت كل الشياطين عاجلاً أم أجلاً»

أخبر الشاب زميليه بالخبر الذي تلقاه، ولم تكن ثمة تفاصيل أكثر مما سمع، لأن محدثه كان قد أغلق الهاتف، ولم يضف شيئاً على ما قال.

وقد كان على الشباب أن يلتزموا الانتظار إلى حين إشعارهم بالتفاصيل أو توجيه تعليمات لهم بالخطوة القادمة، هل يوقفون تجهيز القاعة التي من المفترض أن تشهد الاجتماع السنوي للطائفة مساء اليوم، أم يستمرون في عملهم؟!

وهم يفكرون في الخطوة المقبلة، لم يكونوا على أي علم بمن يكون زعيم الطائفة! ولا مكانه! ولا جنسيته! فقد ظلت تلك من الأسرار التي لا يعلمها إلا الأعضاء الكبار، ولهذا ليس بإمكانهم التكهن مهما بلغ خيالهم بفحوى الخطر الذي يتعرض له الزعيم.

غاية ما كانوا على علم به هو أن بوب مارلي كان آخر الزعماء، وقد تم تنصيب بديل غامض له، لم يفصح عنه لأسباب تراها النخبة المهيمنة على تدبير الأمور والشؤون العليا في الطائفة. هذا الزعيم الذي من المفترض أن يكون اليوم هنا في هذه القاعة ليخاطب الاجتماع السنوي، وقد يكون أي منهم سعيداً بأن يسمح له بمصافحته على الأقل، أما القاعة فسوف تغلق للمعنيين فقط.

على أي حال كان يجب الانتظار للدقائق القادمة وربما الساعات، التي حتما سوف تكشف كل شيء غالبا، وعليهم ألا يستعجلوا.

كما عليهم أن يظلوا في مكانهم في هذا الوضع المقلق في انتظار مكالمة أخرى من عميدهم الأثيوبي الذي كان يلقب بـ «ماركوس غارفي»، دون أن يعرف أحدهم اسمه الحقيقي، وهو الرجل المكلف بالتنسيق مع الشباب الصغار في ترتيب الأمور والاستعداد ليوم كان يطلق عليه تاريخياً، في حين يترك باقي التفاصيل بلا توضيح، يكتفي بابتسامته المبتسرة وهو يواجه صورته في مرآة كبيرة في بهو الفندق، كمن يظن نفسه شخص آخر.

كانوا يعلمون أن غارفي الأصل صاحب الاسم هو رسول الراستافارية ومحب السلام الذي استطاع أن ينشر الديانة في موطنه جامايكا في النصف الأول من القرن العشرين قبل أن يهاجر لأمريكا، وبفضله اقتنع الآلاف من سكان بلده لاسيما العمال والمزارعون السود في أوائل الثلاثينيات، الراستافارية كدين سيخلصهم من قهر أرباب العمل والأثرياء وعاشوا يحلمون بالعودة إلى وطنهم الأم أفريقيا، تحديداً إلى أثيوبيا حيث أرض القيامة الموعودة والمدينة الفاضلة، فكلمة أثيوبيا تعني باللغة الأمهرية المحلية «المدينة الفاضلة»، أما أديس أبابا العاصمة فتعني «الزهرة الجديدة»، التي سوف تتفتح بخيرها على العالم أجمع.

ما يعلمه الشباب الثلاثة بدرجة أفضل، هو أن غارفي الأصل هو الذي أهدى للعالم المغني بوب مارلي، فقد كان بوب أحد

معتنقـي الديانـة الراسـتافارية، وقـد أصـدر في سـنة ١٩٧٦ ألبومـه الشـهير «اهتـزاز الرجـل الرسـتفاري Rasta man Vibration» الـذي حقـق مبيعـات قياسـية.

الملايـين استمعوا لهـذا الألبـوم دون أن يعلمـوا حقيقتـه، ودون أن يفهمـوا ذلـك السـحر الـذي كان يخبئـه، تلـك الـروح الإلهيـة التـي كانـت تحـرك بـوب مارلـي ليكـون مـن عظـام المغنيـين في القـرن العشـرين.

عـاد الهاتـف للرنـين مـن جديـد، أسـرع الشـاب للـردّ، في حـين كان زميـلاه متلهفـين لسـماع الجديـد. ومـن مراقبـة تعبيـرات وجهـه بـدا لهمـا أن الأمـور ليسـت علـى مـا يـرام، لكنهمـا عليهمـا الانتظـار لمكالمـة لـن تطـول، كمـا يتوقعـان.

●●●

(٥)

أنفق الشاب الأثيوبي ابراهام غوسي سنوات من عمره في سبيل البحث عن هويته الفنية، فقد كان يعلم حق العلم بموهبته الغنائية وقدرته على أن يصبح نجماً ذات يوم، وكان انضمامه للطائفة الراستافارية جزءاً من هدف محدد آمن به، بأن كبار المغنيين في العالم من ذوي البشرة السمراء عبروا هذا الجسر، ربما تكن تلك حقيقة مشوبة بشيء من التشويش التقطها ذات يوم بالصدفة لكنها ظلت في ذاكرته وشكّلت غايته في العالم.

يوم أنضم للطائفة كان هذا هدفه، الصعود الصاروخي الذي يوصله إلى النجومية، لكن في ذلك النهار حدثت الكارثة التي لم يتوقعها، إذ أعلنت شاشة التلفزة في الفندق عن اختفاء طائرة الإيرباص الإيطالية A٣٢٠ فوق الهضاب الأثيوبية، دون معلومات واضحة عنها، ثمة من قال إنها تحطمت فوق التضاريس الجبلية وهناك من ذكر أو تكهن إنها انحرفت عن مسارها وسقطت في البحر الأحمر، ولم يكن من حقيقة مؤكدة سوى اجتهادات المحللين في وسائل الإعلام والفضائيات التي تبحث وراء الإثارة.

ولم يكن ثمة وقت طويل فاصل بين المكالمة التي سمع فيها صوت غاري يخبره بأن طائرة الزعيم قد اختفت، وإيراد الأخبار في التلفزيون أمامه في صالة الفندق، ليشعر بشيء من الأسى العميق

يحاصره، بأن كل مستقبله تقريباً في خطر، فهذه الإيرباص مفترض أنها تحمل زعيم الطائفة الذي سوف يبارك خطواته وهذا يعني أن مساره في عالم الغناء والشهرة سوف ينفتح إلى الأبد.

قال له ماركوس غارفي، قبلها بيوم مساء وهما في الطريق إلى الفندق:

«إذا قال لك كلمته فقد انتهى كل شيء»

«يعني أن علي أن استعد لهذا الحدث المهم في حياتي»

«نعم.. ولكن ليبقى الأمر سراً بيننا.. يجب ألا تخبر أحداً بأنك سوف تقابل الزعيم أو تتكلم معه»

وظل غوسي يفكر من يا ترى هو ذلك الزعيم الذي يقود الطائفة الآن.. لكنه توصل إلى قرار مع نفسه أن ذلك ليس مهماً أبداً، بالمهم له أن ينال البركات التي سوف تنقله إلى عالم آخر جميل ورائع.

الآن يتبدد كل شيء. فاختفاء الطائرة أو تحطمها كما تقول الأخبار يعني نهاية الحلم بل تبدده.. ولم يكن في إمكانه السيطرة على مشاعره التي انعكست في ارتباكه وإسراعه للجلوس في مقعد بالصالة علّه أن يفرغ ما فيه من وجع شديد حاصر جسده، وأنهكه كمن هو مصاب بالحمى.

كان رفيقاه قد جلسا في ناصية من الصالة يتابعان الأخبار ولم يكونا على اطلاع بحقيقة ما جرى، دون أن يصلا إلى السر حوّل ابراهام من كائن مرح وفي غضون وقت وجيز إلى شخص مرتبك ومستاء لا يرغب في أي حديث، رغم أنه ومنذ الصباح الباكر كان مليئاً بالحيوية وهو يحفزهم على الأمر لأجل هذا اليوم التاريخي.

●●●

(٦)

كان مسؤول كبير في جهاز الأمن الأثيوبي قد اتصل بمدير مطار أديس أبابا قبل اختراق الطيور للطائرة ومن ثم هبوطها الإضطراري فتحطمها فوق الهضبة الحبشية، وموضوعه تعلق بالسؤال حول هوية الأشخاص المهمين في الطائرة، أي الناس الاعتباريين أو الذين ينتمون للمشاهير.

أخرج المدير القائمة التي كان قد طلبها من موظفيه وقرأ الاسماء هاتفياً، لا يوجد فيها اسم مثير للانتباه بالنسبة للمدير، لكن رجال الأمن لهم رؤية أخرى.

شكر الضابط الأمني المدير، ومن ثم أغلق الخط، ليصل إلى تحليل مفاده أن الشخص المعين ليس ضمن المجموعة، فالفكرة التي عندهم من خلال المراقبة المستمرة لتحركات الطائفة الراستافارية أن زعيمهم المفترض سيصل اليوم على متن هذه الإيرباص، وأنه بالتحديد الفنان العالمي ملك البوب المعروف مايكل جاكسون.

يعلم الضابط المتخصص في هذه الشؤون بدقة، أن جاكسون سبق له أن زار أثيوبيا عدة مرات لمسائل تتعلق بالطائفة الراستافارية، التي ينتمي لها وكان أحد أتباعها حيث تم تجنيده على يد عرابه الفنان الجامايكي والزعيم السابق بوب مارلي،

وأنه لم يتول عملياً الزعامة إلا قبل عام أو أقل، وهذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها اجتماعاً للنخبة العليا للطائفة.

ليس ثمة شرط يتطلب أن يكون زعيم الطائفة الروحي من الفنانيين أو المغنيين، وقد تنقل الكثيرون في هذا المنصب من بعد موت بوب مارلي منهم رجال أعمال وسياسيين ومثقفين لا يظهرون اسمائهم أو يعلنون عن هويتهم أمام الملأ، إذ ظلت طبيعة الطائفة وعملها غامضة وسرية لحد كبير، لكن ثمة جهات كانت تعرف ولأسباب محددة تتعلق بأمن الطائفة نفسها.

وبالنسبة لجهاز الأمن الأثيوبي فكون الطائفة نبيها الأساسي وسيدها هو الملك السابق، ملك أثيوبيا السابق هيلا سلاسى، وهو الذي يحافظ على كيانها الروحي، فقد كانت قد أنشأت وحدة سرية في الجهاز منذ تلك الفترة المبكرة أيام حكم سلاسي، قبل موته أو رفعه إلى السماء كما يعتقد أتباعه.

ومنذ عام ١٩٧٤ وبسبب تغير نظام الحكم كان ممكناً إلغاء هذه الوحدة السرية ولكن السلطات أبقت عليها لأسباب كثيرة أقلها متابعة نشاط الطائفة الديني، وحركة الجامايكيين الذين كانوا يحضرون سنوياً للحج إلى أثيوبيا وزيارة أرضهم المقدسة، كذلك كانت السلطة لها تخوف أن تتحول الطائفة إلى نشاط سياسي ذات يوم فتهدد النظام.

(٧)

عندما دفن الإمبراطور السابق هيلا سلاسي، أو حيلي ثلاثي، أي «قوة الثالوث» وهي رمزية تحيل إلى تماثل مع الثالوث المسيحي، كان غوسي في العشرين من عمره تقريباً، ولم يمض ثمة زمن طويل، هي أربع سنوات فقط منذ ذلك اليوم الذي يذكره جيداً، ووقتها بدأت علاقته مع الطائفة عن طريق مجموعة من الأصدقاء لم يكن لهم كبير اهتمام بالموضوع، مثلما سوف يصبح شاغله الشخصي، ومحدداً من محددات حياته.

لكن هيلا سلاسي كان قد مات منذ ١٩٧٥ ولم يعثر على رفاته، إلا في ١٩٩٢ في ركن قصي من القصر الملكي، في قصة معقدة تشبه الخرافة، ولم يدفن إلا بعد ربع قرن من وفاته، والموضوع برمته يليق بالحياة الطقسية لهذا الكائن الإلهي، كما في عُرّف أتباعه، الذي كان قد عُرِف رسمياً بأنه من أتباع كنيسة التوحيد الأرثوذكسية الإثيوبية.

انتهى حكمه بثورة شيوعية عارمة قادها الجنرال العسكري منغستو هيلا مريام، في فترة المد الثوري للضباط في إفريقيا، من انقلابات في كل مكان، بحيث كان الناس يرون في العسكرية رمزية ممكنة للتغيير المرتقب في حياة الشعوب التي عاشت ويلات الاستعمار والحكام المتضامنين مع المستعمرين، لكن جديداً

لم يحدث في القارة السمراء، لقد خلقت مناخات جديدة من الارستقراطية والبرجوازية في كل مكان على أثر المد الشيوعي، الماركسي الذي أثبت أنه كان زائفاً وملتبساً، وفي المقابل كانت تنشأ الأجواء الروحية أو التعلق بالديانات محلية الصنع، في سبيل أن يكون هناك خلاص ولو مؤقت.

وقد كانت طائفة «راستافاريان» واحدة من تجليات تلك الحقبة، وبعد موت هيلا سلاسي، كان الأثر يتعاظم بدوره الروحي، الذي امتد إلى جامايكا في مسألة كانت في حد ذاتها غريبة ومدهشة وغير مفهومة لأكثر الناس، وبحيث ظلوا يعتقدون حتى بعد موته أنه لا يزال حياً وبصحة جيدة، أو أن جسده صعد إلى السماء.

ولكن حقيقة الارتباط الجامايكي تشكل عبر مهاجرين وصلوا في فترات مبكرة منذ عام ١٩٤٨ بحثا عن أرض الجذور، لاسيما أن معظم الجامايكيين في الأصل هم أفارقة، وبمرور الزمن تزايدت الأعداد وحتى عام ١٩٨١ كان يصل مهاجرون، أي ما بعد وفاة هيلا سلاسي الذي ظلوا ينظرون إليه على أنه المسيح الأسود، في حين أثيوبيا أو أديس أبابا هي أورشليم الجديدة.

وظل هيلا سلاسي كتجسيد للرب عند الجامايكيين عندما بدأت حركته بين الطبقات العاملة السود في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، آثر على تأويل لنبوءة إنجيلية تقوم في جزء منها على

حالة هيلا سيلاسي بوصفه الحاكم الأفريقي الوحيد في ذلك الوقت على دولة مستقلة تماماً، وألقابه كانت ملك الملوك وسيد السادة.

يتذكر غوسي كيف أن آلاف الجاماكيين حضروا إلى أديس أبابا لتشييع الإله، وقد عللوا الأمر بأنه بدن فان، لأن حقيقة الروح خالدة. الإله الحي في السماء، وهذا الرمز أو البدن أو الحلول قد فني ويمكن إبداله بجسد آخر إذا شاء الإله ذات يوم. وبعضهم قال إنه غير مقتنع بأن هذا هو، إنما هو نوع من تضليل السلطات، وأن حضورهم بغرض المراقبة لا المشاركة.

في تلك الفترة تعرف غوسي على معلمه وعرّابه ماركوس، وآخرين أمثال السوداني علي لومومبا، الذي كان يعيش في أديس أبابا ويعمل في تجارة الأقمشة، وآخرين.

كان لومومبا قد لقب نفسه بهذا الاسم أسوة بالمناضل الكونغولي ذو الميول الاشتراكية وأول رئيس وزراء في تاريخ بلاده، الذي توفي سنة ١٩٦١، في حادثة اغتيال غامضة إلى اليوم لعب الأمريكيون والبلجيك دوراً فيها. وقد تعرف على غوسي ليخبره وهو في بداية الطريق:

«لا يوجد ثمة مسيح مخلص إلا هيلا سلاسي، إنه الإله الحقيقي»

وكان هيلا، اسمه الرسمي «تافاري ماكونن» ويسبق اسمه دائما كلمة راس، التي تعني بالأمهرية المحلية «الأمير»، ومن هنا جاء لقب «راس تافاري» ومنه نسجت واشتقت كلمة «راستافارية».

يسمع غوسي أحد كبار السن المشاركين في جنازة هيلا سلاسي يتكلم عن كيف أنه كان شاباً يوم زار الإله جامايكا وفي ذلك اليوم هطلت الأمطار غزارة، بعد سنوات طويلة من الجفاف، في حين تتداخل عنده الأصوات كأنه في حفل ريغي حقيقي، بحيث ارتفعت موسيقى بوب مارلي في المكان دفاقة ساحرة والكل يهتف راستا.. راستا.

●●●

(٨)

استيقظ «راكان آل بوم» من لحظة تأمل، وهو يفكر في الموت، تلك الحقيقة الغامضة!كيف سيواجهه، وهل سيكون شجاعاً أمامه ويستقبله كسيمفونية تعزف في قاعة عالية الجدران داخل دار أوبرا هائلة البناء من الخارج، تعيده بمنظرها الآسر إلى عصور هندسة العصور الوسطى في لحظة غامضة، تشبه في تخفيها النهاية التي لا أحد يعرف عنها أي شيء مطلقاً. أم أنه سيجبن ويفزع صارخاً بصوت مرتفع: لا؟!

«لكن لا أحد سيسمعني»

قال لنفسه وهو ينهض من على الكرسي الخشبي في الصف الأخير من ستة صفوف من الكراسي التي رصت على شكل يوحي بطقس ديني.

«أي شيء يشبه هذا الشكل؟»

فكر قليلاً قبل أن يصل إلى الإجابة مع دخول رجل طويل القامة يبدو في العقد السادس من عمره، يشعّ من وجهه وقار متشحّ بمسحة يصعب تفسيرها؛ رآها راكان خليطاً بين الحزن والفرح والغموض أيضا.. غموض الموت وغموض المباني الهائلة ذات الطراز المعماري الروماني.

الرجل قدم له الإجابة ببساطة لأن القلادة التي كان يلبسها على عنقه والتي تدلت إلى أسفل صدره بقليل، فوق الثوب الأبيض الشفاف، كانت تحمل في نهايتها من أسفل تصميم من الذهب على ما يبدو، يشبه إلى حد بعيد نجمة داؤود، وقد خيّل لراكان أنه رأى هذه القلادة نفسها من قبل أو ما يشبهها، لكن صعب عليه تذكر أين كان ذلك. ومن كان يحملها أو يلبسها.

وقف جميع الحضور بالقاعة، إلى أن جلس الرجل المهيب في الوسط في كرسي بسيط التصميم، لكنه يسمح له بالدوران في كل الاتجاهات، بحيث اتخذ الرجل مركز دائرة يكاد يُشكِّل الصف السادس من الكراسي بالقاعة خطها الخارجي.

«لقد رحل مايكل»، ولكني ورثت عنه مخافة الموت»

قال راكان لنفسه، مستغرقاً في هواجس ذلك الصباح الوردي، إذا سمح للموت بأن يحمل هذا اللون. وهو اللون المفضل لسيده ملك البوب وقد وصل عشقه له أنه دق وشماً وردياً على شفتيه. وعلى العكس من حبه للوردي كان يخاف الموت تماما ويتمنى لو أن الإنسان خلق خالداً كالآلهة.

قطع عليه تأملاته صوت ميكروفون في القاعة. كان المتحدث شاب في العقد الثالث من عمره، قدم للحضور السيد لويد قائلاً:

«لقد كان حقاً علينا أن نحتفل بذكرى مايكل.. لكن على أية حال يجب ألا نحزن كثيراً فمايكل خالد لم يمت»

بدت العبارات الأخيرة في ذهن راكان كما لو أنها استعارة أو مجاز، «فأي إنسان يرسم شيئاً مميزاً في تاريخ الإنسانية، لابد أنه خالد. ومايكل لم يمت لأنه موسيقاه وفنه باقيان».

لكن بمجرد أن بدأ السيد لويد في الحديث اكتشف السائق السابق لملك البوب أنه كان على خطأ، فليس ثمة مجازات ولا تخيل فالأمر جدي.. فقد قال لويد بعد أن شكر الحضور على استجابته لدعوته:

«ذات يوم قريب سيرى الجميع مايكل بعينه، لقد تم استنساخه بواسطة الطائفة، بناء على رغبته»

ومضي لويد للتأكيد:

«شعرنا بحزن شديد مثل كل المحبين بعد اختفاء مايكل من على الأرض بوصفه يحظى بلقب الزعيم الشرفي للطائفة منذ عام ١٩٩٢، غير أن حزننا حتماً مؤقت، فجاكسون حي الآن في كوكب الألوهيم، مع زمرة من البشر القلائل الذين قدموا خدمات خارقة للإنسانية.. وإلى أن يعود إليكم في الأرض مجدداً عندما يرغب الخالقون في العودة، حيث يأتي معهم.. إلى ذلك الحين سنتمتع جميعاً برؤية نسخة أرضية منه»

كرر مجدداً:

«لا حزن إذن فجاكسون قريب منكم.. بلحمه ودمه»

رغم أن راكان كان أحد السائقين الثلاثة الذين عملوا مع جاكسون طوال حياته وكان قريبا منه يعرف الكثير من أسراره، إلا أنه فوجئ بما أعلنه السيد لويد، فإلى آخر أيامه في الحياة كان ملك البوب يخاف الموت، ولم يتحدث أبداً عن أن هناك نسخة منه ستبقى بعد رحيله عن الأرض. لكنه تذكر الآن ما يشبه الدعابة في طرف حوار جرى بينه ومايكل وهما في طريقهما بالطائرة من لندن إلى المنامة.

يصعب على راكان تذكر اليوم بالتحديد، في الوقت الذي كان يسمع فيه صوت أزيز الطائرة وكأنها تقلع الآن في القاعة التي غادرها قبل دقائق، فقد كانت ذاكرة السائق السمعية أقوى من مهارته في تذكر الأيام والتواريخ، ويعلم جيداً أنه اكتسب ذلك من عشقه للموسيقى، وهو السبب نفسه الذي جعل مايكل يختاره سائقاً شخصياً له، عندما قال له أثناء معاينته لأول مرة:

«إذا أثبت لي أن أذنك أكبر من أي عضو آخر في جسدك فأنت نجحت في الاختبار»

كانت لجاكسون قدراته الخاصة في معرفة الناس الذين يعملون معه، «لقد كان قوي الحدس ومن النادر أن تخيب تخميناته.. لكن كونه يمزج المزاح بالجد، فهذا يجعلك لا تفهم في كثير من الأحيان حقيقته».

ارتفعت الطائرة فوق سماء لندن، من مطار هيثرو الدولي، ووسط الأزيز كان راكان قادراً على تمييز كلمات جاكسون له:

«تخيّل أن هذه الرحلة لن تكتمل.. وأن الطائرة تعطلت لأي سبب ما.. فماذا سيكون مصيرنا؟»

انتظر السائق أن يسمع بقية الكلام، فيبدو أن جاكسون لا يسأل، فهو يريد أن يوصل فكرة ما، فقد تعود على هذه الطريقة في الكلام التي دائما ما تبدأ بالأسئلة وتنتهي بطرح الإجابات دون تدخل من المستمع، هذا إذا ما كان يعرف جاكسون جيداً.

أجاب جاكسون بنفسه:

«سنموت.. على أفضل الحظوظ فأنا سوف أموت.. ربما تبقى أنت حي لتخبرهم بأنني كنت أمتلك شعوراً خفياً بما حدث»

كان جاكسون في تلك المرة يتكلم عن الموت بشيء من السخرية، كعكس عادته، فكّر راكان آل بوم، قبل أن يسمع ما ظنه دعابة:

«لكن لن تمر سوى سنوات قليلة وستراني مرة أخرى أغني في حفل في لندن، سترى ذلك الولد الأسمر دون أية تدخلات جراحية، سيعود ذلك الصبي ليغني من جديد.. هل يمكن تصديق ذلك؟!»

●●●

(٩)

على متن الطائرة كان الراكب على المقعد الأول من اليمين، على الصف الحادي عشر، بجوار النافذة تماما. شاب في مقتبل العمر، لم يتجاوز السادسة والعشرين إلا بقليل. شهران ونصف.

طوال الرحلة ظل هادئاً لا ينظر إلى ما حوله، ولم يفك كوفيته البيضاء المقلمة بالأسود، والتي غطت فمه وأنفه. ولم يبدو من وجهه سوى عيناه المدثرتان وراء نظارة بإطار بلاستيكي رمادي اللون.

وإذا كان منظره يعطي صورة مناضل فلسطيني يستعد للمشاركة في محفل دولي، حيث ارتبطت هيئة تلك الكوفية التي يلبسها بأناس على هذا الشاكلة، إلا أن «شاكر السفياني»، كان يعلم جيداً أنه ليس فلسطينياً، لكنه كان عليه أن يلتزم بهذا الزي كواحدة من التزاماته العديدة، بعد دخول حياته في تغيير متسارع منذ ثمانية أشهر تقريباً بانتمائه إلى الجماعة المكلفة بالدعوة السرية، ومن ثم الجهرية بعد عدة سنوات يحددها القائد، بهدف التسويق لفكرة نهاية العالم التي اقتربت جداً بظن أعضاء الجماعة.

«كل شيء محدد بدقة»

قال له مُجنِده للجماعة في الاجتماع السري داخل شقة صغيرة في أحد أحياء المدينة الراقية.

لأن عينيه عصبتا في الطريق من الميدان العام الذي التقيا فيه إلى الشقة المذكورة، فليس بإمكان السفياني أن يحدد موقع تجنيده بالضبط. لكنه يتذكر الآن جيداً وهو على الطائرة، أن كل شيء كان محسوباً بدقة، تماما كما قال قائده في «كتيبة الحاقة»، وهي إحدى عشرات الكتائب التي من المفترض أن تعمل لذات الهدف الذي أصبح السفياني موقناً به تماما ومستعداً للتضحية بحياته من أجله.

«أنت الآن قد جهزت تماما للقيام بالمهمة.. وتذكر أن الأخوان أمثالك يعملون أيضا.. وإذا كان السباق لأجل الله. فحتما لا مخافة»

قال له مجنده، الذي عرّفه باسمه في البداية..

«مروان البلالي»..

وقد كان شاكر متأكداً أن هذا الاسم مستعاراً، خصوصا الاسم الثاني.. فالرجل قد يكون اسمه «مروان» أما الاسم الثاني فإما أن يختاره العضو بنفسه وتوافق عليه الجماعة أو يقوم مُجنده بإطلاقه عليه، كما حدث مع شاكر نفسه، الذي وجد البلالي

يخاطبه وهو يودعه في نفس المكان من الميدان في وسط العاصمة أمستردام، الذي التقيا فيه:

«أنت الآن ابن السفياني.. يرعاك اللّه»

ونبهه قائلاً:

«احرص على قراءة الكتاب الذي معك بدقة ولا يطلع عليه أحد، ولا تبدأ أية خطوة قبل أن تتأكد أنك تفهم تفاصيل ما أنت تعمل لأجله»

بعد يومين كان شاكر، يقرأ الكتاب للمرة الثانية، مستغرقاً في تفاصيله، وقد فكر كثيراً من يكون مؤلفه. وبالطبع لا إجابة. فقد قال له مجنده:

«المهم أننا نعرف ونتعلم ونؤمن.. أما من قال ومن ألف فليس مهما.. وفي اللحظة المناسبة سوف يعرف كل منا الحقيقة.. صدقني أنا نفسي لا أعرف!»

باسترجاع كلمات البلالي، قرر التوقف عن التفكير من يكون مؤلف الكتاب، واكتفى بأن يشغل نفسه بالتفاصيل التي يتضمنها في رواية مذهلة للسنوات المتبقية من عمر العالم، الحياة على هذا الكوكب بالتحديد.

فأول الإشارات المهمة التي يفيدها الكتاب أن الكون لن ينتهي بالتصور التقليدي السائد، فالنهاية المقصودة ما هي إلا نهاية لدورة الحياة على الأرض. بالتحديد دورة حياة الجنس البشري من ذرية آدم، الذي هبط إلى الأرض من الجنة قبل ٢٥ ألف سنة بالضبط.. وفقا لما يفيد الكتاب، الذي كان يسند جميع الأحداث الماضية والمستقبلية فيه إلى تواريخ يحددها تماما بالشهر واليوم والسنة.

يشير الكتاب إلى أن يوم ٤ من الشهر الرابع (٤) في سنة ١٤٤٤ سوف ينتهي كل شيء. وذلك بالتقويم الهجري (القمري). أي يوم الرابع من شهر ربيع الثاني. وإذا كان الساعة تقوم يوم الجمعة كما يقرّ الكتاب، فهذا التاريخ المذكور يوافق يوم السبت ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٢ وليس الجمعة، لكن هذا الإشكال يحل ببساطة حيث أن اليوم القمري يبدأ من الليل بعد غروب الشمس، وبالتالي فإن أول الرابع من ربيع الثاني ١٤٤٤ يوافق مساء الجمعة الـ ٢٨ من أكتوبر ٢٠٢٢.

«إذن هو اليوم الموعود الذي لا ريب فيه»

قال شاكر لنفسه، وهو يعيد القراءة بتمعن، منتبهاً تماما إلى حبكة وطريقة السرد في الكتاب التي تقوم على أسلوب شيق يجمع بين الدين والعلم بطريقة محسوبة ممنطقة، خاصة أن شاكر كان من هواة الرياضيات وعلم البرمجة ومن الناس الذين كثيراً ما

أعادوا التفكير في الأمور بشكل مختلف، ولكن ليس بهذه الطريقة التي يطرحها الكتاب والتي أدهشته، وقد ساعده الكتاب على فهم الكثير من الأمور التي كان يراها ألغازاً وأساطير في إطار ما كان يعتقده من تصورات متوارثة.

●●●

(١٠)

ما جرى في الطائرة من لندن إلى المنامة بين مايكل وراكان، أنتهى في ذهن الأخير كمزحة من مزح جاكسون الكثيرة، ولم يكن للحديث بقية. الآن وراكان يجلس على أريكة في بهو الفندق الذي يتبع لسلسلة فنادق وكازينوهات رجل الأعمال المعروف ستيفن كروز في لاس فيجاس الأمريكية؛ يستحضر تلك الدعابة على أنها ربما تكون حقيقة، فإلى اللحظة ليس متأكداً من شيء، فالسيد لويد ليس بالإمكان تصديقه، لقد واجهه أحد الصحفيين في القاعة عندما سمح بطرح الأسئلة والتي كانت محدودة جداً:

«سيد لويد تدعي من جديد أنك قادر على إعادة الناس إلى الحياة..»

قاطعه لويد :

«يجب أن تكون دقيقاً في التعبير.. أنا لم أقل أنني قادر على إعادة جاكسون على الحياة.. ما قلت أن نسخة منه ستكون هنا قريباً وستشاهدونها»

«لكنك قلت: سيرى الجميع مايكل بعينه!.. ماذا يعني هذا بالنسبة لكَ؟!»

ابتسم لويد قبل أن يرد:

«العودة إلى الحياة من جديد أمر مختلف عن استتساخ شخص.. لكن يمكن للنسخة أن تكون الشخص نفسه بشرط واحد.. إذا استطعنا أن نخزن كل المعلومات التي كانت في ذهن الشخص الأول، في ذهن الشخص المستنسخ منه»

قاطع أحد الصحفيين لويد مندهشاً:

«هذا يعني أنكم تستنسخون الجسد فقط وإن الروح لا يمكن استنساخها؟!»

كانت ابتسامة لويد قد ظهرت من جديد، ولكن بدرجة أقل من المرة الأولى، كانت ابتسامة سرعان ما بدت جدية استنكارية، قال:

«لا شيء اسمه الروح مطلقاً.. الروح إحدى الاختراعات البشرية!»

فاجئ صحفي آخر يجلس قريباً من راكان لويد بسؤاله:

«لقد سبق أن أعلنت قبل سنوات عن استنساخ أول إنسان في العالم، أنثى اسميتومها حواء واتضح أن الأمر مجرد كذبة»

سأله لويد : «ماذا تعني؟»

«أعني أن الأمر كان مجرد فرقعة إعلامية.. لا يوجد دليل واحد على أن حواء التي تحدثتم عنها موجودة»

من جديد عاد لويد لتكرار ابتسامته التي بدت غامضة هذه المرة، اكتفى بالقول:

«سينتهي اللقاء هنا .. أشكر الجميع على تكبد المشاق..»

صرخ الصحفي الأخير بصوت مرتفع:

«أيها النبي المزيف أنك تتهرب من مواجهتك بزيفك»

ردّ لويد بهدوء وهو يعدل ثوبه مغادراً وسط القاعة محاطاً بحفاوة من أتباعه:

«عندما يكون الإنسان مستعداً لسماع الحقيقة فسوف تنكشف له، أما إذا كان مجرد ثرثار فارغ هوايته الجدل فسوف يبقى هكذا إلى آخر لحظة من حياته»

وأردف قائلاً:

«هذا هو الفرق بين الذين ينشدون الحقيقة وبين الباحثون عن المزيد من الجهل»

●●●

(١١)

كثير من الحوادث تبدأ غامضة وتنتهي بمزيد من الغموض، وفي حادثة طائرة الإيرباص، فقد كانت هناك أكثر من رواية غير مدققة، أما الرواية التي تم الترويج لها داخل أثيوبيا وفي إيطاليا أن الصندوق الأسود الذي عثر عليه بعد عدة أيام، من البحث في الهضاب الأثيوبية، كشف كيف أن الكابتن الأرمني فشل في التحكم في المقصورة، بعد أن حدث أمر غير مفهوم بالضبط، ومن ثم سقطت الطائرة.

قد تكون الطيور هي أحد الأسباب التي ساهمت في الحادث، لكن الكابتن تشارنتس أوكسودينوس كان يدرك قدرته على السيطرة تماما.. فما الذي حدث؟! كان هذا السؤال المربك في البداية للمحققين.

هناك مسألة غامضة أخرى وردت بعض تفاصيلها في الصندوق الأسود وتم حجبها، وهي أن عملية انتحارية حقيقية تمت داخل الطائرة كانت هي السبب الرئيسي وراء التحطم، ولكن كيف تزامنت مع موضوع الطيور فقد كان ذلك بنظر المحللين مجرد صدفة لا غير.

لكن بعض الأمور أيضا تظل غامضة لبعض الأطراف، في تبادل المعلومات، فالأمن الأثيوبي كما الإيطالي وجهات أخرى شاركت في التحقيق، لم تكن واقعياً تتعامل بشفافية كبيرة، ثمة مصالح خفية يتم حجبها وكل طرف كان بإمكانه أن يحقق ما يرغب فيه فحسب.

لهذا كان المحقق الإيطالي مثلاً في حيرة مما تم سماعه في تسجيلات الشريط الأسود، من سؤال مطار أديس أبابا حول عدد كبار الركاب، وهو ما يفترض أن يجيب عنه المسؤول الأثيوبي المشارك في التحقيق، وقد يكون لا يمتلك الإجابة أساساً. لكنه لم يبد أي تعليق كأنه الأمر ليس له أي دلالة.

وفي المطار بعد أن جرى تحقيق لاحق مع الموظفين، قالوا إنهم كانوا يتلقون الأوامر من جهة أمنية أعلى، وبالتالي كانت مهمتهم نقل الأسئلة والإجابات بين الأطراف المعنية فحسب دون أن يشغلوا بالهم بالتفكير كثيراً عما وراء ذلك، وما المقصود فلديهم من يشغلهم من شؤونهم الأسرية وحياتهم اليومية.

وفي حقيقة الأمر، فإن السؤال الذي طرح بخصوص عدد مقاعد كبار الركاب من قبل مطار أديس أبابا، كان له هدف معين يتعلق بوجود الشخص الذي تخلف عن الطائرة، والذي كان الأمن الإيطالي عبر أذرعه في الاستخبارات الأثيوبية يعلم بأنه الشخص

الأهم في رحلة الطائرة، لكنه نجا من الحادثة ليس لأنه كان يدري بأن ثمة تفجير للطائرة سيحدث، بل لأنه حدث أن اختل جدوله في ذلك اليوم لعلل صحي غير متوقع، مجرد رشح عابر، وفي مثل هذه الظروف فهو لا يغامر بالسفر أبداً، كانت صحته بالنسبة له أمراً مقدساً.

تأخر مايكل جاكسون عن الوصول لمطار روما، الأمر الذي شكّل معجزة بحسب الطائفة الراستافارية التي اجتمعت بعد أسبوع من الحادث وبرئاسة الزعيم الجديد مايكل، الذي اعتذر لهم عن حضوره في الأسبوع الماضي وقال:

«إنها إرادة الإله هيلا سلاسي التي أنقذتنا من هذا الموت المحقق»

وقف الحضور لبضع ثوان تعبيراً عن الشكر للمسيح الأسود، وبعدها شربوا العصائر والخمور محلية الصنع، وهم يشعرون بالبهجة على أن مايكل بينهم، وكان أشد الناس بهجة بلاشك الشاب غوسي، الذي لم يكن يتوقع بأي شكل كان أن يكون الزعيم هو مايكل جاكسون محبوبه المفضل وملهمه بعد بوب مارلي في سجل الغناء ومسيرته التي يحلم بها، في هذا العالم الغامض إلى اللحظة.

كان يتوقع أي زعيم كان سينال منه البركات، ولم يصل به التصور إلى أن هذا الرجل الذي حدثه عنه ماركوس، سيكون مايكل شخصياً.

يروي غوسي عن ذلك اليوم أنه كان نادراً، فكل الهموم التي تشكلت في الأسبوع الماضي منذ تحطم الطائرة انزاحت تماما، خاصة بعد أن أخذه مايكل جاكسون وكلمه همساً بعد أن أفصح بشأنه أمام الجميع..

«إنه عبقري حقيقي هذا الفتى»

كان غوسي قد غنى أغنية من تأليفه تتكلم عن أثيوبيا أرض الإله، أو الأرض الموعودة وعن الحياة والحب والجمال. وشدّ جاكسون جداً بصوته الذي يأتي كمزمور حقيقي، كما راقب الجميع الأغنية وأداء ابراهام. وانتهى الأمر بتجبيل عظيم من ملك البوب للشاب، وهو يقلده وساماً صغيراً كان يهبه أحياناً لقلة من الناس، الذين يشعر بأنهم يستحقون هذا الاحتفاء.

أطلق مايكل على غوسي لقبه الجديد الذي سوف يحمله من هذا اليوم..

«أنت مايكل.. مايكل الصغير»

سوف يسير مبتهجاً في ليل أديس، وهو يغني مع نفسه يرى السماء مضيئة ونجوم بعيدة تكلمه بالسعادة المقبلة، أن حلمه قد اقترب من التحقق. ولم ينس أن يشكر ماركوس غاري كثيراً.

(١٢)

قبل أن ينهض راكان من الأريكة، كان ما يزال مستغرقاً في تلك الدعابة التي أطلقها جاكسون، فإلى اللحظة فهو يتعامل مع الأمر على أنه مجرد مزحة.

انتبه فجأة إلى أن ثمة من يراقبه من بعيد. كان وجهاً مألوفاً بالنسبة له. إنه أوري جونسون. فهو يعرفه تماماً، فقد كان صديقاً حميماً لجاكسون إلى آخر أيامه في الحياة.

في حين كان جونسون يقطع المسافة الفاصلة بينه وراكان آل بوم، كان الأخير قد استعرض في ثوان معدودات أشياء كثيرة خبأتها ذاكرته المشوشة عن تلك الليلة الغامضة التي جمعت بين جونسون وجاكسون، والتي كانت بعد أيام قليلة من تلك الرحلة التي أطلق فيها ملك البوب الدعابة التي ما تزال مثار ريبة.

صافح جونسون راكان دون أن يتكلم، ولثوان بدت كأنما هي لحظة حداد، كانت يد جونسون ممسكة بيد السائق، الذي شعر كما لو أنه غير قادر على التماسك وأن جسده يرتجف. لقد كان خائفاً من أمر ما دون أن يمتلك الحدس الكافي على تحديده.

أخيراً تكلم آل بوم:

«هل تعتقد أن ما يروجون له صحيح؟!»

نــزع جونســون يــده بقــوة منهيــاً مصافحــة حميمــة بطريقــة مزعجـة، قبـل أن يـرد قائـلاً:

«هؤلاء مرهقطون..!!»

تماسك راكان بعض الشيء، بعد أن فهم مقصد جونسون.

«إنهم كذابون»

قال جونسون وأضاف:

«هنـاك نسـخة واحـدة مـن مايـكل كانـت تعيـش علـى الأرض، وقـد سـافرت هـذه النسـخة إلـى مـكان مجهـول مـن العالـم، أمـا أن يتكـرر مايكل فهذا مجـرد افتـراء»..

كان مايـكل يكـرر مـرات عديـدة: «يومـاً مـا سـأسـافر إلـى نقطـة لا عـودة منهـا، لكننـي سـأكون موجـوداً هنـاك حتمـاً بإمكانـي تحسـس حنجرتـي».. يقـول ذلـك وكأنـه يمـزح.

نظـر جونسـون في عينـي راكان مباشـرة، كأنـه يقـرأ مـا يفكـر فيـه مـن خـلال تتبـع حركـة رمشـيه، وقـال:

«لـم تفهـم مقصـدي.. الهرطقـة تنتهـي عنـد هـؤلاء.. لكـن الحقيقـة في مـكان آخـر!»

لا يفهم السائق في الفلسفة ولا الحكمة الخفية، رغم أنه رافق معظم سنوات عمله رجلاً كثير القراءة والتحدث عن الحكمة والأشياء الغامضة في العالم، يمزج ذلك مع الفيزياء والعلوم والدين بشكل غريب، فـ «جاكسون لم يكن مجرد مغنٍ يجيد الرقص على المسرح ويتعامل مع الموسيقى بجنون.. إنه معقد أكثر من ذلك.. وقلة تدري بهذا السر». فكّر راكان.

«كان جاكسون يقضي ساعات طويلة من الليل لاسيما في فصل الشتاء وهو يقرأ بنهم، وكان كلما سمع عن كتاب جديد أو قرأ عنه يسرع لاقتنائه، خاصة تلك الكتب التي تتعلق بالأمور الغيبية والديانات والعوالم الخفية. كأنه كان يبحث عن حقيقة ما؛ يريد أن يفهم سرّ وجوده في هذا العالم وربما السر الأعظم للوجود ككل»..

مثل هذه الأمور لم تكن تشغل بال آل بوم، ولم يكن كبير التطلع ليفهم عن حقيقة الوجود أكثر مما فهمه في المدرسة وما تربى عليه من قيم كنسية.

ذات يوم كان يقرأ في كتاب يتحدث عن الأطباق الطائرة، فالعنوان كان واضحاً فقد ترك جاكسون الكتاب على المنضدة في الصالة، وذهب للحمام، فقرأ راكان العنوان «الأطباق الطائرة.. حقائق مثيرة»، وقبل أن يقرأ اسم الكاتب، كان جاكسون قد عاد

ليأخذ الكتاب، فقد نسيه لأنه كان يفضل كثيراً أن يقرأ في الحمام، بعد أن يعبئ البانيو بالماء ويرش عليه بنفسه معطرات خاصة لا يفهم راكان كثيراً في هويتها.

بعد عدة أيام كان جاكسون في غرفة نومه عندما نادى راكان الذي كان جالساً في المطبخ يقطع شرائح من الفاكهة، فقد كان جائعاً، وكان يحب الأكل كثيراً.

داخل الغرفة التي كانت تحتوي على شاشة تلفزة مسطحة موصولة بفيديو، جلس راكان على حافة كرسي بلاستيكي متأرجح، ليشاهد بناء على دعوة جاكسون فيلم يبدو أنه قديم، فقد كان بالأبيض والأسود، وظهر فيه أطباء يرتدون بزات عسكرية وهم يُشرِّحون مخلوقاً غريباً.

كان المخلوق ساكناً ومستلقياً على طاولة بيضاء وبدت على وجهه علامات الألم، لكنه لم يكن يبكي. ولم يكن لراكان أن يفهم طبيعة هذا المخلوق الذي يشبه البشر، وهل هو حي أم ميت؟. دارت أسئلة كثيرة في رأسه وانتظر أن ينتهي العرض ليسأل جاكسون.

ما تزال الصور واضحة في ذهن السائق هو يقف الآن أمام جونسون، غير منتبه إلى أين هو الآن بالضبط؟ فقد غاص عقله في تلك الليلة، وذلك المخلوق الذي كان بطول طفل في عمر الثالثة

أو الرابعـة، ولـه جلـد أملـس شـفاف وعينـان كبيرتـان وفـم صغيـر وسـاقه اليمنـى مصابـة بجـرح كبيـر.

وسأل جاكسون راكان قبل أن تكتمل المشاهد:

«هل سبق أن رأيت مخلوقاً مثل هذا من قبل؟!»

كان راكان مرعوبـاً ولـم يكـن بإمكانـه أن يقـول شـيئاً سـوى الصمـت، في حـين كـرر جاكسـون السـؤال، فاضطـر السـائق للقـول خائفـاً وهـو يرتجـف:

«ربما كان شيطان.. يقولون أن الشياطين صغيرة الحجم!!»

هنـا ابتسـم جاكسـون وقـد بـدا كمـن يعيـش لحظـات نشـوة كبيـرة، وخاطب سـائقه:

«إذا كنت خائفاً فلا تتابع المشاهدة»

تمالـك راكان نفسـه وآثـر أن يبـدو متماسـكاً وغيـر خائـف، في حـين سـمع جاكسـون يخاطبـه:

«لا أعرف كيف لسائق محترف أن يكون جباناً إلى هذا الحد»

فهم أنه يعني أن مهنة السياقة تتطلب أناس مغامرون.

«لكن جاكسـون لـم يكـن يحـب السـرعات العاليـة ولا السـير ليـلاً في طرق متعرجة أو مناطـق عاليـة جـداً».. فكّر راكان مـع نفسـه بعد

أن تماسك فعلياً خوفاً على مستقبله المهني والراتب الضخم الذي كان يتقاضاه، وركز عينيه على الشاشة ليشاهد الأطباء الثلاثة في الفيلم.

كان اثنان منهما يقومان بتشريح المخلوق العجيب، وواحد يراقب من خلف نافذة كبيرة، وظهر في الفيلم كيف شقّ الجراح بطن المخلوق بالطول وكيف فتح بطنه وأزال جزءاً من أحشائه الداخلية، كما شقّ جمجمته بالمنشار واخرج منها شيئاً يبدو أنه دماغ ذلك المخلوق.

في لقطة قربتها الكاميرا ظهرت أطراف المخلوق، حيث كان بستة أصابع في اليدين والقدمين، ومن ثم ظهرت العين التي كانت بجفن إضافي. وكنوع من الفضول حاول راكان أن يرى إن كان لهذا الشيء الغريب أعضاء تناسلية لكنه لم يرى شيئاً واضح المعالم.

أغلق جاكسون الفيديو قبل أن يكتمل الشريط، نظر إلى راكان ضاحكاً، وقال له:

«قليلون جداً لهم القدرة على تحمل الحقائق.. هذا الكائن حقيقة يا آل بوم.. لا تخف.. ماذا ستفعل ذات يوم إذا رأيت اللّه.. هل ستخاف منه؟.. عليك أن تتوقعه بأي شكل كان»

دون أن يفكر كان السائق قد رد:

«لكن اللّه جميل.. لا اعتقد أن إلهاً خلق هذا العالم الرائع يمكن أن يكون مخيفاً»..

ضحك جاكسون مجدداً وهو يخرج من الغرفة وقال:

«اللّه جميل فعلاً.. لكن حتى الأشياء الجميلة يمكن أن تكون مخيفة».

شعر راكان بجونسون يضربه على كتفه موحياً له بأن يخرج من حالة الشرود الذهني التي دخل فيها، واكتشف بعدها أنه يقف هنا في لاس فيجاس وليس في المنامة، وأن تلك الليلة قد انتهت فعلاً، لم تعد موجودة في أي مكان سوى ذاكرته، لكن حقيقة ذلك المخلوق العجيب ما زالت تشغله. فكّر أن جونسون ربما يعرف الإجابة.

●●●

(١٣)

كان جونسـون صديقـاً مقربـاً لجاكسـون وتجـري بينهمـا مناقشـات ـ2ـ أمور غيبيـة ومدهشـة، سـمع راكان بعض منها ـ2ـ جلسـات طويلـة كان يرافقهمـا فيهـا باعتبـاره يقـود السـيارة ـ2ـ حـين يسـمع للحوار الدائـر بـين الطرفـين، والـذي نـادراً مـا كان يفهـم كيـف بـدأ وإلـى أيـن وصـل؟

كانـا يتحدثـان بلغـة مفهومـة واضحـة، لكـن الغمـوض كان يكتنـف الحكايـات التـي يتناقشـان حولهـا، وكأنهمـا يتحدثـان عـن أسـرار كوكب آخـر غيـر الأرض، التـي؛ وإلـى سـنوات قريبـة كان راكان يظـن أنـه خبيـر بمـا يـدور فيهـا، لكنـه بعـد أن عمـل مـع جاكسـون اكتشـف أن ثمـة أسـرار وألغـاز وغمـوض ـ2ـ هـذا العالـم، وأن علـى رجـل مثلـه أن يكتفـي بـدور المتفـرج ـ2ـ السـيرك، وعليـه ألا يبحـث عـن الأسـباب، فمثـل هـذا الطريـق كمـا سـمع جونسـون يقـول مـرة:

«يحتاج إلـى أناس شجعان»

وكان بوم يعرف أنه ليس شجاعاً بما يكفي.

فكّـر أن جونسـون لاشـك يعـرف الإجابـة التـي لا مجـال بالشـك فيهـا، فيمـا يتعلق بعـودة جاكسـون المرتقبـة.. كمـا يدعـي النبـي لويـد.. هـذا الرجـل الغريـب والمدهـش والزائـف بنظـر راكان، تركيبـة مثيـرة لعدة أشـياء ولا يمكـن تفسـيره بغيـر ذلـك.

كلاهما جونسون ولويد مدهشان.. بنظر راكان الآن. والأمور هنا تبدو صعبة الفرز والخيارات تتعقد..

بإمكان جونسون أن يعرف الحقيقة، لأنه بنظر راكان آل بوم ذلك الرجل الساحر الذي أغوى الملايين وهم يشاهدون عروضه الغريبة التي يقدمها عبر شاشة التلفاز، أو في تجمعات عامة يكتظ فيها مئات البشر.

وتذكر أن الأقدار كانت جميلة معه عندما سمحت له أن يشاهد عروض جونسون دون أية وسائط إلكترونية أو بين زحام من الناس، فمن مرة لأخرى كان جاكسون يطلب من صديقه أن يرى آخر ابتكاراته، فيبدأ جونسون على الفور بالمشهد المألوف الذي حفظه متابعوه وعشاقه عن ظهر قلب، أن يقوم بثني معلقة دون أن يلمسها؛ ومن ثم ينتقل لخارقة جديدة من خوارقه، التي كان كثيراً منها خاصاً جداً لم يطلع عليه جونسون غير جاكسون.

كان جاكسون يسميه بالرجل المعجزة، وكونه ولد في إسرائيل من أسرة مجرية استرالية؛ فقد كان جاكسون يداعبه قائلاً:

«لا أشك أنك من أحفاد نبي الله سليمان، فسليمان كان قادراً على فعل العجائب»

لكن جونسون كان يرد بمنتهى البساطة:

«إن للمعرفة أكثر من طريق، فإذا كان سليمان قد اتخذ طريقاً معيناً فأنا لي طريقي الخاص، ليس بالضرورة أن يستنسخ العالم نفسه. يقولون أنني يهودي، ولكنني لست مهتماً بمن أكون في نظر الآخرين. يكفي أن أعلم من أكون أنا»

وعندما اتهم البعض جاكسون بأنه يعادي السامية ويلعن اليهود، كان جونسون قد دافع عن صديقه، وقال:

«إنه أبعد من أن يقول ذلك، فجاكسون متسامح ويثق في الآخرين أكثر مما ينبغي. ومن يثق في الآخرين لا يمكن أن يشتمهم أبداً. إن أعداءه كثر وهؤلاء لا شغل لهم غير دس المكائد ضده، يعلمون أن اليهود يسيطرون على سوق المال والموسيقى جزء من هذا السوق، بل كله، وهم بذلك يحلمون أن يعود مايكل فقيراً كما بدأ حياته»

لكن العلاقة التي تربط جاكسون بجونسون، كانت أعقد من مجرد هذا التصور البسيط الذي يدور بذهن آل بوم، وكان جونسون يعرف أن راكان ليس إلا إنسان ساذج، حتى لو أنه كان يصنف نفسه صديقاً لجاكسون، ويتبجح لوسائل الإعلام المتلهفة لأخبار ملك البوب؛ أنه أكثر من صحبه في حياته وأنه خزانة أسراره.

كان جونسون مستعجلاً على ما يبدو، لذا نظر إلى آل بوم، وقال له دون أن يودعه:

«سأذهب الآن وسوف أتصل بك، إذا كان ثمة أمر ضروري يتعلق بمايكل»

فهم السائق أن علاقته بجونسون لا تتعدى ذكرى مايكل، وأن الرجل لا يصنفه كصديق، ومنذ سنوات كان يشعر بهذا الشيء، وكان يحس أحياناً أن (اليهودي الماكر) يتضايق منه عندما يحاول بوم حشر نفسه في أشياء لا تعنيه، يتذكر ذات مرة أنه قال له:

«هناك نوعان من البشر.. نوع خلق لكي يصنع ويبتكر ويفكر.. ونوع لكي يشغل مساحة في الأرض لحيز من الزمن، وأنت من هذا النوع الأخير»

كانت العبارات مؤلمة، تحمَّلها بوم على مضض، ولم يخبر جاكسون، لأنه كان يعرف أنه حساس جداً وسوف يتأثر بمثل هذه الكلمات.

نظر راكان إلى الرجل الذي تجاوز الستين بقليل، وهو يغادر البهو إلى بوابة الفندق الرئيسية محاطاً بنظرات المعجبين دون أن يحفل بهم. وكان رغم تقدم سنه يبدو شاباً نشطاً، بوجه طفل.

«لكنه طفل لا يمكن التنبؤ بمزاجه»

قال راكان لنفسه وهو يمزج في دواخله بين محبة جاكسون وكراهية جونسون غير المؤكدة - فهو يجبن أن يكره رجل بقدرات خارقة - وأشياء غامضة لا يمكنه التكهن بها دفعة واحدة، وعلى رأسها تلك الليلة الغامضة التي جمعت بين جاكسون وجونسون. فقد نسي الآن أمر ذلك المخلوق العجيب وغفل للحظات أن نسخة من سيده، يمكن أن تكون الآن على وجه الأرض، في مكان ما كما يدعي لويد.

●●●

القسم الثاني

رقصة اليوساكوي

(١٤)

في غرفتها بالطابق العاشر من الفندق الفخم ذي الطراز التقليدي العمارة المطل على الخليج، وجدت جثتها عارية تماما، مرمية على الأرضية الخشبية، الدماء تجمدت حمراء مائلة للسواد، ورائحة الغرفة يفوح منها عطر قوي تلاشت معه رائحة الدم التي من المفترض أنها حاضرة بقوة هنا.

لسنا متأكدين من مصدر تلك الرائحة، فالوقت لا يسمح الآن لسوى حمل الجثة، والانطلاق بها إلى المستشفى التخصصي الذي ليس يبعد كثيرا، حيث سيجري تشريح القتيلة ومحاولة إيجاد تفسيرات مقبولة لما جرى.

نحن أمام لغز جريمة حيكت بغموض كبير.. فالباب مغلق وهذا يعني أنه لا أحد اقتحم المكان.. كما أن مفتاح الباب كان موجودا بالداخل وليس بالخارج، وهذا يجعل من الصعب تفسير كيف خرج المجرم الذي فعلها، إن كان يملك نسخة من المفتاح، هذا إذا افترضنا ذلك.. من الممكن أن يكون المجرم قد هرب بالنافذة.

توجد نوافذ في الغرفة بالتحديد نافذتين لكنهما على ارتفاع شاهق من الأرض، ولا يمكننا أن نتصور كيف يمكن الهروب عبرهما إلى الخارج، فهذه مخاطرة كبيرة..

أما نافذة الحمام المرافق للغرفة فلا تسمح بتمرير أرنب صغير دعك عن إنسان، فهي بالأحرى عبارة عن مجموعة دوائر محفورة في الحائط لا يزيد قطر الواحدة عن عشر سنتيمترات، أغلقت بإحكام من الخارج بزجاج قوي لا يسمح برؤية أي شيء في الخارج.

في البداية سنتصور أن السيدة القتيلة التي بدا جسمها سليماً من الوهلة الأولى، أقدمت على الانتحار.. لأي سبب كان.. توجد أسباب كثيرة تدفع بعض الناس لاتخاذ قرار من هذا النوع، لكن بالنسبة لها، فليس ثمة سبب واضح.. كما أن أي تصور لانتحارها لن يكون منطقيا.. خاصة إذا ما علمنا أن ظهرها كان مخططا بالكامل على شكل رقعة شطرنج بآلة حادة ما يدل على فعل فاعل.. هذا لم يكن واضحاً منذ الوهلة الأولى فقد كانت مستلقاة على ظهرها تبدو كما لو أنها «نائمة» في لحاف من الدم على الخشب..

كان ظهرها ممزقا غير منتظم الشكل، مظهره كلوحة سيريالية لفنان خرج من طواحين الحروب الدموية القاتلة.. فنان بائس يعشق الدماء!

أي حديث عن النوم هو أكذوبة خاصة أن الدم حاضر.. هنا نتكلم عن الموت.. وعن حالة خاصة هي القتل.. ذلك السلوك البشري الغريب الذي لا يمكننا أن نفهم مغزاه بدقة.

لماذا يتمكن الشرّ من بعض الناس بهذه الدرجة؟

هل هي المصالح؟

أم سقوط الأخلاق والضمائر؟ أم الجنون؟

لسنا متأكدين.. فقط سيكون علينا تأمل محسن تاريتو وهو يذرف الدموع بلا هوادة ويبكي بنشيج مرتفع، يرتفع صدره ويهبط بقوة، قلنا إنه سيفقد وعيه بعد قليل.. لم يحدث شيئا من ذلك.. فقد حافظ الرجل على تمالكه وحضور وعيه رغم ما عاناه من وجع وحزن لا يحتمل الشك في مصداقيته، رغم علمنا أن تاريتو كان ممثلاً فاشلاً ذات يوم.

تاريتو مثل كثيرين من الأصدقاء والأهل ورفاق المهنة، يعلم أنها لن تنتحر وأن المغنية إيلين أبوبكر قُتلت لسبب ما غامض يصعب تفسيره بسهولة.. خاصة أنه لا يوجد من يُشار إليه بشكل واضح بوصفه عدوا أو يحمل لها كرها يمكن أن يتحول إلى هذا الفعل البشع.. كذلك لم تكن لها علاقات مريبة ولا صراعات يمكن أن تقود إلى ذلك وفقا لتقديرات تاريتو الذي كان مستمراً

في البكاء أمام المشرحة وهو يسترجع تلك الأيام التي التقيا فيها لأول مرة.. فمنذ أربع سنوات يدير أعمالها الفنية.. وهو يستحق أكثر من لقب مدير فني، إنه رفيق درب لمدة لم تطل، لكنه موثوق به.. محترم في نظرها، إنه أكثر من صديق.. إنه زوجها وأكثر إنسان يمكن أن تثق به، في السنوات الماضية.. نعم فقد تزوجا منذ عدة أشهر سراً، لا أحد يعلم ذلك حتى الصحفيون المتلصصون المنتفعون لم يسمعوا بذلك.

موتها كان خبراً مزعجاً ومحزناً للملايين.. لأنها معروفة جيداً.. فمن لم يسمع بالمطربة ذائعة الصيت التي ما أن تظهر على شاشة التلفزيون إلا وتحملق العيون فيها.. الجميع صغاراً وكباراً يعرفونها.. يذكرونها بجسدها الممشوق الطويل، برشاقتها التي تحلم كل امرأة بمثلها، بغنجها وهي تتكلم، بأزيائها الأسطورية التي تقلدها النساء في خياطتها، بتسريحات شعرها المتغيرة مع كل ظهور جديد، وألوان عدسات عينيها المشاغبتين مع كل ليلة تحييها في إحدى الفنادق أو المراقص الليلية في العواصم العربية أو في حفلات خاصة لعلية القوم الذين يحلمون بأن يدفعوا الكثير جداً لأجل ليلة واحدة يقضونها مع هذه الأميرة القادمة من جبال الأرز.

فوق كل ذلك.. كان صوتها عندما تغني جميلاً، ليست بلبلاً ولا كناراً.. هي عصفور له صوته المميز.. له طلاقته وعفويته

وشروده في الغناء والانسجام مع كل كلمة تغنيها بعفوية تامة.. إذا كانت تمثل فهي تجيد التمثيل ببراعة، لكن تاريتو يعلم أنها ممثلة فاشلة مثله.. لا يمكن القول إنها تمثل أبداً.. هي فقط بتقديره امرأة تتصرف كطفلة وتعيش لحظتها بصدق تام.. إذا جاز التشبيه هي أقرب لشخصية نجمة البوب الكندية سيلين ديون في انفعالاتها الحميمة وهي تغني أو تكلم الجمهور وترحب بهم قبل أن تشرع في حفلها.. كثيرا ما كان يقارن بينها وديون ويرى أن ثمة أمور كثيرة تتشابه عندهما.. سواه لم يكن ثمة من أشار لهذا التشابه أبداً.

كان لقاء عابرا، مجرد صدفة حملها القدر ليكون حظا يستمر معهما في علاقة مفعمة بالمودة استمرت لتلك السنوات الأربع ومن ثم كان ما كان.. كانت الفجيعة والنهاية المريرة.. كان تاريتو يحدث نفسه «كلنا سنموت.. لكن هذا غضب إلهي».. يفكر بهذا الشكل وهو ينتظر إفادة من الأطباء المتجمعين بالداخل.. لقد تأخروا كثيرا في الرد.. ثم يقول مستطرداً مساءلاً الرب: «لماذا اخترت لها هذا العذاب.. خياراتك وحدك أنت الذي تعرفها؟!». يستمر في مناجاة الرب ومحاولة العثور على إجابة منه.. دون جدوى.

فتاريتو لا يصدق.. لا يمكن البتة أن يصدق ما حدث.. ليس بمقدوره أن يرى جسدها غير قادر على الحركة ولا التموج.. أو

أنه لن يعد قادرا على سماع صوتها ذي البحة الصغيرة مجددا، ساعة تناديه في منتصف الليالي بشقتها بالقاهرة.. وهي تكلمه من داخل الحمام.. «تعال يا حبيبي».. ثم تطلب منه أن يناولها شيئاً ما.. أنواع من الافتعالات التي تسرق بها ثواني الليل ودقائقه إلى أن تمضي ساعة فساعة، تتلذذ بأن يخدمها ليس كعبد مطيع، بل كرجل مناكف.. تحب فيه شقاوته كإسكندراني مجنون.. مشغول بلهجة ريفية صعيدية في طريقة كلامه.. تحب سمرته العجيبة.. وحلاوة لسانه ساعة يتغزل بجسدها الطري تحت ماء الدش.. وهو يراقبها من بعيد من خلال الزجاج المغلف لصندوق الحمام وهي بداخله.. تحذره من الاقتراب منها أن يمسها.. أن ينام معها هذه الليلة.

لكنه يفعلها.. يعيش إشباعا يتلذذ به ويتمنى وهو في غاية النشوة مع حالة النعاس التي وصلها جراء اختلاط الأشياء خاصة مع الخمر القوية التي فعلت ما فعلت.. أن يكون طائراً محلقاً في حديقة قائمة فوق جبل ما في هذه الأرض.

يراقب من موقع بعيد.. غير محدد.. إيلين وهي تستحم أيضا.. ولكن هذه المرة في بحيرة صغيرة من الماء عند الحديقة الجبلية حيث يوجد أناس.. الكل منهم مشغول بأمر من أمور الحياة فقط تاريتو مشغول بملاكه العائم لا يشاركه أحد في متعته.

ما أن تشرق شمس صباح جديد حتى تكون قد هبت، ليست هي.. كائن آخر.. غير ساحرة الليل، فالعمل عندها لا مجاملة فيه.. تاريتو يعلم ذلك جيداً ويدرك أن لسانه بحلاوته لن يكون قادراً على أن يقنعها بأكثر من المعقول.. ومعقول هذا الصباح أن يقوم بالواجب دون نقصان.. أن يسارع لتأكيد حجوزات الطيران.. مواعيد الحفلات المقبلة.. هواتف الفنادق التي ستصبح بيتاً لهم ليوم أو يومين.. يجب أن يفعل كل شيء وبدقة.. هذه السيدة ذاكرتها عجيبة.. لا تحمل مفكرة ولا «آي باد» كما اقترح لها مرة ورفضت.. فقط تحمل عقلها الذي يستوعب كل شيء دون أن تنسى مطلقاً، حتى أمور دقيقة جداً يظن تاريتو أنها غير ذات أهمية.

في البداية كان يشعر بالانزعاج لأوامرها المتكررة وملاحظاتها المستمرة.. ومع الوقت تعود، أصبح ذلك جزءا من روتين حياته اليومية.. الحياة مع إيلين بكل ما فيها من سعادة تعادل العذابات.. ليتعلم مع الزمن أن الشهرة ليست شيئاً مجانياً.. وليفهم لماذا إيلين محبوبة للكثيرين كمغنية ذات صيت ذائع في البلدان العربية ولدى المهاجرين العرب في أوروبا واستراليا وأمريكا الجنوبية وروسيا، حتى في الصين وسنغافورة.. فلا مكان تقريبا إلا وغنت فيه طوال سنوات عمرها الفني التي مضت سراعاً، وها هي تنتهي، فأين هي الآن؟

أين ذهبت روحها وطيبتها وتمردها النبيل على الوجود ككل؟

لم يكن تاريتو ليملك إجابة سوى التزام الصمت أمام الفاجعة، وإذا كان تقريبا يعرف كل شيء عنها.. فكيف حدث ما حدث؟ كان شديد الألم.. متوجع جداً.. حزين.. ليس باستطاعته أن يفسر أين موقعه من الوجود في هذه اللحظات، هل هو موجود في هذا العالم وجزءاً منه.. ليس متأكداً أبداً..

●●●

(١٥)

وأنا في سن الرابعة عشر من عمري، وصلت إلى المدينة القائمة عند ملتقى النهرين. ليست هي العاصمة كما قد يتبادر لأذهانكم. هي في الشمال على بعد ٣٦٠ كيلومترا، اسمها أتبرة. أو عطبرة. جئت مع الدكتور أبوبكر بالقطار لكي أعمل في مصنع لصناعة البدل، بالتحديد تخصصت في الزراير، أقوم بخياطتها في البدلة بطريقة محترفة وبدقة تامة تشبه دقتي في الغناء وغرامي معه.

ليس بإمكاني أن أفهم بالضبط السبب الذي جاء بي إلى أتبرة، سوى أن أبوبكر عرض علي الأمر فوافقت. لم أفكر كثيراً. فالرجل كان مصدر ثقة لواحدة مثلي، خاصة أنه شجعني على إحياء حفلات الطرب في بعض البيوت الكبيرة في المدينة التي يسمونها بالعاصمة الوطنية والتي يعود تاريخها إلى الإمام المهدي الذي حل فيها بجيوشه وهو يحقق انتصاراته على الأتراك ويقضي على اللواء تشارلز غردون ويقطع رأسه في القصر بالخرطوم.

الإنجليز لم يسكتوا أخذوا بثأرهم وجاؤوا بجيش جرار احتل البلاد، وهاهم الآن في أتبرة يطاردون المتظاهرين. يوم وصلنا كانت مظاهرة كبيرة قد خرجت من ورش سكة الحديد باتجاه السوق الكبير. أخذوا العشرات وزجوا بهم في سجون المستعمر.

كان الدخـان يرتفـع ﯾﮯ سـماء المدينـة، ﯾﮯ الواقـع همـا دخانـان، مـا يخـرج مـن القاطـرات البخاريـة ﯾﮯ المحطـة الرابضـة ليـس بعيـداً عـن النهـر، ومـا أنفقـه العسـاكر مـن بمبـان يجعـل العيـون تصـاب بجنـون مؤقـت. أعـرف تلـك المشـاهد وأحفظهـا جيـداً فخـلال الأعـوام الماضيـة قبـض علـيّ أكثـر مـن مـرة ﯾﮯ الخرطـوم وأنـا أشـارك ﯾﮯ المظاهـرات ضـد الإنجليـز، حتـى صـار اسـمي مدونـاً ﯾﮯ سـجلات الشـرطة، لا أحـد مـن الضبـاط يجهلنـي.

ظننـت وأنـا ﯾﮯ طريقـي لعطبـرة أو أتبـرة أننـي لـن أدخـل ﯾﮯ معتـركات جديـدة ضـد الخواجـات، غيـر أن اسـتقبالي بهـذه المظاهـرة يعنـي لـي أمـراً واضحـاً يجـب أن أؤمـن بـه، أن مقبـل الأيـام سـوف يشـهد شـيئاً مـا. لابـد أننـي سـوف أتعـود علـى دخـول السـجن هنـا أيضـاً. كان أبوبكـر يعـرف ذلـك لهـذا قـال لـي:

«شـويـﮯ يـا عاليـة.. مـا تدخلـي نفسـك ﯾﮯ مشـاكل.. أنـت عـاوزه تعيشـي ولا لا؟»

«طبعا عـاوز أعيش يا دكتور.. دا كلامك.. ﯾﮯ زول بحب الموت»

أجبتـه وأنـا أتأمـل الدخـان يرتفـع عاليـا وروحـي تـكاد تخنقنـي وأنـا اسـتعيد ﯾﮯ ذاكرتـي صـوراً لأخـر مظاهـرة شـاركت فيهـا وقتـل فيهـا شـابان تم إخفـاء أمرهـا، وسـجلت القضيـة علـى أنهـا مشـاجرة لا علاقـة لهـا البتـة بالاحتجـاج ضـد الخواجـات.

أنـا رأيـت كل شـيء، ولهـذا فـإن الصـورة لـم تغـادر ذهنـي، تعـود قويـة الآن لتجعلنـي أشـعر بكـمّ مـن الحـزن الدفـاق الـذي يعـوق الإنسـان مـن الإحسـاس بالمشـاعر الجميلـة التـي يمكـن أن تنتابـه وهـو يدخـل مكانـاً جديـداً يتعـرف عليـه لأول مـرة.

كان ينتظـر منـي أن أتكلـم عـن موهبتـي في الغنـاء، وعـن رغبتـي في أن أطـور قدراتـي. وأن مـا جـاء بـي هنـا ليـس سـوى ذلـك الهـدف، بالأحـرى أن أغنـي وأعمـل. فقـد كان الحصـول علـى عمـل لـي في العاصمـة صعبـاً بعـض الشـيء، خاصـة أن سـمعتي سـاءت مـن قبـل مـن يسـمون أنفسـهم بالرجـال الوطنيـين مـن أصحـاب المصانـع. وأنـا خبرتـي الأساسـية في هـذا المجـال المتعلـق بالخياطـة والتفصيـل والزرايـر، فمنـذ صغـري زاوجـت بـين حـب الغنـاء وترديـده والتطريـز بالإبـر وخياطـة الطواقـي أحيانـاً. في العاصمـة وبعـض الحصـار الـذي فرضـه علـي العسـاكر لا أحـد يرغـب في تعيينـي. إلـى أن عـرض علـيّ دكتـور أبوبكـر أن أسـافر معـه لأتبـرة، وقلـت لـه:

«أخـاف يجونـي هنـاك في أتبـرة برضـو.. النـاس ديـل مـا مضمونـين..»

ابتسـم وهـو يعـدل كارفتيتـه البهيـة التـي تزيـد طلتـه وسـامة بطولـه الفـارع، رد علـي وهـو ينظـر نحـوي بحيـاء:

«أنت بنت صغيرة وأنا رجل لي خبرة في الحياة أعرف ما أقول وما أعني.. لما قلت أدبر ليك شغل هناك.. هذا كلام أخير ونهائي»

صغيرة نعم.. لكنني إذا تعلق الأمر بالشروط الأخرى لخبرة الحياة فأنا بنظر نفسي كبيرة، أنا بالغة منذ عامين وأكثر.. منذ تلك الليلة التي عدت من حفل بأحد أعراس المدينة ونمت متعبة فرأيت في النوم ما رأيت وفي الصباح اكتشفت أنني دخلت عالم الكبار. لكن أن أنام مع رجل أو أفعل فاحشة لم يحدث ذلك. فأنا إلى اليوم ملتزمة.

هذا طبعا يخالف الصورة التي يتناقلها البعض عني خاصة أنهم يقيمون علاقة ذهنية متوهمة بين صورة الفنان والمغني إذا كانت فتاة وتلك الأمور غير المحترمة. ولو كنت أرغب في هذا الشيء، أو في المال، لما تكبدت مشاق السفر وتركت أهلي في البلد غربي البلاد، ومن ثم جئت إلى أتبرة، الطريق إلى الرزق القبيح هذا ممكن وسهل ولكن ليس طريقي.

●●●

(١٦)

تتذكر السنوات الأخيرة من الحرب الأهلية في بلدها، كما لو أن كل حدث يجري الآن أمام عينيها وهي تواجه الموت.. تقف أمامه بشجاعة، وتتحداه، وهي متأكدة تماما مما سيحصل بعد قليل.. سوف ترفرف روحها إلى أعلى لتصعد إلى السماء.. إلى مكان مجهول.. سوف تكتشفه بعد قليل.. وبعينين شبه مغمضتين تقومان بآخر المهام في الحياة الدنيا، تختلط عليها وقائع ما يحدث الآن مع تلك الذكريات الصاعدة من بئر الطفولة البعيدة، أصوات الأبواق الليلية التي تنذر الجميع بالهروب إلى الملاجئ.. صفارات تسمعها الآن تتجدد في أذنيها وكأن الزمن لم يتقدم، أو لكأن الحياة إلى نهايتها مجرد طيف عابر لحلم في طفولة كل إنسان، ومع الموت يكون عليه أن يرتد إلى ذلك العالم الأثير، إلى تلك الروح المفعمة بالأشواق اتجاه المستقبل.. إلى الرغبات الدفينة باتجاه الغد وآماله والأحلام التي تحملها الذات من أجل أن يصبح لها ذكر أو صدى في هذا الوجود..

اتنتهي الرحلة بهذه البساطة؟.. أيزوى المجد؟! وتغلق أبواب السماء.. عفواً تفتح من حيث كونها ستغلق.. تحاول أن تبتسم لمرحلة جديدة قادمة من حياة أخرى لا تعرف كنهها أو أين ستفضي بها؟!

تسمع صوتها يخرج عالياً.. تصرخ وتتأوه لكن قبضة كفّي الرجل الذي يقف أمامها تدوسان بقوة وتطبقان على فمها.. تكون قد أحكمت الإغلاق.. ومارست ألوان أخرى من البطش والترويع.. وقبل أن يفرغ الغريب من مهمته.. تكون روحها قد صعدت إلى علٍ.. في حين بدأ الدم الفائر يتدفق على الأرضية.. وتلاشى أي أثر لذلك الشيطان في الغرفة.. لا وجود له ولا آثار لقدميه ولا لحذائه المطاطي ذي الأرضية الصلبة.. ولا ساعته ذات الإطار المذهب.. ولا نظارته ذات العدسات السوداء الداكنة.. ولا قميصه الوردي الذي يظهر مغسولا للتو.. فقد كان مبتلا.. يبدو كبطل مستل من رواية غامضة من القصص البوليسية التي تتعثر قراءتها في الليالي.. أو كأنه دراكولا أو فرانكشتاين ينهض فجأة من العدم ليملأ المكان رهبة وقسوة ويبطش ثم ينزوي دون أي دليل.

في طفولتها شاهدت الكثير من الوقائع الواقعية لسيرة الموت في بلدتها وهو ينهك ضحاياه ويلاعبهم حتى يقضي عليهم في آخر اللعبة.. شاهدت أطفالا في مثل سنها يموتون ونساء ينتحبن ثم يمتن أيضا وشبان يقفون في مهمة الحراسة المشددة للأهالي لكنهم يسقطون بلا مقدمات.. كانت لديها خبرات كافية مع تلك اللحظات العدمية التي تأتي فجأة لتكتب مصائر البشر وتوقِّع على النهايات سعيدة كانت أم حزينة.. فجارتهم في الضاحية أم

فارس قالت إنها لن تحزن أبدا على ولدها فقد قاتل بضراوة لكنه مات.. مات شهيداً.. تكرر قولها ثم تشهق وتفقد وعيها بعد أن تفقد الصبر على الاحتمال..

لكن يبدو أن أي خبرات في هذه الحياة مهما كبرت أو تكاثرت قد تكون قاصرة أمام أمور مستقبلية قد تحدث لنا لا نملك لها التوقع الكافي.. ففي هذه النهاية غير المتوقعة لحياتها.. بدت إيلين تراقب دراكولا حقيقي كالذي يطل من أفلام الرعب.. كان ينتزع روحها انتزاعا وهو يخنقها قابضا على رقبتها بشدة وهو يرتدي قفازا ملونا لا تمتلك قدرة على التمييز لمعرفة لونه.. يبدو أحمراً لأن الدم في الأرضية تشبع به.. فالرجل ضرب على الأرض أكثر من مرة كنوع من التشفي وربما المتعة أو الغضب.

لا يمكننا أن نفهم في طبائع لم نجربها من قبل.. وليس لدينا إفادات عن أحداث كهذه جرت في دفاترنا القديمة.. علينا أن نستسلم ونراقب.. نمارس الصبر إلى الرمق الأخير.. لنرى ماذا جرى بالضبط!

ها هو دراكولا يصعد إلى أعلى وينزوي أمام عينيها تماما ليبدأ ذهنها في العمل بطريقة غير معهودة من قبل.. تنفتح أمامها نوافذ لعوالم معتمة سابقا.. ترى شريط حياتها ينساب سريعا.. لا يبطئ.. إلى أن يقف هنا.. في هذا اليوم.. هذه الظهيرة التي كانت قد بدت

فيها شرسة لتاريتو.. فقبل أن يغادر غرفة الفندق تركها تتقلب على السرير العريض وهي شبه عارية.. نائمة أو غير نائمة ليس متأكداً.. لم يكن ليتكلم معها فأمامه عمل وعليه أن ينجزه أولاً، لأنه لو تفوَّه بشيء غير الواجب فسوف تكون النتيجة غير مبشرة.. وسوف يتأخر كثيراً عن التعهدات التي يجب الوفاء بها.. فدبي مدينة عربية ذات طابع غربي.. الوقت فيها يحتفظ بطابعه العربي سيفاً يقطعك إن لم تسارع للقيام بالمطلوب وبأسرع ما يمكن.

لهذا كان قد هرع إلى الخارج مغلقاً الباب بإحكام.. نسخة من المفتاح في جيبه.. الملف الملون الذي يتضمن عقود مجموعة من الحفلات داخل حقيبة صغيرة سوداء مستطيلة.. لا شيء يشغل باله سوى إنجاز المهام.. أما باقي اليوم فسوف يخرجان سويا ليقضيان ليلة سعيدة في مدينة لا تنام.. فلديهما فرصة أربعة إلى خمسة أيام على الأقل قبل أن يحل العمل الحقيقي التدريب ليومين في موقع كل حفل.. بروفات مكثفة.. تآلف بين الفرقة الموسيقية وإيلين.. التأكد من وعود متعهدي التذاكر.. عليه أن يستفيد من الوقت لكي يهرب إلى المساء بتفرغ تام.. كان المصعد يهبط به وبجواره يقف رجل طويل القامة لم يكن ليشغله طوله ولا شكله.. فقد كان يشعر بقشعريرة تهزه هزة خفيفة مع توقف المصعد في الطابق تحت الأرضي.. الذي يقود إلى موقف سيارات

الأجرة.. كانت تلك الهزة كافية لجعله يشعر بنشوة تجعله يتلاشى عن الوجود لثوان ثم يعود.. إنها أشبه بتلك الرعشة التي يشعر بها ساعة يكون قد التصق بإيلين تماما وهو يفرك حلمتي نهديها بكسل في حين يكون باقي جسده متقوساً بعيدا عن حافة السرير.

●●●

(١٧)

لم تكن لي علاقة مسبقة بأبي بكر فقد تعرفت عليه صدفة في أحد الأعراس قبل عام تقريباً، كنت قد ذهبت مع صديقتي عائشة الفلاتية، وجلسنا هناك في غرفة كبيرة في انتظار بداية رقيص العروس، كانوا يجهزونها في غرفة مجاورة ورائحة البخور والصندل تنبعث في المكان، وكان رجال بعمائم كبيرة يدخلون ويخرجون بعضهم سكارى يظهر ذلك من أشكالهم وابتساماتهم المبالغ فيها، لكن هذا لا يعفي أن البعض الآخر كان مكدر الوجه.

ثم دخل رجل يسمونه أبو عربي وكان له طاقية حمراء في رأسه، عرفته فقد شاهدته أكثر من مرة في عرس يأتي ليمدح الرسول في الأعراس ليلاً وهو سكران، ويرتفع صوته الجميل إلى أن يعيش طوراً غريباً، ثم يسقط فاقداً الوعي. في البداية يرشونه بالماء ثم يتركونه وفي النهاية ينهض وهو يبكي كثيراً ويحلف بالله أنه لن يعود للشراب ولا يفي بوعده كالعادة.

هذا الليل.. كانت رتاين الإضاءة قد رصت بشكل جميل في السقف الخارجي للحوش، الذي كان عبارة عن قماش ثقيل يعرف بالصوان، وجاء أبو عربي ليمدح وتجمع الناس لسماعه، حتى أن بعض النسوة نسين أمر العروس في الغرفة المجاورة.

بين الحضور كان ذلك الرجل البهي الواقف، الذي كانت وسامته تغري النساء في تلك المساحات الشاردة من الزمن، أصفها كذلك فأنا شرد بالي أتأمله بزيه المخالف للجميع، فلا أحد هنا يلبس بدلة وكارفيته ولا أحد يلبس قبعة كبيرة كالتي تخصص عساكر الإنجليز في لبسها. يمكن أن يصفونه بأي صفة كانت بأنه رجل الخواجات أو صاحبهم، أو يهمسون عنه بأنه كذا وكذا.. فقد سمعت رجلين يصفانه بأنه خنيث ولا يحب مصاحبة النساء. أما أنا فرأيت فيه ما أنساني التعايش مع صوت أبو عربي في ذلك اليوم.

كنت جريئة لا تنقصني الجرأة أبداً.. وقفت بجواره، فقد أصابني حب الاستطلاع بقشعريرة في جهة مجهولة من صدري، ليجعلني أقف بجواره أكاد التصق به ثم سألته دون مقدمات:

«باشا.. ولد خواجات.. ما شاء الله عليك»

نظر نحوي، وقال لي:

«أهلا يا عالية.. كيفك يا فنانة؟»

هو إذن يعرف اسمي ويعرف أني أتيت هنا للغناء للعروس وهي ترقص بجوار عريسها وأنا أدق على الدلوكة والنساء يزغردن والرجال يقفون في الساحة يبشرون إلى أن تسقط العروس على الأرض وهي تراوغ عريسها ليصيح الجميع «قووون».. وأحياناً

إذا كان العريس ذكياً ولماحاً يمكن أن يقبض على العروس قبل أن تصل الأرض، أو تقع على الفراش المصنوع من السجاد التركي.

قال لي:

«أنا أبو بكر.. طبيب نفسي.. سعيد بمعرفتك»

ونقل بصره باتجاه أبو عربي ليركز في سماع مدح المصطفى من ذلك الرجل الذي يكاد عمره قد تجاوز الخمسين بقليل، وقد بدأت اللحظات التي سوف يدخل فيها صاحبنا في السكرة العميقة وهو يقع على الأرض ليس بهدف يحرزه على عروس مجهولة، وإنما بغيبوبة مؤقتة.

كان الجميع قد انصرفوا لتوقع تلك اللحظة التي هي أكثر مايشدُّ في مشهد المادح، عندما يقع بطريقة مفاجئة وسريعة ويحرك رجليه يهزهما سريعاً كأنه يخرج روحه إلى البارئ. انصرفوا لينسوا أمر الدكتور الوسيم الذي كان هو الآخر يرصد تلك اللحظة الغامضة.

لمحتني عائشة فأسرعت لتحذيري قائلة:

«يا عالية.. أنت في مكان عام ما تكوني عبيطة»

لكن ماذا يفعل الإنسان مع المشاعر التي تدق بقوة في القلب.. وتجعله ليس هو حتماً.. كائن آخر.. لم أعرف أن ذلك المسمى

الحب يمكن أن يمس شغاف قلبي في ذلك الليل.. لكنني لست متأكدة تماما، هل هو المعني أم لا؟! ليس وإلى الآن بإمكاني التصريح ولو لنفسي بشكل واضح أنني أحببت الدكتور أبو بكر.. الوسامة وحدها لا تكفي.. والرجل يثبت يوما بعد يوم أنه لا يفكر فيّ كما توقعته، لديه أمر ما غير مفهوم اتجاهي، فهو لا ينظر لي كأنثى ولا لجمالي المقبول نوعاً ما.. فأنا لست كالنساء الساحرات اللائي يمكن العثور عليهن في أماكن عديدة مخصصة لهذا الغرض. حتى لو أنني زعمت أنني يمكن أن أكسب رزقي من جسدي، وأن ذلك سهل.. لست جميلة نعم.. لكن لي أيضا ما يجذب الرجال، أنا أعرف كيف أغوي رجلاً لو أردت ذلك.. وصوتي الساحر الجميل أيضا ينتصر على الشر الذي يمكن أن يسكن قلب أي شرير وما أكثرهم هذه الأيام.

●●●

(١٨)

إنها ظهيرة السابع عشر من أيلول، سبتمبر.. يبدو أن لعنة هذا الشهر وهذا اليوم بالتحديد لا تكاد تنتهي.. فقبل إحدى عشر سنة، فقدت إيلين والدها أبو بكر السرجاني في ذلك البرج الطويل الذي كان الأمريكيون يباهون به العالم على أنهما الأعلى.. أي أحد البرجين.. كانا مثل ذلك الصرح الذي بناه هامان لفرعون كي يصعد به إلى السماء ويقابل الرب..

فقدته في الحادي عشر من أيلول ساعة اخترقت طائرتان البرجين ليسقط آلاف الضحايا، لكنها لم تعرف أنه في عداد الموتى إلا في السابع عشر من الشهر.. فقد اتصل بها ضابط أمريكي في الاستخبارات ليخبرها أن والدها قد مات.. كانت تقضي تلك الليلة مع مجموعة من الأصدقاء والصديقات القدامى من رفاق الضاحية البعيدة هناك في بيروت، والذين وصلوا إلى دبي لتمضية عدة أيام في إطار برنامج تعد له قناة فضائية حديثة النشأة باسم «صحبة قديمة».. فقبل شهر تقريبا اتصل بها معد البرنامج ليخبرها أن العرض مغر جداً.. اتصل بها مباشرة ففي تلك الفترة المبكرة من عمرها الفني لم تكن قد أصبحت مشهورة بما يكفي ولم يكن لها الدخل الكبير الذي يجعلها تخصص مدير أعمال لها.

استغرقها البكاء والحزن على والدها، الذي كان ينقطع عنها لأيام طويلة وشهور قبل أن يعود ليتصل عليها أو تتصل به. لا تعرف طبيعة عمله بالضبط، ولا ماذا يفعل في رحلاته المتكررة شرقاً وغرباً.. تدرك أن له من المال ما يدبر به حياته، دون أن تقدر على تقدير حجم ثروته أو تتأكد من مصدرها وهو الأمر الذي يشعرها بالضيق من قبل أي شخص يفتح معها هذا الموضوع.

مرة في مؤتمر صحفي داخل قاعة في فندق متوسط الحال ببيروت، قبل مدة ليست طويلة.. سألها شاب يحاول أن يتميز عن زملائه بأسئلة محرجة يختلقها أحياناً، غالبا ما تدور حول أمور شخصية وليس حول الموضوع الفني.. إن كان من الممكن أن تتبرع لتخبر الحضور بمهنة والدها.

كان يقول ذلك كمن له دليل دامغ أن ثمة خطأ ما، جريمة لا تغتفر.

احمرت عيني إيلين قبل أن تضرب على الطاولة أمامها بغضب لم يكن جزءاً من هدوئها كما يعرف الجميع، لتنهي المؤتمر الصحفي، وتعلن أنها لن تكون في قاعة أخرى يدخلها هذا المعتوه.

كان الصحفي قد فاز بخبطة صحفية، وكتب في اليوم التالي تقريراً لصحيفة قاهرية، ذهب فيه إلى أن المغنية اللبنانية التي

تنتمي لمصر من جهة الأم، غير متأكدة من مهنة والدها، وتساءل لماذا يغضبها ذلك إن لم تكن هناك نقطة سوداء تحاول أن لا يراها أحد.

ودون أن يصرح مباشرة، خمن أن ذلك العمل السري قد يكون مرتبطا بأمور غير محبذة كتجارة غسل الأموال أو المخدرات أو دعم المافيا أو السلاح.

كان يطرح أسئلة ولم يقدم إجابات.. حتى لا يتورط بشكل ما.

قرأت إيلين التقرير على موقع الصحيفة بالإنترنت.. بعد أن علمت بالموضوع من أكثر من صحفي، كانوا قد اتصلوا بها لينقلوا لها هذه الفتنة.. هي كذلك، لأن الصراع المحتدم بينهم لا ينتهي أبداً.. يحاول كل منهم أن يفعل ما يجعله يتقرب من امرأة ليست جميلة فحسب، بل لها سحر خاص، غريب، يجعل كل رجل يقترب منها كمن يدخل مجالاً مغناطيسياً.. وهي كانت تخمن أن ذلك الصحفي المعتوه كان يرغب في مضايقتها بشتى السبل.. لكي ينعم بصحبتها.. فليست هذه المرة الأولى التي يسأل مثل هذه الأسئلة البلهاء.

قررت أن تقطع المشاركة في برنامج «صحبة قديمة» الذي لم تمض منه سوى حلقتان، وكان ذلك خسارة للقناة الحديثة ولطمة كبيرة، واجتمع معها المنتج في محاولة لإقناعها بأن تبقى.. كان يمارس دوراً وقحاً وهو يعرض المال أمام إنسان يشعر بالحزن العميق، غير قادر على التعبير عن مشاعره الداخلية المكبوتة وإحساس بالضياع في عالم لم يعد فيه من أحد سوف يهتم به.

صحيح أن الاهتمام الذي تحسه لم يكن قائما بالمعنى الواضح، لكنها أبدا لم تشعر ذات يوم أن والدها لم يكن يحبها أو لم يكن يتمنى لها النجاح في الحياة. على العكس.. كان هو أول من شجعها على السير في مشوار الغناء رغم أن والدتها وقفت ضدها بقوة. باعتبار أن هذه فضيحة، لا يمكن لابنتها أن تكون مطربة. وقد يكون للسيدة روحية، عذرها وقتذاك.. لأنها كانت تخاف على ابنتها الجميلة، وهي تؤمن بالحسد والعين وغيرها من أحابيل الشياطين والجن. كما أن خلفيتها العائلية كانت تؤثر في رؤيتها للغناء. فجدها لأمها كان صاحب أكبر لحية في الحي، وكان أول المستيقظين فجراً لصلاة الفجر في المسجد، وكثيراً ما قضى ليال في السجون، بتهم مرتبطة بدوره في توزيع منشورات سرية في موقع العمل، حيث كان يعمل مهندس صيانة في شركة مقاولات.

سافرت إيلين إلى القاهرة لتصحب والدتها وتسافران سويا إلى بيروت للعزاء، وقضت أياما من اليأس وعدم الرغبة في فعل أي شيء. خاصة أن رحيل والدها كان بالنسبة لها قد تم بشكل غير مألوف، فليس هناك نعش ليحمل أو جنازة لتدفن. فقد ذهب جسده أشلاء مع المئات الذين ذابوا مع فولاذ البرجين..

في ليال طويلة ومؤلمة أغلقت عليها إحدى غرف بيت جدها في الضاحية الجنوبية، وهي تنزف المزيد من الدمع.. وهي تسترجع

مشاهد من الذكريات التي لا تمحى، بعضها مبكر جداً لوالدها وهو يحملها على كتفه ويجري بها يسابقان روحية المكتنزة التي كانت عاجزة عن اللحاق بهما.

ومرة تتذكر اليوم الذي أخذه فيها إلى محل لبيع الآلات والأجهزة الموسيقية حيث اشترت أول آلة بيانو، وهي في الثامنة من عمرها، وكانت قد أدمنت العزف على الآلة في المدرسة تقضى ساعات من النهار بعد انقضاء الحصص في البقاء وحيدة في غرفة الموسيقى.. حتى تنسى نفسها.

كانت بيروت مسرحاً لطفولتها.. وقد تعلمت في مدرسة من طراز فريد، كانت مُكلِّفة لكن الأطفال لا يدركون قيمة المال أو كم تنفق الأسرة.. كانت ترى أن والدها قادر على فعل كل شيء لأجلها.. وكان ذلك صحيحاً بدرجة كبيرة.. لم يتردد في أن يلبي لها طلباً.

مرة رأت في مجلة صورة راقصة يابانية تزور بيروت مع فرقتها.. تقوم هذه السيدة ذات المهارة العالية بالتحكم في جسدها بشكل بديع أمام الجمهور، على إيقاع الموسيقى ومن ثم تبدأ في الرسم.. طلبت إيلين من والدها أن يذهبا لحضور العرض، وكان ذلك.

بعد يومين جاءت بفكرة أن تقضي عطلة الصيف في مدرسة لتعليم الرقص الياباني.. كان الطلب صعباً، فهناك مدارس للفنون الشرقية ومنها الرقص لكن الياباني بالتحديد يبدو مستحيلاً..

ومع الإلحاح عثر والد إيلين على معلم رقص ياباني كان يعمل بسفارة بلاده في وظيفة مكتبية، ويقضي المساء مع هوايته.. الرقص.. وكان يحلم بأن يجد من يعترف به كمعلم لهذا الفن مقابل المال طبعاً، إن أمكن ذلك. وحدث ذلك لأول مرة مع إيلين.

كان الراقص الدبلوماسي، يحضر كل مساء بسيارته الصغيرة ماركة نيسان صني، يوقفها تحت البناية ذات الطوابق الأربعة المهشمة أسفلها بفعل الحرب، قبل أن يدخل شقة السيد أبوبكر، ليبدأ درسه اليومي.. كانت روحية تعتبر ذلك نوعا من الترف الذي لا معنى له.. وأن زوجها يريد أن يخرب عقل ابنتهما.. وحاججته كثيراً بخصوص هذا الأمر، دون جدوى.. ثم وسطّت جدها الحاج حسونة من القاهرة، الذي اتصل هاتفياً بأبي بكر لكي يخبره أن هذا الذي يحدث لم يحصل في تاريخ العائلة من قبل وإنهم ساعة زوجوه ابنتهم روحية كان ذلك لأنهم رأوا فيه رجلاً حقيقياً.. ولأن الحاج حسونة لم يكن بخيلاً حتى لو قل ماله، فقد استغرق وقتا طويلا في الكلام بالهاتف. دون نتيجة. والواقع أن روحية كانت مشغولة بالمال الذي يذهب لأمور فارغة لا ترى طائل وراءها. فالأفضل أن تتعلم البنت ما يفيدها حقا، لتكون طبيبة في المستقبل أو مهندسة طيران. رغم تحفظ الجد حسونة على هذا الحلم. لأن بقاء البنت لساعات طويلة في المساء وحدها أمر لا يحله الشرع أبداً.

مضت سنوات الطفولة سريعة.. ربما هي الحياة كذلك لا تعرف السير ببطء.. كانت إيلين تركز في الدروس الموسيقية والرقص وتجريب الغناء وحدها وهي تقلد فيروز أو صباح أو أم كلثوم، تستيقظ نشطة وهي تمرن حبالها الصوتية على الدفء.. أن تشعر بأن للوجود معنى من خلال هذا الصوت الذي يخرج منها.. وكان غريباً لفتاة أن تفكر في أمور تتعلق بمعنى الحياة أو الوجود. هذه الجرثومة التي زرعها فيها الراقص الياباني، الذي كان يجيد العربية بطلاقة فقد قضى سنوات عدة في الشرق الأوسط، عمل في سفارات بلده بتونس والخرطوم وأخيراً في بيروت. كان ماهراً بحق في هوايته، التي يمزج فيها التعليم بالفلسفة.

الآن تستحضره إيلين في الذاكرة كشخص كان له قوة التأثير في الآخرين، تحديدا فيما يتعلق بها هي. كان قد غرس فيها حب الرقص والموسيقى والفنون بشكل عام، وعلمها الدقة والصرامة والالتزام. هي متأكدة من ذلك.. مهارات كثيرة انعكست في مشوارها الفني والحرفي لاحقا، ولم تكن لتنكر فضله أبدا. كانت تشير إليه في الحوارات الصحفية وفي المقابلات التلفزيونية. إليه وإلى اليابان بوصفه بلد مدهش، بخلاف الغرب الذي بدأ يفقد رونقه بنظرها.

عندما أصبحت مغنية مشهورة، وصارت تحيي حفلات في عواصم خارج العالم العربي، كانت تفكر كثيرا في طوكيو، لكن لم تكن لها صلة أو ربما جمهور هناك. هذا الحلم ظل يلح عليها. كيف ستحققه. إلى أن جاء العبقري تاريتو ليحقق لها ما ظل يراودها لسنوات طويلة. وربما كان هذا واحد من الأسباب التي جعلتها تحب هذا الشاب الأسمر كما كانت تطلق عليه.

●●●

(١٩)

اكتشفت ذلك مرة في المعتقل ساعة قال لي الخواجة الذي وضعني في الزنزانة:

«أنت يا حوه.. يو هاف أبرفكت بودي You have a perfect body.. وبرضو سُوتك فنتاستك fantstic»

كان يرمقني بنظرات غريبة.. كان سكراناً.. هؤلاء الإنجليز ما أن يدخل المساء حتى يفقدون الوعي ويبدؤون في الشراب إلى آخر الليل، أسمع أصواتهم تجيء وتذهب وهم يغرغرون العرق في الظلمة، أنا من في الظلام وهم في الحوش الخارجي أمام الزنازين يجلسون في دائرة على كراسي خشبية من الخيزران، وكأن أحدهم يغني بشكل ساخر، يمارس السخرية من أغنية وطنية شاعت في تلك الأيام لأحد الفنانين الجدد والذي تعرض هو الآخر للاعتقال ولكن لأسباب أخرى لا تمت للأغنية بصلة كما يشيعون، قيل إنه كان يدير بيتا للسموم في طرف المدينة.. والتهمة كانت ملفقة أنا أعرف ذلك. هؤلاء الخواجات أسبابهم واضحة حتى لو حاولوا الالتفات عليها. يريدون أن يشوهوا سمعة الرجل. مثلما حاولوا معي أيضاً.

نعم كما قال الخواجة لي جسد مثالي وقوي، فعظامي كأنها مصنوعة من الخرسانة وأردافي لا بأس بها، وصوتي لا يحتاج لكثير شرح، فأبو بكر ومنذ ذلك اليوم وهو يبدي اهتماماً بي لم أفهم سببه الرئيسي، وإن فهمت الأمر من قِبَلي أنني أتعلق به لسبب ما وغامض أيضا، قال لي:

«تعرفي أنا قضيت خمس سنوات أتخصص في الطب النفسي في لندن.. اكتشفت حاجة عجيبة.. إنو الإنسان ابن طبقته.. أنت صوتك جميل يا عالية.. لكن عندك مشكلة واحدة..»

«مشكلة شنو يا دكتور؟.. اللّه يستر»

دون أن انتبه ضربت على كتفه، لم يحفل بالأمر وواصل كلامه:

«صوتك فيه جلافة.. يعني الناس الذيك يحتاجوا يعيشوا شوية في بيئة تقلل الحاجة دي.. وبرضو لازم تبحثي عن الجانب الآخر فيك.. أنت امرأة انتبهي لذلك..»

كان كمن يدق وتراً حساساً، فقد عرف مواطن ضعفي وقوتي.. أنا ابنة بيئة بدوية نوعا ما.. فالمكان الذي جئت منه أو هربت منه بالأحرى، ليس فيه من تمدن حقيقي كذلك فإن الناس أشقياء نوعا ما وهم يكابدون العيش. فهمت أن علي أن أعيش بروح تلك الفتاة التي هي ابنة المدينة فالغناء لأهل المدن

يجب أن يكون شيئاً مختلفاً يراعي ذوقهم وحكاياتهم وأشواقهم. هم يعيشون على السرعة والتفكير المزاجي والحكايات المشوقة القصيرة لا يحفلون بالمرويات المطولة ويحبون الإطراء السطحي.. يجب أن أفهم ذلك وأنا أؤلف الأغاني للعرسان وأهل العروس وللسادة الذين بدأت في ارتياد بيوتهم، من المرغينية وغيرهم، إنهم بيئة مختلفة كما يشير أبوبكر، ثقافة أخرى. يجب أن أتعمق في ذلك وإلا فشلت كفنانة. فالفن ليس مجرد هواية ومشي على السليقة. لابد من الاحتراف. تعلمت منه ذلك الدرس.

المسألة الثانية التي كانت قوية ومحرجة أن يقولها رجل لامرأة، أوضح من ذلك لفتاة في سني.. ولكني تحملتها. إشارته إلى روحي الرجولية وعنادي الذي لا يشبه عناد النساء. لا أحد ينكر أن المرأة كائن عنيد وقاس إذا رغبت ذلك، لكن ذلك يأتي بطريقة ثانية لا كما عندي. وهذا ربما نتج عن سنوات طفولتي إلى سن العاشرة قبل أن أهرب من مسقط رأسي، فأهلي أناس عنيدون لا يريدون للمرأة إلا أن تشق طريقها بكل قوة. ليس هذا عيب، إنه تربية سليمة في نظري.. لكن المجتمع هنا يريد أمراً مختلفاً. يريد للأنثى أن تكون قطة وديعة وشرسة أحيانا، خاصة إذا ما كانت تريد أن تغني. كان دكتور أبو بكر يُفصِّل لي هذه الأمور بهدوء وييسر لي كثيراً من الألغاز، وأنا أتعلم.. ولكن لأي هدف لم أكن أدري!

مع الوقت كان قد صار صديقا لي.. ومعلماً.. ومصدر ثقة عميقة.. وهو يدفعني لإحياء المزيد من الحفلات في البيوت الكبيرة.. إلى أن جاء السفر إلى أتبرة بعد أن ضاق الحال بالعاصمة، فالحصار عقد الأوضاع.. حصار أولئك الرجال الوطنيين الذين يخافون على سمعتهم وعلى مالهم وهم يسمعون كلمة الإنجليز.. لا أحد وطنياً فيهم بمعنى الكلمة، حتى عندما يدفعون ويبذخ في مرات نادرة.. يكون ذلك في أعراسهم في حيشان مغلقة لا يسمح لأحد غريب بأن يدخل حتى لا يصل الخبر إلى الخواجات أو أن الإنجليز يسكتون بالرشي والأموال كذلك،على أن عالية تغني هنا.

هذا لا يعني أنني لا أغني.. نعم أغني ولكن في بيوت لا تدفع أو عند سادة بخلاء إما لشح في أنفسهم أو لأنهم يتبعون تعليمات الخواجات:

«عالية ممكن يغني بس ما يأخذ فلوس.. إذا كان غير ذلك ممنوع الغناء».

هذه العبارات المحفوظة التي سمعتها بنفسي وكثيراً ما حركت مواجعي.

●●●

(٢٠)

سافرا هي وتاريتو إلى طوكيو وأحيت ليلة غنائية ستبقى في ذهنها إلى تلك الظهيرة التي جاءها دراكولا.. كان الفضاء مسرح طوكيو تاكارازوكا بالقرب من القصر الإمبراطوري.. المئات توافدوا لحضوره.. وكأن طوكيو أصبحت عاصمة عربية.. من أين جاؤوا؟ هل هم هنا جميعاً؟

اكتشفت أن من بين الجمهور العشرات من اليابانيين الذين كانوا يعرفونها أيضا ويستمعون لصوتها الملائكي.. ووقعت عشرات الأوتوغرافات بكل رحابة في فترة الاستراحة بالحفل.. قبل أن تعود للغناء مجدداً، وما أن انتهت الليلة حيث كانت عائلات عربية قد أحاطت بها لأخذ الصور التذكارية معها، وبين هذه الجموع الهادرة.

لفت انتباهها رجل قصير يقف ليس بعيداً.. كأنه يدقق فيها أو يتفحصها بقوة.. أو كأنه يرسمها.. هو مألوف بالنسبة لها.. لكنها ليست متأكدة.. ملامحه آسيوية.. هو ياباني قطعا.

وجدت نفسها تنسى من حولها بمن فيهم تاريتو الذي كان سعيداً بإنجازه التاريخي. لتصافح الرجل الذي مد يده قبلها، ولم تمض ثوان إلا وعرفته إنه معلمها الدبلوماسي.. واحتضنته وهي تبكي.. فقد مضت قرابة العشرين سنة، منذ أن ودعته في بيروت.

كان قد أنهى مهمته بالسفارة وعليه العودة إلى اليابان. وبعدها لم تسمع له خبراً.

في اليوم التالي دعاهما هي وتاريتو إلى بار يعزف موسيقى الجاز، التي كان يدربها على الرقص بها في تلك السنوات المبكرة. كان يريد أن يسترجع ذاكرتها بشكل ما. وكانت ذكية لكي تفهم ذلك. فيما كان تاريتو يراقب. لم يتكلم ولم يتدخل في الحوار الذي مجاله ذكريات جمعت بين شخصين.

كانت إيلين تتأمل تقاطيع وجه المعلم في ذلك المساء وهي ترتشف كوكتيل الفاكهة، كجزء من طقس استعادة الذكرى. فقد كانت روحية تعد لهما كوبين قبل أن يبدأ الدرس، ورغم معارضتها كانت تفعل ذلك عن طيب خاطر.

ها هو المعلم نفسه لم يتغير كثيراً رغم مرور السنوات، كانت تكلم نفسها. وأخبرها أن السر في حيويته يرجع إلى المعنى.. سر الحياة والبحث عنه.. طالما تعلق الإنسان به استطاع أن يعيش سعيدا ولم يفقد شبابه أبداً. وقد كان يستعيد دروس الفلسفة والحكم اليابانية المأثورة التي حفظتها عن ظهر قلب مبكراً، والتي هي مؤمنة تماما بأنها كانت ذات دور في بنائها الروحي والعقلاني.

فرغا من البار فأخذهما إلى ساحة قريبة حيث كان مجموعة من اليابانيين كبار وصغار السن، رجال ونساء يؤدون رقصة اليوساكوي، والتي تذكرتها إيلين تماما، كما تذكرت معنى الكلمة باللغة اليابانية.. «من فضلك تعال وقت المساء».. كان كلما فرغ المعلم من درسه.. تودعه عند أسفل البناية قائلة «يوساكوي»..

مثل طفل ابتهج تاريتو لعرض اليوساكوي، كان شغفاً بالتعرف على ثقافات أخرى، يرى أنها يمكن أن تفيد في تطوير عمله مع إيلين.. كمدير أعمال.. عليه أن يرتقى بدوره التقليدي إلى الابتكار في الأزياء والألوان.. وكثيراً ما كان يقدم اقتراحات بهذا الخصوص لمتعهدي الحفلات في العواصم العربية، وفي القاهرة تحديداً.. لكن قلة كانت تعترف بأفكاره، حيث ينظرون إليه كرجل محظوظ وجد طريقه للعمل مع مطربة يحلم كل منهم أن يكون مديراً لأعمالها. تاريتو قد يحتقر نفسه كثيراً. لأن حياته مرة بالكثير من الفشل. لكنه يعرف قدره وأنه موهوب ساعة يركز في أمر معين.

كان المعلم الدبلوماسي ذكياً لأن يتعرف على الجانب الآخر من تاريتو.. وهي النقطة التي كان لها الأثر الكبير في توطيد العلاقة بينه وإيلين.. خاصة أنها كانت ترى أن شهادة معلم طفولتها لا يمكن أن تكون مجازية أو عابرة، لابد أن وراءها خبرة كبيرة بالحياة. كان قد قال لها هامسا «إنه رجل مثابر ولماح ويعتمد عليه، من أين حصلت عليه، لعل في الأمر توفيق إلهي».

لم يصبح تاريتو مجرد توفيق إلهي بل صار حباً حقيقياً لها، هي تعلم ذلك وكانت ترى البذرة تكبر يوما بعد يوم. والآن في هذه الساحة قريبا من القصر الإمبراطوري الفخيم، كان لها أن تمسك بيد تاريتو لأول مرة بطريقة بدت له غير المعتاد، كأنما هناك أمراً ما، شيء غريب يحدث في هذا المساء. تاريتو يعرفها جيداً في السنة الماضية وقبلها، يمكن أن تضغط عليه بقوة وتجره إلى مكان ما، لكن ملمس اليد ليس هو. هنا والآن توجد خاصية ساحرة لكأن اليد تكاد تنطق وتقول «من فضلك تعال وقت المساء».

في تلك الليلة حدث أمر غريب. لم يكن متوقع بالنسبة لإيلين أو تاريتو.. فعندما عادا إلى الفندق، كان من المفترض أن يذهب كل لغرفته. كانتا غرفتين متجاورتين. لكن كل منهما كان يشعر بأنه يريد أن يبقى مع الآخر لبعض من الوقت.

كانت إيلين تفكر في ما قاله المعلم الياباني.. في تاريتو بوصفه هبة إلهية.. هي تفهم ذلك وتفكر كثيراً لكنها لم تشعر بقوة تخترق قلبها كما في هذا المساء. وتاريتو هو الآخر رغم أنه لم يسمع شيئا من كلام المعلم. إلا أن تلك اللمسة السحرية جعلته يحلق في الفضاء، أنه سيقترب من لحظة طالما كان يراها بعيدة رغم تأكده من حدوثها ذات يوم. أن تقع في حبه بكل شقاوته وضجيجه.

دون سابق تفكير كانا قد دخلا سويا غرفة تاريتو.. وجلسا عند أريكة بجوار البالكونة. كان تاريتو يدخن أحيانا ساعة يشعر بنشوة وفرح لأي أمر ما يجعله يحس بأن الحياة جميلة. أشعل سيجارة، وهو يعلم أن إيلين تبغض الدخان. لكنه فعلها. وهي لم تهتم هذه المرة. يبدو أن الأمور في هذا الليل الياباني مختلفة، وانتاب تاريتو شعور قوي بأن نظرات إيلين إلى عينيه ليست هي المعتادة، إنها تغوص في باطن إنسان عينيه.. تسرق ما بداخله من الخواطر والأحلام والأمنيات كفتى بائس قضى حياة مرهقة بكل المعايير.. تعرف إيلين القليل عنها.

اخترقت مساحة التفكير الداخلي فيه بقوة نظراتها إذن.. وكانت تشعر أيضا بالنعاس ورغبة في كأس عرق. كان تاريتو يفهم متى تكون في رغبة لأن تشرب. فقفز إلى البار الصغير في ركن الغرفة وأحضر كأسين.

تناولت كأسها وهي ترخي برأسها على الأريكة، وجلس بجوارها كانت قد مدت ساقها اليمنى وعلقتها في الهواء لعشر ثوان تقريبا قبل أن تضعها فوق أعلى ساقيه المتلاصقين بانتظام إلى الأرض.

لم يكن أي منهما يتكلم. كأن الزمن قد توقف. كان تاريتو يسترجع أول يوم استطاع فيه أن يقترب منها في ذلك اليوم العاصف الذي يطل

في ذهنه الآن كأنه حلم عجيب. في حين كانت هي تسترجع اللحظات نفسها، قبل أن ترفع ساقها الأخرى بجوار أختها. ومن ثم مالت باتجاه تاريتو في وضع لم يعيشه معها من قبل. قد تجلس بجواره تميل نحوه ولكن لم يكن الأمر بهذا الشكل.

بعد مضى دقائق كانت قد نامت مثل طفلة، صبية ناعمة موفورة الحنان والدعة، أخذها بكامل ثقله والنشوة التي يعيشها أرقدها على السرير، ونام هو على الأريكة إلى الظهر. لم يقترب منها ولم يُقبلها رغم أنه شعر برغبة في ذلك.

●●●

(٢١)

لم تمض سوى شهران في أتبرة ودخلت السجن، دون أن يتدخل السيد أو مستر سويرس ليقول شيئا، أو يعبر عن تقديره لعملي معه في المصنع. كل إشاداته القديمة في الشهرين الماضيين مضت هباء منثوراً. كذلك وعوده لي بأن أكون مديرة للقسم. ربما كان دكتور أبو بكر سبباً في كل هذه الحفاوة التي كان سويرس يشملني بها. لأن الرجلين أصدقاء يقضيان ساعات طويلة في الليل معا وفي النهار كل في عمله.

كان أبو بكر وطوال عام مضى قد أنفق وقتاً طويلاً في الخرطوم والآن هو في أتبرة. يسمي نفسه طبيباً نفسياً. وهو علم حديث العهد، لا يحفل الناس به هنا في هذا البلد. ولا يعلمون عنه الكثير طالما أن هناك شيوخ ومشائخ يقومون بالواجب وهم يتلون آيات الذكر الحكيم ليهبوا الشفاء لكل من فقد عقله، وأحياناً يستخدمون الضرب. لهذا فما يطرحه أبو بكر وما يتكلم عنه لا أحد سيأخذه بمحمل الجد. إلا سويرس الذي كان رجلاً مثقفاً كما يقول عنه الجميع وكما رأيته فعلياً لا يمر علينا إلا وهو يتأبط كتاباً ثقيل الوزن وفي الغالب باللغة الإنجليزية.

ليس عندي خلفيات عن تاريخه سوى أنه نازح من مصر، أو جاء في الواقع مع الجيوش الإنجليزية والمصرية التي غزت البلاد

وأنشأ هذا المصنع بحر ماله في أتبرة المدينة التي نشأت حديثة العهد في السودان، فقبلها كان هذا المكان مجرد قرى صغيرة متناثرة ليس فيه من شروط المدينة. الإنجليز غيروا هذه المنطقة تماما، حولوها لبيوت كثيرة متداخلة وأنشأوا الكثير من الورش لترميم وصناعة القاطرات وفي ظرف عقد من الزمان تحولت أتبرة أو عطبرة إلى جوهانسبرج السودان كما أطلق عليها البعض وهم يرون كل ناصية منها وقد عمرت بالحديد، وهذا ما جعلها تسمى أيضا عاصمة الحديد والنار. وصفة النار هذه لها تفسير آخر يتعلق بالمظاهرات التي كانت تخرج في المدينة من فترة لأخرى. فالعمال هنا لا يعرفون السكوت على الظلم إنهم يصرخون بشكل جماعي ما يمنحهم الوحدة والشدة ضد بطش الإنجليز. هؤلاء العمال القادمون من شتى بقاع الوطن من الجنوب والشمال، الغرب والشرق، بسحنات مختلفة ووجوه متباينة، لكن هنا لهم هوية واحدة هي العمل لساعات طويلة وبأجور زهيدة، والعيش في تلك البيوت الضيقة والمتلاصقة. والتذمر بصوت عال.

كان أناس أمثال سويرس استثناء عن كل شيء في المدينة، لأن المال له دوره في تغيير حياة الناس وتقسيمهم لطبقات.. هذه الكلمة التي عرفتها هنا تردد بكثرة، وكما كان أبوبكر يوضح لي وهو يأخذني إلى المصنع:

«هـذا الرجـل يقـدر مـن يعمـل.. والـذي يقـدر العمـل لا أحـد ينتصـر عليـه إلا أن يعمـل أكثـر منـه»

قلت لأبي بكر وأنا أمزح معه:

«يعنـي دايرنـي أعمل ليل ونهار ولا شنو.. أنا لو عملت بالنهار، الليـل مـا بفـرط فيـه.. أنـت عـارف أنـو دا مخصص للغنـاء وبـس..»

«أنـا عـارف يـا عاليـة.. دا مـا الموضـوع.. الفكرة أنـو لازم تجتهدي وتثبتـي نفسـك.. لأنـك لـو كسـبت الرجـل دا حتكسـبي حاجـات ثانيـة كثيـرة.. وبرضـو حتسـتفيدي في موضـوع الغنـاء الأنتـي مسـتقبلك فيـه أصلاً..»

●●●

القسم الثالث

الحوت

(٢٢)

هذه تجربة شخصية إلى حد بعيد، قد تتقاطع مع تجارب عامة لبعض الناس.. لكنها تظل شخصية.. أؤكد ذلك.. ليقيني أن التجارب لا يمكن استنساخها أبدا.. فكل إنسان حالة فريدة لحالها.. هو كذلك في كل مسارات حياته، حتى لو.. «تقاطعت بعض المقاطع مع الأغنية مع الملحمة الكبيرة».

لماذا أغنيات وملاحم؟ ربما لأن ذاكرتي في هذا اليوم بالتحديد قد تسربت إلى ذلك المساء الذي نقل فيه إليّ خبر وفاة ذلك الفنان الشاب الذي شغل الناس كثيراً في بلدي.. فقد كان رحيله فاجعة للأجيال الجديدة الصاعدة أولئك الذين ولدوا في ربع القرن الأخير من القرن العشرين.

كان أن تحول استقبال جثمانه في المطار.. حيث جاءت وفاته بالخارج.. إلى تظاهرة رافضة لكل شيء.. صحبها تخريب وهرج ومرج.. وفوضى ليس من وراءها سر ظاهر سوى الرغبة في الانفلات عن موقع الذات في الراهن.. في حاضرها الملبد بالغيوم.

كتبت في مفكرتي الصغيرة أمامي على الطاولة وأنا أجلس عند البلكونة في الفندق الذي جئناه قبل ثلاثة أيام أنا وزوجتي وولدي:

«ليس مهما أن ندرك جيداً معنى الأشياء إلا ساعة يمر عليها بعض من الوقت.. ربما يكون هذا ضرورياً بل واجباً لكي ندقق فهمنا للأمور».

وجلست أمام التلفاز لعدة دقائق أشاهد مشهد الجموع الذين تزاحموا عند النعش في طريقه من المطار إلى المقبرة.. كانت القناة المحلية التي تأتي عبر الستلايت تنقل الخبر بالصورة والصوت ولكن على استحياء.. كأنها تصدر من حالة خوف ألا تبث أو تبث.

في آخر الليل جاءتني مكالمة من صديق قديم لم أسمع صوته منذ عشر سنوات أو أكثر بقليل..

«آلو.. يا أخي.. ما كنت أظن أنني سأعثر على رقمك هاتفك»

«....»

«والله صدفة غريبة أن نتكلم، بعد كل هذه السنين»

«..»

«ما شاء الله تلفونك عليه خط دولي.. لأني علمت أنك مسافر خارج مكان إقامتك»

ثرثر صديقي كعادته في أمور كثيرة.. وروى لي بشيء من التفصيل الموجز مسار حياته في عقدين من الزمن تقريبا.. وهو يكرر كلمة «يا أخي» التي لم تكن في قاموسه من قبل.

« ..أنا كلمتك ولابد أن تكون معانا سوف ننتظرك»..

المطلوب مني أن أحضر مؤتمرا في الخرطوم، خلال شهرين.. موضوعه ما جرى في هذه الليلة.. رحيل المطرب الشاب.. هم لم يختاروا عنواناً محدداً إلى اللحظة.. فقط يركزون على التفكير بصوت واضح عن هوية هذا الفنان دوره في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. هل هو جزء من واقع متأزم، أم هو أزمة بحد ذاته؟

وإلى أحد يمكن أن تكون بعض الأشياء في حياتنا حقيقية وذات معنى.. وإلى أي حد يمكن أن نكون أسرى الأوهام والغفلة التي تكسونا جراء بؤس الواقع الذي نعيشه؟!

كانت أسئلة كثيرة مطروحة فضاءاتها الفن والموسيقى والدين والسياسة والإنسان والحياة وألغاز عميقة وأزلية كالروح والموت والخلود والدينونة.

(٢٣)

استمر باقي الليل إلى ساعات الفجر، وأنا لا أفعل شيئاً له قيمة تذكر.. سوى أنني دخلت في حالة من السكون اللحظي.. أظن أنني مت.. ليس بإمكاني أن أفهم هل يمكن أن يجرب الإنسان الموت أحيانا ثم يعود إلى الحياة؟!

أخال أنني طرت محلقاً بروحي في أمكنة بعيدة.. فوق شواطئ لبحار لم أرها من قبل أو فوق أنهار من عسل كالتي في جنة الخلد.. وأظنني رأيت عوالم لكائنات غريبة عني لم أر مثلها من قبل أيضا.. أشكالها على العموم ليست مخيفة بل تشعر الذات بالطمأنينة والارتياح والصفاء.. وقد كنت في أشد الاحتياج لهذا الصفاء الذي يغمر الروح فيطوف بها في سراديب مفتوحة الأعالي باتجاه سماء زرقاء، وقد كتب عليها باللون الأبيض عبارات لا أتذكرها بدقة كأنها أشعار من عصر قديم، بلغات غير مفهومة لي بعد استيقاظي أو عودتي للحياة.. غير أنها كانت مدركة تماما قبل أن أخرج من حالتي هذه.

هذه الحالة من الاستغراق اللحظي تعرف مجازيا باسم «العودة من الغد» وهو عنوان كتاب ألفه طبيب أمريكي يدعى جورج ريتشي، حكى فيه عن تجربة موته السريري الذي دام ستة دقائق في سنة ١٩٤٣ عندما كان طالباً يدرس الطب.

كنت - تقريبا - قد مررت بهذه الحالة رغم تأكيدي أن التجارب لا تتشابه ولا تستنسخ.. وما يمكن دمجه في تجربة ريتشي وتجربتي وآخرين أن هذه المساحة التي تنتقل إليها الروح هي ما يعرف بعالم البرزخ، وهي الزمان أو المكان الفاصل بين الحياة والموت.. بحيث يكون للذات الاطلاع على عوالم أخرى غير مألوفة.. ومن ثم تكون العودة إلى الحياة أشبه بكونك عشت حلماً واستيقظت منه.. وسيكون صعبا عليك إثبات أن ذلك كان واقعياً. حتى لو كانت نفسك تعلم بذلك أو هي متأكدة من الفرق الكبير بين الحلم والحقيقة.

أحيانا بل في أغلب الأحوال.. فإن كثيرا من تجاربنا لا يمكن شرحها أو نحن مطالبون بتقديم إثباتات علمية لها.. وبالتالي فإن ما حدث معي يفسر بناء على هذا المعنى.. ولا يخضع لأي أدلة علمية أو منطقية..

●●●

(٢٤)

كنت أقف أمام الحضور في القاعة المكتظة بالأساتذة الجامعيين من الأكاديميين كبار السن والشباب الجدد الذين يبحثون عن مناهج أكثر حداثة في البحث، وكان هناك موسيقيون شباب ونساء مغنيات يتحدثن عن تجاربهن الروحية مع الغناء.. وكانت هناك أيضاً أرواح تحلق في المكان لراحلين من فنانين عظماء قدموا أغانٍ خالدة طوال قرن خلى.

كنت أخبرهم عن تلك التجربة الروحية وهم بين مصدق ومذهول ومتأمل ومكذب، ومن يقول مع نفسه..

«إنه مهرطق كبير يريد أن يستغل هذه المناسبة لمجد ذاتي»

وهذا ما قيل حرفياً من قبل أحد المعلقين على ورقتي التي قدمتها في المؤتمر والتي لم أجد عنواناً مناسباً لها سوى كلمة واحدة هي «نون».

معروف أن نون هو أحد الحروف العربية وهو عنوان السورة رقم (٦٨) في القرآن الكريم.. وما كان يشغلني ليس هذا بل التعبير المجازي لمعنى نون وهو مرادفته لاسم حيوان «الحوت».. الذي كان قد ابتلع النبي يونس ذو النون بحسب الأسطورة الشهيرة من قصص الأنبياء.. أيضا نون هو ذلك الحوت العظيم الذي يوجد تحت الأرض السابعة، كما ورد في كتب التفسير الدينية.

ونون هنا في ورقتي هو كناية عن ذلك المطرب الشاب الذي أسماه جمهوره بالحوت، ولم أكن مشغولاً بدلالات الاسم كما صنعتها الظروف التاريخية إذ كان صعباً تحديد ذلك لتعدد الروايات وبعضها مختلق، وإنما انشغلت بالإطار الذهني من خلال فكرتي ومبحثي الخاص.

قلت لهم:

«... إنني ساعة مت لبضع من الزمن.. لا أذكر.. في تلك الليلة في دبي.. كانت الحياة قد انطوت في أماكن مجهولة.. أنا متأكد أنني موجود لكن في حيز ليس بإمكاني وصفه الآن.. ربما أقدر على فعل ذلك الشيء.. أي مهمة التوصيف يوم أخرج نهائياً من هذا العالم.. برغم أنه لا يوجد دليل جازم على أن العودة مستحيلة.. صحيح أن الأموات يسافرون أو يغادرون عالمنا هذا.. لكن هل هم فعلا لا يعودون إليه؟ هل تتبدل خواصهم الفيزيائية مثلاً فيدخلون في بعد آخر.. أو كون مواز، وبالتالي يكون لهم العودة بشكل آخر، لا تدركه الفيزياء التي نتحرك بها نحن في عالمنا الأرضي الحالي. يخال لي أن الموت يكسب الإنسان طاقة مطلقة تجعله أقرب إلى الإله.. إلى اللّه في خواصه.. ساعة يتحرر من المادة أو الجسدانية في التركيب ليكون حراً طليقاً يتصرف كصمد.. إنه الخروج الحقيقي عن حدود العالم المغلق والمقيد

إلـى حيـاة (الحيـوان).. يسـمي القـرآن الحيـاة الآخـرة بـ (الحيـوان) التـي يقـول مفسـرون إنهـا حيـاة الحقيقـة.. لـن استرسـل في هـذا الأمـر.. سـأكتفي بالقـول إننـا في حاجـة لكـي نجـرب لكـي نفهـم.. وأن العالـم ليـس معقـداً إلا بقـدر صبرنـا علـى الاندغـام في عالـم آخـر ينتظرنـا...»

«... اللّه طاقـة مطلقـة والميـت هـو يعيـش بمثـل هـذه الطاقـة.. هـو مكتـف لحالـه لا يريـد مـن الأحيـاء أي عـون ولا رجـاء ولا تعاطـف.. يريدهـم أن يعيشـوا في لغـز الاسـتمرار بـأن يكونـوا جاهلـين لهـذا العالـم الثانـي.. أليس اللّه يجعلنـا دائمـا نفكـر فيـه.. في ابتعـاده وفي غيبـه الغريـب.. كذلـك الموتـى يهربـون عنـا لكـي يجعلوننـا نحبهـم في الغيـب.. نتكلـم معهـم في خواطرنـا ونجالسـهم في مناماتنـا وفي أحلامنـا يقظـة أو منامـا.. كذلـك الخالـق هـو الغائـب الأكبـر.. فالموت هـو مـا وراء الحيـاة الحقـة.. هـو الصيـرورة التـي وراءهـا الإطـلاق والحريـة والإلوهيـة...»

لـم تنشـر الصحـف أي شـيء عـن تلـك الورقـة.. تمـت تغطيـة المؤتمـر بشـكل روتينـي وتلميحـات بعيـدة لا معنـى لهـا.. إشـارات علـى شـاكلة الـدور الـذي لعبـه هـذا الفنـان في إلهـام الشـباب روح الجهـاد وحثهـم علـى الذهـاب للمعـارك التـي كانـت تقودهـا الحكومـة ضـد المتمرديـن في أقاليـم الوطـن المختلفـة.

كان جلياً أن جهات ما كانت تتدخل، في ما يكتب في الصحف أو يبث في وسائل الإعلام.. عمليات اللصق والزجّ بالكثير من الأفكار والقصص المختلقة.. هذا بات أمراً طبيعياً في البلد.. لا حقائق ولا إعلام حقيقي.. وأغلب الجالسين على مهام مهنة قول الحقيقة كانوا يفكرون في شروط بقائهم إلى أطول مدى زمني في مكان لم يعد فيه أي شيء مضمون سوى الهلوسة.. فإذا تأكد المرء في الصباح من أنه هو.. هو.. فذلك نصر كبير على الذات وعلى الموت.. الذي يفرون منه.. وهم يجهلون أن الحقيقة فيه واللذة تقوم بعده.

●●●

(٢٥)

في اليوم التالي.. وقبل أن تشرق الشمس جيداً يرن هاتفي النقال.

ذلك الصديق نفسه يحدثني مجدداً:

«أين أنت يا زول.. ألم تقل أنك سوف تحضر المؤتمر؟!..»

« ...»

صمتُ لبرهة من الزمن.. كدت أحلف له أنني حضرته فعلاً، وقدمت ورقتي التي أثارت استهجان الكثيرين ممن رأوا فيها خطرفات فارغة، وهناك من قال إنه يحاول أن يوظف المقدس بطريقة غير منطقية.. ومن قال إنها الطريقة نفسها التي تعمل بها الدولة على تمجيد نفسها.. الخطاب المتدين السمج.

قيل الكثير.. والآن صديقي يشكك في حضوري.. أخشى أنني داخل تلك المساحة الغائبة، وأنني لم أخرج منها بعد.. أخشى أن أكون مازلت في الفندق في دبي.. وأن الزمن لم يتقدم كثيراً..

هل هي المكالمة الأولى نفسها لم تنته بعد؟

أم أنها مكالمة ثانية أخرى من الصديق نفسه؟!

لم أرد عليه وجاءني صوته مرة ثانية:

«تبقت أيام قليلة للمؤتمر.. أبذل ما بوسعك حتى تحصلنا وتقدم ورقتك..»

أقدم ورقتي.. أنا لم أُعدّ شيئا بعد.. هل أقول له ذلك.. هل أقول له إنني أعيش تخيلات أنني وصلت إلى هناك.. وأنني قلت كل شيء عندي أمامهم في القاعة.. وأن كل شيء قد انتهى!!

واكتشفت أن الزمن المحدد، الشهران، قد اقتربا من نهايتهما.. كان فعلاً يجب أن أذهب إلى الخرطوم، خاصة أنني استلمت منهم صورة لتذكرة السفر عبر البريد الإلكتروني وحجز بفندق كورنثيا الخرطوم الذي لا يوجد بديل أفضل منه، أعلى أبراج العاصمة، بناه القذافي وأطلق عليه برج الفاتح وبعد موته حذفوا الاسم.

ما هي هذه اللعنة التي تسكنني.. هل سيصدقني؟! أنني نسيت كل شيء. أن حياتي تمضي في هذا الاستغراق العجيب في الغد، والحياة البديلة.

أخبرته:

«إن المخاطرة بالكتابة عن أشياء نجهلها يجعلنا ندخل في عوالم لا نفهمها بدقة ما يهدد بموتنا.. هذا إذا فهمنا أن الولوج إلى حقيقة الموت تبدأ بكذبة يرتكبها المرء ضد نفسه.. فكلما كان المرء شفافاً وصادقاً لن يموت أبداً.. أو سيحيا أبداً..»

«إذن يموت الكذابون؟!»

«نعم هم يموتون لأنهم يظنون أن حقيقة العالم خارجه.. لأنهم يختلقون الأوهام الجميلة والرائعة لتفسير معنى للحياة خارجها.. إنهم بصدقهم الكثيف جدا يمارسون أكبر الأكاذيب على ذواتهم»

هل سمعني حقا؟! وهل كان يرغب في أن أكون موجوداً لأجل ما وصفني به إنني سأُكسِّبُ المؤتمر بعداً ميتافيزيقيا.. فطريقتي في التفكير ستكون مقنعة للكثير من الناس الذين يشككون في حياة هذا الفنان وصدقه.. وهم على أية حال قلة..

كنت سأرد عليه أن هذا ليس مطلوباً.. ليس مطلوباً أن نقنع الناس - كل الناس - بتصديق شيء ما أو القبول به.. علينا أن نزرع فيهم الشك الصحيح لكي يصلوا إلى الحقائق إن وجدت، بأنفسهم.. لسنا آلهة لكي ندعي أننا قادرون على رواية تاريخ الأشياء بدقة لكي نلزم الناس بالإيمان بغيب ليس لديهم دليل محسوس عليه.. وأظن أنني أخبرته أن أي محاولة لإعطاء مسحة رسالية على هذا المؤتمر سوف تجعله فاشلاً.. هذا إذا كنا بمقدورنا أن نحدد من سيحكم على الفشل والنجاح.. كانت المسألة معقدة أمامي.. واكتفيت بأن أذهب لأنام محتضنا ولدي ابن الرابعة إلى صدري.. في حين كان هواء المكيف في الغرفة يداعب وجهي بنسمات باردة جعلتني أغوص في نوم عميق.. فقد كنت متعبا وأنا لا أدري.

(٢٦)

«لم تفهم مقصدي.. الهرطقة تنتهي عند هؤلاء.. لكن الحقيقة في مكان آخر»

ظل راكان يردد العبارات التي سمعها من أوري جونسون، دون أن يفهم المعني بها؛ في حين تشوش ذهنه مجدداً، وهو يراجع دماغه.

«هل كان جونسون موجوداً في القاعة ساعة أعلن السيد لويد أن هناك نسخة من جاكسون ستعيش بعد موته.. كانت القاعة غير مشغولة تماماً، لكن على ما يبدو أن جونسون لم يكن هناك. ولو كان موجوداً لكنت قد رأيته»

فكّر السائق قليلاً وعندما لم يستطع ضبط دماغه جيداً ليصل إلى الحقيقة، قال لنفسه: «على ما يبدو أنه كان هناك وسمع ذلك.. وربما لم يكن موجوداً وكان فقط بالفندق وتلقى المعلومة عن أي شيء شخص موجود هنا».

فجأة خطرت إليه فكرة لم تكن قد وردته من قبل..

«ليس بالضرورة أنه كان موجوداً، فأوري لا يحب أن يظهر كمتطفل هذا طبعه وأنا أعرف ذلك جيداً، الاحتمال الكبير أنه أرسل أحد أعوانه لمراقبة ما يجري.. ماذا يريد أن يعلن لويد بخصوص صديقه مايكل!»

وأردف يكلم نفسه بصوت عال:

«أنا أعرف أن لجونسون أعوان كثر ومتطوعون مخلصون له.. لا أدري كيف يطيقون التعامل مع هذا الأحمق؟!»

تخلص راكان من تشوش ذهنه، بعد أن شرب كأساً من البيرة، فقد كانت رأسه خفيفة إلى حد بعيد، فسرعان ما يؤثر فيه أي مشروب كحولي، ولهذا كان جاكسون يمنعه من الشراب قبل أي رحلة يقومان بها سويا بالسيارة.

في الواقع لم يكن لديه ما يفعله، فبرنامجه شاغر تماماً منذ أن رحل سيده، عدا توقعه بأن يظهر في مقابلة صحفية أو تلفزيونية جديدة ليقبض قدراً معقولاً من المال ويبدأ في سرد حكايات من ذاكرته عن علاقته بجاكسون، يسميها الإعلاميون أسراراً عن حياة ملك البوب.

لكن السائق ومع نفسه كان مقتنعاً أنه لا يعرف أي شيء عن جاكسون، فقد كانت حياته برغم وضوحها غامضة جداً، كما أن كثيراً من الأسرار الحقيقة التي يعرفها كان لا يمتلك الجرأة لكي يقصها على الصحافة، فهو لم يكن شجاعاً لمواجهة من أي نوع، كما أنه في أحيان كثيرة كان يشعر أن من واجبه الوفاء لذكرى جاكسون، وأن الإعلاميين أناس مغلفون يمكن التلاعب بهم وابتزازهم بهدف التسلية.

فكّر وهو يقف أمام تمثال من الشمع في البهو، لستيف كروز:

«هل كل المشاهير تكون حياتهم معقدة بهذه الدرجة، غير مفهومة حتى لأقرب الناس إليهم؟!..»

كان يفكّر، دون أن يشغل باله بالإجابة.

وهو يتلمس التمثال الشمعي ترآى له كما لو أنه يحلم، غير أنه كان في الواقع يستعيد مجدداً قصة أخرى من ذاكرته ترتبط بذلك الغموض الذي غلف هذا الصباح، الذي بدأ بغموض الموت، ذلك السر الغريب الذي كان يشغل جاكسون، والذي بدأ يشغله هو الآن.

رأى أنه في مكان ما، مضاء بالشموع، كأنه غرفة واسعة مغلقة في قصر كبير، ورأى صاحب التمثال السيد كروز، يحيي جاكسون ويقول له:

«لقد انتظرت هذا اللقاء طويلاً»

هل كانا على خلاف؟ من الصعب أن يفهم أو يتذكر؟ فقبل يومين كانا قد التقيا سوياً، ربما ثلاثة أيام. المهم أنها ليست مدة طويلة ليقول كروز أنه كان ينتظر! لربما كان يعني أمراً مختلفاً.

بالفعل هذا ما فهمه راكان بعد قليل، فالحديث لم يكن متعلقاً بلقاء شخصين يعرفان بعضهما حق المعرفة، بل بلقاء من نوع آخر، يتعلق بسر ما كان على كروز أن يحدث به جاكسون.

الآن تبدو الأشياء مفهومة. لكن البقية غير مفهومة بالطبع، لأن الاثنين خرجا وتركا السائق يراقب الشموع بمفرده.

عادا بعد ساعة أو ساعتين، ربما ثلاث ساعات. لكن الشمس لم تشرق بعد.

يستطيع راكان تمييز الشمس بسهولة عندما تخرق بنورها زجاج النوافذ المغطاة بستائر عالية مطرزة بالوردي. الموت مرة أخرى. لكن الموت وقتذاك وقبل أن يموت جاكسون كان له شكل آخر. لم يكن حقيقة بتلك القوة التي يظهر بها اليوم.

كان كروز يحدث جاكسون بما يبدو تمتمات، فراكان الذي يغالب النعاس مع رائحة الفودكا التي تفوح من فمه؛ لم يكن بإمكانه تمييز ما يقولان بالضبط!

سمع كلمات متناثرة يسمعها الآن بقوة مجدداً تطن في أذنيه؛ حتماً هي ليست ذات ارتباط بصفقة متوقعة بين الطرفين، مثلاً أن يقبل جاكسون إحياء حفل في منتجع كروز الفاخر المعروف باسم «ذا كروز»، فقد كان ذلك حلماً طالما رواد كروز ، دون أن يجد أذناً صاغية من ملك البوب. وقد كان راكان يعرف السبب الذي كان يمنع مايكل من إحياء ذلك الحفل.

إنـه ذلـك الحقيـر أوري جونسـون، الـذي لا يرغـب في تمجيـد شـخص غيـره في الحيـاة؛ ورغـم ذلـك كان جاكسـون يثق فيـه إلـى حـد مبالـغ فيـه، بـل يعتبـره أبـاً روحيـاً.. كان يتحـدث عنـه بمنتهـى الحـب.. عندمـا يحـب جاكسـون لا أحـد يسـتطيع أن يمنعـه أو يوقفـه أبـداً عـن تدميـر نفسـه باسـم ذلـك الحـب.

كان راكان متأكـد تمامـاً ممـا يقـول لنفسـه، مـن عمـق فكرتـه هـذه.

في تلك الفتـرة، كان جاكسـون قـد وافـق علـى الإقامـة لبعـض مـن الزمـن في هـذا الفنـدق، الـذي اختـاره النبـي لويـد وأتباعـه للإعـلان عـن استنسـاخ جاكسـون وأنـه حـي في الكوكـب الـذي يزعمـون أن خالقـي البشـر يعيشـون فيـه.

جـاءت إقامـة مايـكل جاكسـون في الفنـدق، بعـد تلـك الليلـة ذات الشـموع الكثيـرة، ولعـدة أيـام لـم يكـن راكان يـرى سـيده، فقـد قـال لـه ببسـاطة:

«منـذ أكثـر مـن عـام وأنـت ترافقنـي.. اعتقـد أنـك متعـب، وعليـك أن ترتـاح لبعـض الوقـت.. ولكـن ليـس هنـا»

تكلم جاكسون بجدية تامة بعكس طريقته في الدعابة والمرح.

كان راكان يدرك أن الأمر لا يتعلق بتوفير المال فسيده كان كريماً إلى حد الهبل، لقد أنفق أموالاً طائلة على فقراء العالم في أفريقيا وغيرها، بعضهم لم يسمعوا به لكنه كان كريماً معهم على أية حال.

كذلك لا يتعلق الأمر برغبة جاكسون في أن يكون وحيداً، وإلا لما اختار فندق وكازينو ضاج، وحتى أحياناً كان يرغب في أن يكون لوحده لكنه لم يكن ليستغني عن راكان، فقد كان ذراعه التي لا غنى عنها في بعض الرحلات الخاصة جداً، عندما يحن إلى قضاء مساء في مكان بعيد بعيداً عن أي معالم صنعها الإنسان، في الصحراء أو عند البحر؛ أي في أماكن ما زالت بكرة في طبيعتها لم يقترب منها تدمير الحياة الحديثة للحياة الفطرية.

الأمر الذي لم يفكر فيه راكان وقتها ويظن أنه فهمه الآن، أن جاكسون كان يبحث أمراً ما مع كروز، وكان يريد لهذا الحوار أن يتم بعيداً عن أي عين لصيقة به. ولكن ما هو ذلك الأمر الذي تباحثا فيه؟!

وقد غادر راكان الكازينو في الليل لم ينتظر إلى حلول الصباح، فقد كان واضحاً أن جاكسون لم يكن يرغب في بقائه.

في طريقه إلى شقة صغيرة كان اشتراها له جاكسون في لاس فيجاس قبل عشر سنوات؛ كانت تلك الكلمات المتناثرة التي سمعها في حوار كروز وجاكسون؛ تدور في دماغه..

«أرض الأحلام.. نيفادا.. الرقم ٥١ (سمعه يتكرر باستمرار).. الاستخبارات الأمريكية.. أطباق طائرة.. روزويل..»

أيضا يظن أنه سمع شيئاً يتعلق بذلك المخلوق العجيب الذي سبق له أن شاهده في الفيلم المخيف!.

أزاح راكان راحة يده اليسرى عن تمثال الشمع، وهو يشعر بالنعاس رغم أن الصباح كان في أوله، ورغم أنه نام بما يكفي في الليلة السابقة، حتى يكون ذهنه يقظاً في الصباح، فهو يستطيع أن يفهم ما سيقوله لويد في مؤتمره الصحفي عن جاكسون..

لقد كان سعيداً جداً وهو يندس في السرير، بأن هناك من يشعر بأهميته، فقد وصلته دعوة مغلفة عبر البريد تلقاها عصراً في صندوق بريده الخاص.

كان مشغولاً أن يكون هناك، وسط زمرة من خاصة القوم، وبعض الصحافيين المعروفين، في دعوة حددت بأنها خاصة جداً، كما أشارت البطاقة التي أعاد قراءتها أكثر من مرة؛ قبل أن يضعها تحت الوسادة، وهو يحلم بأنه أصبح الآن أكثر اقتراباً من عوالم خفية بالنسبة له.. فكونه مقدر من قبل لويد بنفسه فهذا شرف كبير.

كان يسلي نفسه بفخره بها، دون أن يكون له فكرة كافية عمّن يكون هؤلاء الجماعة!، فقط يتذكر أن جاكسون كان قد تحدث عنهم أيضا في تلك الليلة الغامضة التي قضاها مع أوري جونسون؛ كان قد سمع جزءاً من طرف حديثهما وهو يدخل إليهما في الصالة ليخبر جاكسون أن هناك ضيفاً ينتظره في الخارج.

وهو يقود سيارته مغادراً موقف السيارات الخارجي بالفندق منحرفاً تجاه الطريق الرئيسي، اضطر راكان للتوقف دون سابق إنذار بمنتصف الشارع مثيراً فوضى، حيث ارتفعت أبواق السيارات وتعالت أصوات السائقين الشاتمين، فقد تذكر فجأة ما لم يخطر بباله من قبل، ليخاطب نفسه بصوت مرتفع..

«كم أنت غبي وضعيف الذاكرة يا آل بوم.. لن تتعلم أبداً أن تكون إنساناً جدير باحترام نفسه»

كانت صورة ذلك الضيف واضحة تماماً أمام عينيه، لقد تذكر أولاً القلادة التي رآها هذا الصباح، واحتار أين رآها من قبل.

إنها القلادة نفسها، التي كان يلبسها ذلك الضيف.

بل إن الضيف نفسه هو السيد لويد، الذي اجتمع مع جاكسون وجونسون حتى ساعة مبكرة من الفجر.

●●●

(٢٧)

استيقظت باكراً رغم أنني نمت متأخراً.. كانت زوجتي قد سبقتني في رؤية شعاعات الشمس وهي تضرب على الخليج أمامنا من الطابق العاشر من الفندق.. ولم يكن هذا اليوم الجديد مثيراً للاهتمام سوى أنه صباح جديد منذ أن وصلنا إلى المدينة الحالمة التي يراها البعض فردوساً أرضياً، في حين كانت بالنسبة تكتسب اهتمامها فقط من خلال حب زوجتي لها.. فهي مكان مناسب لشراء كل ما تريد وبأسعار زهيدة.

أنا لا اشتري سوى ما يهمني.. بعض التحف الكلاسكية أو بالتحديد الأنية التي تقوم على شكل تماثيل بشرية لشخصيات مميزة في التاريخ الإنساني.. أرسطو مثلا.. أفلاطون.. الفارابي.. ابن رشد.. البيروني.. نيتشه.. مايكل جاكسون.. أينشتاين.. هويات متنوعة..

لدي مجموعة كبيرة من هذه التماثيل الصغيرة الحجم احتفظ بها في أماكن متفرقة.. بيتنا القديم.. أو بيت العائلة في مسقط رأسي.. بيتنا الصغير في أرياف الخرطوم.. وشقتنا في الدوحة حيث نقيم بحكم عملي هناك في مركز تجاري خاص، يقوم بعدد من الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية المتخصصة في رصد الارتباطات ما بين السياسة والثقافة.

في ذلك الصباح شعرت برغبة كبيرة في أن أسرع في كتابة الورقة للمؤتمر، وقلت لزوجتي إيمان:

«سوف نؤجل أي برنامج اليوم.. لدي عمل مهم لابد من إنجازه»

«خرافة جديدة من خرافاتك»

«نعم.. لكنها هذه المرة متعلقة بتجربة شخصية.. بفكر الموت.. سوف أكتب لهم ورقة عن الموت والفن.. سوف أكتبها بطريقة سردية وغامضة بمثلما هي واضحة»

التفت لم أجدها، وكنت أعرف أنها مثلي قد تكون تأثرت بموت الشاب الفنان الذي شغل الناس في السنين الأخيرة، بعد أن بزغ نجمه فجأة في أدائه التمثيلي الرائع في الخرطوم وحفلاته في مدن السودان وبعض العواصم بالخارج.

كان موته سريعاً ومفاجئاً وهو لم يتعد منتصف الثلاثينات من عمره، وقيل الكثير.. إنه قتل بمعنى أن المسألة تم تدبيرها من بعض الخصوم، ففي عالم الفن يكون الصراع الأساسي جوهر الشهرة والمال والمصالح، ولابد للسيوف أن تشهر في هذه الحرب القذرة.

كان وفاة مايكل صدمة للكثيرين.. مايكل عبد الله، الذي ظهر فجأة كما يقول الغالبية بلا مقدمات. لكن هل هذا حقيقي في عالم الفن؟ هل يمكن أن تطل بلا مقدمات أبدا؟.. المهم.. إني كتبت.. أو بدأت أكتب.

●●●

(٢٨)

للموت قانونه.. قاعدته التي لم يستطع أحد من البشر أن يقترب من فك طلاسمها.. كلنا سنموت ذات يوم، وسنرحل إلى مكان آخر لسنا متأكدين أين يقع بالضبط، وقد نتلاشى في الفراغ العريض إلى الأبد فلا يعود لنا أثر.

إذا كانت الحياة سنة فالموت سنة موازية، ليس هو قدر فحسب.. هو شيء أعمق وأكثر جاذبية وحكمة من القدر.. هو السر المدهش الذي أرهق الجميع.. دون استثناء.. العلماء والفلاسفة.. والمهووسين بالخلود من الملوك والرؤساء وأحيانا من عامة الناس الذين يتبخترون في الأسواق والشوارع والميادين العامة والمطارات.

إذن الحكاية تبدأ من المطار.. دعوني لا اسميها حكاية.. بل أطلق عليها قصة واقعية لكم أن تصدقوها أو ترفضوها تماماً.. من أراد أن يصدق فله ما أراد.. ومن رفض فله من أراد أيضاً.. لا حجر على أحد.. لا تقييد للفكر.. لا تسوير للمعتقدات البشرية.. كل منا يرى ما شاء ويحب ما شاء ويمشي إلى أين شاء.

اسميها قصة واقعية رغم أن بعض فصولها قد لا تكون كذلك.. أحيانا لا نفهم ما هو الواقع وما هو الخيال؟!

أين يبدأ أحدهما وأين ينتهي الآخر؟

كيف بإمكاننا أن نفرز بينهما؟

لكن دعوني أخبركم بأمر بسيط قد يفيدكم، وإذا لم تروا حاجة لكم به، فضعوه جانبا واستمروا في سماع الحكاية.. ورقتي هذه.

من خبرتي في الحياة تعلمت أن الأحلام والواقع والخيال والذكريات، الأمس واليوم والموت، كلها تتداخل في بعض الأحيان، بل كثيراً بحيث يصعب على الإنسان، مهما بلغ من الذهن الصافي أن يفرز بينها. هناك قصص كثيرة في التاريخ الإنساني تؤكد زعمي هذا.. ولكن دعونا في الحكاية الأساسية.

قلت لكم إن المطار هو المكان الذي سوف نبدأ منه، فالمطارات هي محطات للانتقال من مكان لآخر ساعة تحملنا أجسام مصنوعة من الحديد، وتصعد بنا إلى أعلى، نكون معلقين بين الأرض والسماء، دون أن نفكر في مقاديرنا، ربما في المرة الأولى فقط التي نسافر فيها وبعدها نتعود على هذا الشيء، يصبح عادياً ككثير من العادات في حياتنا، فنحن البشر أسرى العادة، حتى لو ظللنا نبحث عن الاختلاف طوال وجودنا في هذا العالم.

المطارات هي محطات للسفر، ولا أدري ما الذي يجعلها تشبه المرض أو الضعف أو الوهن أو تلك اللحظات الغامضة التي يكون فيها على الروح أن تغادر الجسد وتسافر إلى مكان ما في هذا الكون، لتنطوي حياة إنسان؟!

لهذا فالذين يسافرون؛ قلة منهم يطيقون المطارات ويصبرون على الانتظار فيها، لأنهم يبحثون عن التحرر والوصول إلى العالم الآخر الذي يبحثون عنه، وربما هم يذهبون إليه مقهورين وغير راضين.

كذلك فإن المقبلين على الموت، يعرفون جيدا أن مطاراتهم - أي لحظات وهنهم ومرضهم - ليست جديرة بالتوقف عندها كثيراً، وعليهم أن يغادروا إلى الأرض الجديدة فوراً، لا حاجة لهم إذاً للانتظار المطول. يحدث هذا مع أغلب الناس، قلة هي التي تشذ عن القاعدة.

مهما يكن.. فالحالة التي أتكلم عنها قد تكون شخصية بحتة، لي أنا.. صاحب هذه الحكاية، التي بدأت في ذلك المساء البارد، والمقصود فصل الشتاء في بلد حار في معظم أيام السنة، لهذا فإن البرودة تعطي للطقس روح جديدة بعد أن يكون قد خلع لباس التعرق وأرتدى أثواب بديلة مغلفة بالإنطواء، تشعر الإنسان بالدفء وهو يتنسم هواء يعبر منخاريه إلى رئة صافية، تتنفس مُسبَّحة ربها. فالطقس، المناخ، يشكلنا نحن البني آدميين، يعرف كيف يضعنا في المكان المطلوب وفي الوقت المحدد، ولكي نصنع خيارات مغايرة يبدو الأمر صعب جداً. خاصة إذا ما تعلق الموضوع بالموت.. بالسر الإلهي العظيم.

●●●

(٢٩)

كان راكان إلى حد ما يفهم قدر نفسه جيداً، خاصة فيما يتعلق بتقدير الآخرين له، لكنه لم يكن ساذجاً إلى الدرجة التي كان أوري جونسون يتوقعها.

حضر جونسون في ذلك الصباح إلى الفندق لأن دعوة كانت موجهة له من لويد شخصياً لحضور المؤتمر الصحفي، وقد كان كذلك على علم مسبق بما سيتم الإعلان عنه، فهو الذي عرّف جاكسون بلويد منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وربما أكثر.

وهو كذلك الذي أقنع جاكسون بطريقة غير مباشرة.

«أن نسخة منك تبقى بعد حياتك أمر رائع.. وحتى لو لم يحدث ذلك، فلن تخسر شيئاً لأنك لن تكون موجوداً في العالم لتفهم ما يجري»

وإلى أن وافق جاكسون على الصفقة ودفع شيكاً بمبلغ عشرين مليون دولار أمريكي باسم شركة «كلون - لويد» ومقرها في لاس فيجاس، كان يبدو كأنه متشكك من الأمر، لكن ثقته بجونسون جعلته يفعل هذا الشيء.

عندما أطل جونسون داخل القاعة لمح راكان جالساً، فأثار ذلك استغرابه.

«ما الذي أتى بهذا السائق الغبي إلى هنا؟!»

ولأن خطته التي حبكها في ذهنه تقتضي بأن لا يراه راكان في علاقة مباشرة مع لويد وجماعته، فقد قرر الانسحاب من المكان دون أن يلمحه أحد، والبقاء في بهو الفندق حيث تقابلا، بعد أن أخبر نفسه:

«حتما ربما يتذكر السائق مقتطفات من أحاديثي مع جاكسون عن جماعة لويد، في فترة لم يكن فيها له قيمة كبيرة.. ولم أكن ألقي له بالاً؛ لكنه أصبح مهماً الآن.. يا للعجب!»

وقال أيضا لنفسه: «ربما يتذكر جيداً ذلك اليوم الذي عقدنا فيه الاجتماع، أنا وجاكسون ولويد، فهو الذي استقبل الضيف في تلك الليلة»

وما كان جونسون ليصافح راكان أو يلقي نظرة إليه، لو أنه لم يكن في حاجة إلى خدمته، وهو ما أثار السائق بعض الشيء، عن سبب اهتمام جونسون به، دون أن يفكر في ذلك كثيراً.. فطالما غادر الرجل دون أن يطلب أمراً محدداً فهذا يعني أن كل شيء يسير كالمعتاد.

لكن في الواقع كان جونسون يشعر بأن خطته تحتاج إلى بعض التعديل..

«لأن راكان الآن رجل مهم يحضر مؤتمرات لعلية القوم»

قال ذلك لنفسه بسخرية لاذعة جعلته يشعر كما لو أن قلبه ينشق. وما كان يقلقه بدرجة أكبر.

«هذا السخف الذي مارسه السيد لويد أو أحد أتباعه، كيف سمحوا لهذا الجرذ الحقير أن يكون هنا.. هل يظنون أن له قيمة كما يتبجح؟!»

لم يستغرق جونسون في التفكير طويلاً فقد كانت الصورة واضحة أمام ذهنه..

«أن هؤلاء الذين يؤمنون بأن خالقينا هم بشر مثلنا، يتمتعون بالذكاء الكافي لخدعة الآخرين، وعلى رأسهم جونسون نفسه»..

غير أنه انتبه فجأة..

«لكن لا أحد يعلم بما أفكر فيه.. هل من الممكن أن نبيهم هذا يعلم فعلاً بأسرار البشر؟ رغم أنني أشك في هذا الشيء؟!».

كان جونسون في الواقع يخطط لاستغلال راكان في ترويج مقولات كاذبة عن حياة جاكسون لهدف حبكهُ مع نفسه، وكان على علم بأن المدخل إلى ذلك السائق الفقير هو المال، فرغم ما تلقاه من أموال في سنوات عمله مع مايكل، ما يزال راكان في عداد البؤساء، الذين ينظرون إلى المليون دولار على أنه رقم خرافي.

لـم يكـن مايـكل بخيـلاً معـه، لكـن راكان كان يعيـش في أحيـان كثيـرة بشـخصية منتحلـة بمحاولتـه تقليـد سـيده، فبمجـرد أن يقبـض علـى مبلـغ مـن المـال يـروح في توزيعـه علـى أنـاس مثلـه، بعضهـم يكـون أكثـر ثـراء منـه، ولا حاجـة للأذكيـاء بتنبيـه المغفليـن إذا مـا تعلـق الأمـر بالشـيء الـذي يـدور عليـه صـراع الحيـاة البشـرية.

مـرة كان يحكـي لجونسـون متلبسـاً روح الثـري المحسـن، أنـه تبـرع بعشـرة آلاف دولار دفعـة واحـدة لجمعيـة تدعـو لحمايـة البيئـة، وهـو موضـوع لا يفهـم فيـه راكان قطعـاً، لكنـه حسـب روايتـه فقـد كان يعبـر بسـيارته شـارعاً مزدحمـاً في لاس فيجـاس، عندمـا انسـد أمامـه الشـارع فجـأة ورأى جمهـرة مـن الشـباب والعجائـز يهتفـون وهـم يحملـون لافتـات كتبـت عليهـا عبـارات علـى شـاكلة:

«الإنسان يجب ألا يكون عدو أمه الطبيعية»

أعجبتـه العبـارات وتذكـر حـب مايـكل للطبيعـة، كمـا أثارتـه الطريقـة التـي كانـوا يرقصـون بهـا، كأنهـم كانـوا يقلـدون سـيده. هـذا مـا بـدا لـه.

أوقـف سـيارته علـى الفـور، دون أن يتيقـن مـن طبيعـة المناسـبة ولا هدفهـا أو مـن ينظمهـا، وذهـب إلـى صنـدوق التبـرع الـذي كان بجـوار آنسـة جميلـة لـم يقـاوم راكان الأعـزب نفسـه أمامهـا، فأخـرج دفتـر شـيكاته وكتـب المبلـغ دون أدنـى تفكيـر.

لاحقا قال لجونسون وهو يروي له ما حدث:

«صدقني لا أشعر بالندم، رغم أنني لا أمتلك أي شيء الآن»

غير أن جونسون كان قد قرأ علامات الأسف على وجهه، كأنه نادم على ما فعل.

●●●

(٣٠)

لأن جونسون كان على علم بأن جماعة لويد سوف يعلنون عاجلاً أم آجلاً عن استنساخ جاكسون، وقد كان شاهداً على ذلك الاتفاق الذي تم بين الطرفين في فترة لم يكن العالم ينظر فيها إلى موضوع الاستنساخ بجدية؛ وأنهم سوف يستغلون هذا الأمر لأهداف تجارية لتعظيم أموالهم عبر شركة «كلون - لويد» التي لم تكن في تقدير جونسون سوى ستار تجاري لطائفة لويد الدينية، حتى لو ادعت استغلاليتها، إلا أن من يتأمل بعمق ويتابع أخبار الشركة وأخبار الطائفة سوف يجد أن الاثنين لا ينفصلان في الهدف وهما متكاملان إلى حد بعيد.

لأنه على علم بكل ذلك وأكثر، فقد قرر بعد يومين من وفاة جاكسون أن راكان سيكون مهماً بالنسبة له في الأيام والشهور القادمة، لتنفيذ خطته، التي تقوم ببساطة على الترويج إلى أن هناك نسختين من جاكسون وليس نسخة واحدة، فإذا كان لويد وجماعته سوف يعلنون خبرهم حتماً، فعليهم إذن الانتظار لتكون المفاجأة الثانية أن هناك طائفة إسلامية ستقول ذات الشيء ولكن بطريقة مختلفة. وهي طائفة لا يعرف أغلب المسلمين عنها شيئاً، وقليل منهم سمع بها إلا في حدود أخبار متناثرة تنشرها الصحف لا تُؤخذ بمنتهى الجدية، وهي تتبنى أيضا كما لويد وجماعته

تماما؛ الأسلوب العلمي المداهن؛ في النظر إلى موضوعات العقيدة والدين والروح. ثمة فروق طبعا بين الاثنين وهي فروق كبيرة، لكن في تقدير جونسون أن الاثنين يخدمان الغرض نفسه.

لم تكن تلك الطائفة الإسلامية من ابتكار جونسون، فقد كانت حقيقة ولها كتائبها المنتشرة في بلدان مختلفة من العالم وإن كان نشاطها الأساسي يتركز في بلدان غربية وأفريقية وأسيوية بعيداً عن البلدان العربية والإسلامية.

إلى قبل فترة قليلة قبل وفاة جاكسون لم يكن جونسون يعلم شيئاً عن تلك الطائفة، إلى أن أخبره بها مايكل نفسه وأنه على علاقة غير معلنة بهم، وهو الأمر الذي جعل جونسون يشكك في ما يتردد أحياناً أن جاكسون مسلم لم يعلن إسلامه على الملأ. لكن لأن أوري جونسون يعلم جيداً أن جاكسون كان يعيش حياة مضطربة وغامضة بخصوص الحقيقة، لهذا لم يكن أمامه سوى تكذيب ظنونه بالدرجة نفسها التي يمكن أن يكون فيها مصدقاً لما يتردد عن إسلام مايكل.

يعرف جونسون جيداً أن الطائفة الإسلامية التي سبق له أن زار زعيمها في مقره مع جاكسون بمدينة أنطاليا التركية، ليست لديها أي نوايا لإعلان شيء من قبيل ما يزمع الترويج له، لكنه كان يعتقد أنه قادر على أن يقنعهم بتصديق هذه الافتراء، فشخصية

زعيمهم سليمان النوراني تشير إلى أنه رجل مخاتل وأنه يمكن أن يفعل أي شيء في سبيل ترويج فكره عن اقتراب نهاية العالم وربطه ذلك بمفاهيم علمية قحة، ومحاولاته ربط العلم بالدين بطريقة عصرية كما يدعي.

●●●

(٣١)

مـرات أعـود بذكراتـي إلـى الـوراء أتخيـل أن حياتـي كانـت مـن الممكن أن تدخل في احتمالات عديدة بحيث لا أعرف من أكون أنا بالضبط، وكيف وصلت إلى ما أنا عليه اليوم، هل كانت واثقاً من حلمي ذات طفولة بعيدة.. ومن ثم حياة صاخبة بدأت في جامعة الخرطوم ونبوغي المبكر وذهابي لأمريكا ثم تخصصي في مجال معقد يتعلق بعلم الدماغ وعلاقة ذلك بالفن والمعرفة الإنسانية المطلقة.. بالإضافة إلى كوني عازف بيانو فريد.

لكن كل تلك المواهب لم تكن لتشغلني كثيراً جداً. يصعب علي أنا أن أفهمها، أنا الحوت الذي ابتلع كل شيء وأصبح يفرخ الأنبياء، في حين أن لم يصبح أي شيء. وهذا يشبه حالي فمن خلالي عبر الكثيرون وبقيت أنا في مكاني لم افتح أفقي لأي تفوق كبير، بعكس ما يتكهن به أساتذتي الأمريكيون وقتذاك أنني سوف أكون فريد عصره، ولم يكن ذلك بالبعيد جداً، ربما قبل ليس أكثر من عشرين سنة. لكن على أي حال فأنا سعيد بغموضي وحياتي التي تزاوج كل شيء.

نسيت أمر ورقة المؤتمر، وانشغلت في تفاصيل أخرى من حياتي. هل كان ممكناً أن أكون أي شخص آخر غير أنا وما عليه اليوم، هل لدي قناعة بما أنا فيه؟! أنا الحوت.. أينشتاين..

●●●

القسم الرابع
الترومبيت والتابوت
(٣٢)

مطارات.. طقس بارد.. وموت.. وأمر رابع لابد من ذكره.. غموض يكتنف كل شيء في هذا المساء.. فمنذ الصباح الباكر ثمة شيء غير طبيعي يجري هنا، في هذا البلد، هناك المئات بل الآلاف من الناس الذين يقطعون الطرقات هرولة وجرياً إلى تلك الساحة المحيطة بالمطار القديم والوحيد في العاصمة المكتظة بالبشر، عشرة مليون (نسمة) على الأقل.

مع التذكير بأن «نسمة» تعني كل شيء حي.. وهذا يعني إسقاط الأموات..

لكن التفكير بهذا الشكل سوف يجعلنا نخصم الكثيرين، لأنهم فقدوا الأمل، يقال إن الفرق بين الحي والميت هو الأمل، فالذي لا أمل له لا روح تسكنه.

ويقال إن الموت الجسدي وبداية خروج الروح من البدن، تبدأ ساعة يكون الأمل قد شرع في التضعضع لدى الإنسان. وهذا الكلام أيضا ليس قاعدة مطلقة إذ على الإنسان أن يكون حذر، بألا يأخذ كل شيء على أنه حقيقي ونهائي. فالحياة البشرية هي مجموع تجارب الناس، وكل يتكلم من وجهة نظره ومعاناته.

أنا على سبيل المثال، وفي هذا الصباح كنت في غاية الأمل، رغم أنني أعرف نفسي جيداً أنني مت، وأن روحي صعدت إلى الفراديس العلية، إلى المكان المسمى بالجنة، أو ذلك الكوكب البعيد الذي يمكن لي تلمس ضوءه في الليل، حيث يعيش الإله الملك هيلاسلاسي، الذي لابد أنه ينتظرني بشغف، وحيث أيضا سوف التقي رفيق عمري ومعلمي مايكل جاكسون. كلنا خالدون هناك في الكوكب الدري.

ولأنني مت بعيداً عن الخرطوم، في مشفى، فقد حرت في أمري، وسبب الحيرة أن قناعتي بالأمل والفكرة عنه تبددت قبل قليل، قبل خروج روحي عن جسدي الفاني وارتفاعها فوق تلال جبلية مغطاة بالثلوج، فالطقس هنا بارد جداً، أبرد بكثير من هناك، حيث سيصل جسدي أول المساء محمولاً في طائرة خاصة.

الحرارة هنا دون الصفر، ليس لدي مقياس فهرنهايتهي لقياس الحرارة، لكن شعوري يقول بذلك. وبالأمس قال أحدهم بجوار سريري، وأنا في مقام بين الموت والحياة، إن هناك الكثيرين يموتون هذه الأيام بسبب البرد القارس، هذه الموجة التي تضرب البلاد منذ عشرات السنين.

كنت في غاية الأمل أنني سوف أمثل للشفاء، وأن معجزة سوف تحدث حتماً لأعود إلى الذين أحبوني.. أعلم أن ملايين في بلدي ينتظروني لكي يستمعوا لي وأنا أغني بصوتي الذين أصبح جزءاً من حياتهم ومن ميراثهم.

قلت بلدي وأنا أعيش طوال السنين التي مضت بهوية مزيفة، سوداني.. في حين أنني في الواقع ابن الأرض الموعودة أثيوبيا.. ربما كانوا هناك من يكتشفون عمق الصوت والنشيد الأثيوبي، الحبشي في صوتي، وقد أتعرض أحياناً للإهانات بوصفي أبدو حبشياً في هيئتي، طالما كانت العنصرية في كل مكان. لكن لا أحد كان قادراً بشكل واضح على سبر غوري وتاريخي الأول الغامض. فكل أوراقي الثبوتية تقول إنني سوداني من مواليد وسط الخرطوم، وأنني رمز وطني، استطاع أن ينسج نفسه في زمن وجيز ويصبح المطرب الأول للشباب.

●●●

(٣٣)

كنت أؤمن بالأمل، لأن حياتي شهدت من قبل معجزات كثيرة، ولابد أن أخرى قادمة في الطريق، فسوف تمر أيام قليلة ويبدأ الجسد المعذب بالألم في الشفاء تدريجياً لأعود إليهم، إلى عائلتي الكبيرة جمهوري الذي أحب فني، هؤلاء الشباب الذين ما كنت أظن أنني سوف ينتظروني قبل نهاية هذا اليوم جسداً بلا روح، في المطار القائم في وسط العاصمة، عائداً بطائرة لا ديباجة عليها.

لو منحوني الفرصة لقلت لهم أكتبوا لي على ظاهرها عبارة واحدة..

«الحوت»..

وهذا ليس اسمي وإنما لقبي المحبب لهؤلاء الطيبين من شباب بلادي، وهو لقب محبب لي أيضاً.. ولو منحوني أيضاً فرصة للكلام وإلقاء كلمات قصيرة في المطار، فقط لدقيقة واحدة لا أكثر.. لأخبرتهم:

«أن يتذكروا أن الحوت الحقيقي لم يولد بعد، وأن الحوت الذي أحبوه ليس إلا ظل مؤقت لذلك الكائن الذي كان يسكنني»

كنت سأخبرهم بذلك لأن الأمل كان كبيراً عندي، ولم أتوقع البتة أن يأتي القدر، ويسرقني الموت في غير ما توقعت، أبداً.

فالحوت الذي يجب أن يروه ويتخيلوه هو «نسمة» أخرى غير التي عرفوها، هو غير كل ما سمعوه وقدروه، وأحيانا حتى أقرب الناس إلينا لا تفهم جيداً ولا تعرف من نكون. وفي ساعة موتنا يسرعون على أفضل الاحتمالات لتقديرنا والبكاء علينا بحب وعاطفة صادقة، يحدث ذلك لأنه لو كنا مكتملين فعلاً لما بكينا أصلاً، فالأشياء المكتملة تفقدنا القدرة على الحزن وترع الدموع. كذلك لو كانت معرفتهم بنا مكتملة لحدث أن ضحكوا بأدب بدلا من أن يبكوا.

●●●

(٣٤)

كان النوراني يتحدث عن لحظة قريبة سيظهر فيها رجل يُدعى «الرجل الصالح» عمّا قريب..

يخبر أتباعه.. هو حي بيننا ولكننا لا نراه، ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف حيث صحب نبي اللّه موسى في رحلة تعلم فيها موسى الكثير وأدرك من الحكمة على الإنسان أن يعلم أن فوق كل ذي علم عليم. وأن هذا الرجل الصالح الذي يدعونه بالخضر، وأسماء أخرى عديدة، أصبح خالداً لأنه شرب من (ماء الحياة) أو (الأكسير الغامض).

بالنسبة للموضوع الأخير.. السر الغامض.. الأكسير فهو يتحدث عنه ويقول إنهم استطاعوا تحضيره عن طريق عمليات كيماوية معقدة..لكنها ليست الكيمياء المعروفة للعالم الحديث، فهي مزيج بين كيمياء العصر وعلوم سرية متوارثة لعدد من الأولياء والصالحين المسلمين، وعلى رأسهم هو.

لم يشر النوراني في حديثه مع جونسون الذي ناقشه بجدية، إلى متى سيكشفون بالتحديد عن اكتشافهم أو اختراعهم، المسمى «ماء الحياة»، والذي يجعل الإنسان يعيش إلى الأبد، كما يدعون. لكنه أشار إلى أن الإعلان مرتبط برغبة «الرجل الصالح»

في الظهور على الملأ حيث أنه هو الذي سوف يقدم للبشرية الاكتشاف، وليس النوراني أو أي أحد آخر من الطائفة.

عندما سأله جونسون عن سبب هذا الربط بين الإعلان والرجل الصالح.

أجاب النوراني:

«لأن أي محاولة للإعلان عن (ماء الحياة)، أو محاولة استعماله، دون رغبة الخضر يعني أننا سوف نعطل مفعول الدواء السحري، لأن هذا الرجل بالذات أعطاه اللّه إمكانيات عظيمة لكي يفعل أي شيء.. أي شيء يمكن أن تتصوره وفوق ذلك»

«ولكن لأي هدف؟!»

سأل جونسون، لكن دون أن يدرك النوراني مغزى السؤال، هل يتحدث جونسون عن الهدف المتعلق بقدرات الخضر أو يتحدث عن الهدف المتعلق بإرجاء الإعلان عن «ماء الحياة»..

رد قائلاً:

«الأهداف سر تحتفظ به الطائفة، في قلوب أوليائها الكبار.. فليس للعامة أن يعلموا بكل شيء»

خرج جونسون وجاكسون من لقائهما مع النوراني في قصره الواسع الفخم في أنطاليا، دون أن يعرفا هل كانا في حلم أم حقيقة،

مما يسمعان، فجاكسون رغم أنه سبق له أن قابل الرجل إلا أنه قد سمع بعض الأشياء لأول مرة، بل أغلبها.

أما جونسون الذي يقابل سليمان النوراني للمرة الأولى، فقد تأكد له أن دجالي العالم قد زادوا واحداً، وأن المال هو المعبود الحقيقي في العصر الحديث، ولأجل المال فإن ثمة من يوظفون العقائد لعلمهم كم يعلق الملايين آمالهم على العقيدة بوصفها هي التي سوف تصنع لهم الخلاص في هذه الحياة وربما حياة أخرى ينتظرونها؛ جونسون نفسه لا يؤمن بأنها موجودة.

استعاد جونسون هذه المواقف، قبل أن يقف في منتصف البهو تماماً، مصافحاً السيد لويد، واعتذر له قائلاً:

«كنت أرغب في حضور المؤتمر الصحفي، لكنني للأسف تأخرت لبعض المشغوليات»

ابتسم لويد وكأنه فهم نوايا الرجل، أو لم يفهم.. لم يصل جونسون إلى نتيجة محددة، لكنه شك في الابتسامة التي بدت وكأنها تبشر بأمر غير سعيد لما يفكر فيه.

لم يقف الرجلان طويلاً، فقد اعتذر لويد، أن أمامه برنامج عمل وعليه المغادرة في الحال. وقال وهو يصافح جونسون مجدداً ليودعه:

«سيكون لنا لقاء قريب.. سأتصل بك»

(٣٥)

تولت الطائرة مهمة نقل جسدي من مدينة لأخرى. كان ذلك الجسد موضوعاً داخل تابوت لف بعلم بلدي الجديد، فقبل عام ونصف العام أنشطر بلدنا الأم لبلدين، ومن ذلك الوقت وإلى اليوم كان الموت يجرب طاقته القصوى في الفنانين والشعراء والأدباء، في الأرياف والمدن، ووسط النازحين من الحروب في المعسكرات البعيدة.

نعم أنا أتعامل مع السودان كبلدي، ففيه بزغت موهبتي الحقيقة، في ذلك اليوم الذي كان علي أن أترك فيه أديس أبابا وأهرب إلى الخرطوم، بنصيحة من معلمي ماركوس غارفي، الذي قال لي:

«مايكل أنت الآن في مقبل الطريق.. وجاكسون أعطاك الأمل.. فلا تبدده»

«سوف أنجح هنا»

«لا ليس هنا.. أنا أعرف ماذا أقول لك، اذهب إلى الخرطوم»

«لكن السودانيين لديهم آلاف المطربين، كيف سيحفلون بي؟»

«لا تتردد.. لا تخف.. مرات يكون عليك أن تنافس وسط الزخم.. هذا الطبيعي لكي تثبت أنك ناجح بحق»

وصلت الخرطوم، وعشت لعامين من التعب والرهق، وأنا أقول لنفسي إنه ليس من أمل وفي لحظات بدأت أكفر بهذا المايكل الذي منحني اسمه. وقد كان لي أن اسمي نفسي، مايكل عبدالله بدلاً من مايكل غوسي كما اقترحت في البداية، أو كما اقترح لي ماركوس، الذي نصحني أيضاً:

«يوم تجد الجرأة لتفعل أي شيء فقم به ولا تتردد.. الشجاعة هي التي تهبنا النجاح.. والشجاع يبدأ بأصغر التفاصيل.. دون الكبير منها»

الآن أرى الصندوق الذي يحملني، وهو يبدو لي مريحاً، لجسد انفكت عنه روحه إلى الأبد، في حين كان مرآه مؤلماً وقاسياً للشباب الذين تجمعوا في الساحات حول المطار، وعلى طول الشارع الرئيسي المؤدي إلى وسط المدينة، ومن ثم إلى خارجها من جهة الجنوب إلى حيث مدينة أخرى شهدت آخر حفلاتي الغنائية قبل أن يجري ما جرى.

وفي مشهد تشعر روحي المطلة من علٍ بالضيق، كانت الأيادي تتناوش لكي تمسك بأطراف الصندوق الخشبي، حتى أن العلم تمزقت بعض أجزائه جراء هذا العراك.. كانت هناك أيادى تفعل ذلك وهي طيبة أشد ما يكون الطيب والصدق والمحبة، في حين كان هناك من يفعلون ذلك لإرضاءٍ وقتي، يقصدون به مدراءهم أو سادتهم أو أناس على شاكلة كهذه.

كيف ميزت ذلك؟ ببساطة هي روحي التي ترى كل شيء.. فالأرواح ساعة تغادر إلى السماء هاربة من الأرض، تكون قادرة على رؤية كل شيء.. تصبح النفوس البشرية بالنسبة لها مثل آنية زجاجية شفافة، ومن خلالها ترى إن كان داخل الزجاجة عسلاً أم صديداً. فيالها من لحظات مؤلمة بالنسبة لي، فقد تكشفت لي أمور لم تخطر على بالي من ذي قبل، أروي لكم بعض منها ضمن حكايتي هذه، وسأحتفظ بالبعض الآخر لنفسي. وآمل من الذين يعرفون أنفسهم جيدا أنهم مخطئون أو غير مصبين أو كذابين أو منافقين أن يغيروا من خواصهم وأن يبدلوها، لأن هناك ساعة سوف تشرق عليهم الحقيقة فيها.. الموت.. ووقتذاك لا مهرب لهم.. أما الذين كانوا صادقين وشفافين ومحبين لاشك فيهم، فهؤلاء يستحقون مني الشكر الجزيل.. سأنقل إلى ربي ثنائي عليهم وسأطلب منه أن يتقبلهم قبولاً حسناً، ذات يوم، ساعة يردون موردي.

وهكذا فالأيادي المتناوشة، التي تعرق أغلبها رغم البرد، كنت أعلم تماما أي يد تعرقت عن محبة صادقة لي، وأي يد كانت تنظر لتابوتي، على أنه مجرد صفقة أو مصلحة ينتظرونها.

في ذلك اليوم، ذلك المساء.. أيها السادة والسيدات.. أيها الأحباء والأعداء، كانت الشمس قد أشرقت وانفتحت مصابيح الضياء في الليل بقوة ضوء النهار، ولم يكن من سلوى سوف

التفرج على مشهد كنت أتوقعه ذات يوم، أن أغادر الأرض، ذلك الكوكب المستدير وسط ملايين الكواكب والمجرات والمشحون بالنفوس بشتى أنواع حلمها ونبلها وزيفها!

أغادره لأكون في موقع ما.. أنا الآن فقط أعرفه جيداً.. ولم يكن لي به علم من قبل.. ومن هناك.. هنا أبدأ في رواية حكايتي، علها تكون مسلية لكم إن لم تكن فيها عبرة.. فمثلما تمتعتم بغنائي وموسيقاي ذات يوم فلتعيشوا بهاءكم أيضا مع قصتي ولا تفكروا كثيراً أين هي حدود المعقول وأين الخيال؟ أو تسألوا مرات، كيف حدث ذلك!

●●●

(٣٦)

عندما أطل جونسون في القاعة ورأى راكان جالساً، غيّر رأيه بأن يغادر على الفور إلى بهو الفندق، وأن ينتظر السائق ليبدأ في بناء علاقة جديدة معه، في محاولة لمحو صورة العلاقة المضطربة بينهما.

كان قد فكّر أن أية علاقة لراكان مع جماعة لويد ستكون مزعجة؛ لأن راكان سهل الإغواء ومخلص في الوقت نفسه..سهل لمن يستطيع أن يفوز به أولاً، ومخلص لمن يغدق عليه المال ويجعله ينسى نفسه.

يرغب جونسون في قرار نفسه ألا يكون للرجل أية علاقة مع هؤلاء الناس، لويد وجماعته، حتى لا يخربون خطته. وكونه موجوداً هنا في هذا الصباح فهو أمر غير مبشر.

لكن لأن جونسون يثق في قدراته بدرجة مفرطة، فقد قال لنفسه:

«سأكون البطل في النهاية.. وليس بمقدور مخلوق مثلي له رأس وقدمين أن يعوق طريقي»

وفكرّ أيضا:

«أن أي طريق لابد أن يكون محفوفاً بالمخاطر وأن يكون مليئاً بالمفاجآت، وإذا توقف المرء في بداية الطريق فهذا يعني أنه استسلم، الذين يفعلون ذلك هم جبناء ولا يستحقون الفوز»

قـرر أنـه حتمـاً ليـس مـن النـوع الأخيـر مـن البشـر. ومـا جعلـه يشـعر بالاسـترخاء أن الخطـة لـم تبـدأ بعـد، فليـس ثمـة خـوف أن ينقـل راكان للويـد وأتباعـه أي شـيء، لأنـه لـم يعلـم بالحبكـة بعـد. هـذا إذا كان راكان مهمـاً بدرجـة صحيحـة لجماعـة لويـد، وهـذا مـا عليـه التأكـد منـه قبـل أن يبـدأ، ولكـن ليـس اليـوم حتـى لا يبـدو متلهفـاً أو يشـعر راكان بأمـر مـا غيـر طبيعـي يـدور وراء الكواليـس.

«صحيـح أنـه سـاذج وبسـيط، ولكـن هـذا النـوع بالتحديـد يكـون خطـراً أكثـر مـن الأذكيـاء في بعـض الأحيـان. فالذكـي يفكـر بشـكل منطقـي إلـى حـد مـا وهـذا يجعـل ممكنـاً التنبـؤ بتصرفاتـه.. أمـا السـاذج فـلا، فهـو عشـوائي التفكيـر، وهـذا يُصعِّـب المهمـة»

غـادر جونسـون الفنـدق وقـد توصـل قبـل أن يصـل لمنزلـه في ضواحـي لاس فيجـاس، إلـى طريقـة يبـدو أنهـا مقنعـة لإقنـاع راكان مهمـا كان الموقـف الحالـي، سـواء كان علـى علاقـة عميقـة بلويـد أم لا، كمـا أنهـا سـوف تزعـزع جماعـة لويـد بعـض الشـيء، حتـى لـو أن راكان نقـل لهـم التفاصيـل.

أخذ هاتفه النقال واتصل به:

«هل يمكننا أن نتقابل اليوم؟!»

لـم يصـدق راكان أن جونسـون يمكـن أن يكـون مهتمـاً بـه، فقبـل قليـل كان قـد جـاء بنفسـه ليصافحـه والآن يتصـل بـه لأمـر هـام.. قـال لنفسـه:

«يا للسعد.. لقد أصبحت مهماً بالفعل يا راكان بعد رحيل سيدك.. وقد كان من حسن حظك في الدنيا أن تعمل مع رجل مثل جاكسون.. وإلا لما كان مشاهير العالم، يطاردونك.. ها هم جماعة لويد يرسلون لك دعوة لحضور مؤتمرهم بوصفك رجلاً مهماً، لا يوجد تفسير غير ذلك.. وها هو الرجل الذي يكرهك وأنت متأكد من ذلك؛ يطلب ودك..»

كان قد غيّر اتجاه السيارة في شارع صغير، وعاد في الاتجاه المعاكس من حيث أتي إلى حيث سيقابل جونسون، فقد كان متلهفاً للقاء، بعد أن رد على طلب جونسون على الفور:

«سنتقابل الآن إذا كنت ترغب»

من جديد كان جونسون وراكان في الفندق نفسه، حيث اتخذا زاوية في مقهى صغير في ركن قصي بعيداً عن أعين المتلصصين من الصحفيين بوجه خاص، الذين كان جونسون لا يود لأحدهم أن يراه جالساً مع سائق جاكسون السابق، ليس لأنه يخاف من شيء بخصوص ما يفكر فيه، بل لأنه كان إلى تلك اللحظة يتعامل مع راكان على أنه إنسان وضيع لا يرتقي مقامه لمجالسة رجل مثله.

فاتح جونسون راكان بالموضوع مباشرة:

«سأخبرك بسر.. وكن حذراً أن ينتقل لأحد.. أعرف أنك في هذه الأيام تبحث عن المال.. وأعرف أن الجميع يطاردونك..

سأقدم لك الحل السحري المناسب.. المال والشهرة معاً.. هل أنت مستعد؟!»

لم يكن لدى راكان أدني فكرة أو توقع عمّا يمكن أن يتفتق به ذهن جونسون، وحاول أن يبدو غير متلهف، لكن مشاعره كانت تفضحه، فقد حرك ربطة عنقه يساراً ويمنياً وعدل جلسته كواثق من نفسه، كرجل مهم فعلاً.

قبل أن يواصل جونسون طرح إفادته، سأل السائق بشكل مفاجئ:

«ما الذي جاء بك لمؤتمر لويد؟»

كان جونسون يعلم أن راكان لا يكذب، إذا ما أسرعت لمباغتته بأي سؤال.. وبالفعل كان رده غير ملفق:

«لقد تلقيت دعوة منهم سيدي..»

ثم قال ضاحكاً بتلقائية كأنه يسخر من نفسه؛ في سلوك عكس طريقته قبل قليل، في رغبته بأن يبدو بمظهر الرجل المهم:

«يظنونني مهماً..»

قاطعه جونسون بعصبية:

«أنت مهم فعلاً يا آل بوم.. لا تستحقر نفسك.. أسمعني جيداً لا مجال لإضاعة الوقت»

كان جونسون يتكلم، وراكان في حالة إصغاء تام:

«سأدخل في الموضوع مباشرة فالأمر لا يحتمل التأجيل، هؤلاء الجماعة وعلى رأسهم زعيمهم لويد يدعون أنهم استنسخوا مايكل، ولكن يجب أن تعلم أن هناك طائفة أخرى نجحت في هذا الشيء»

أسرع راكان للسؤال متلهفاً:

«ماذا تعني؟»

رد جونسون غاضباً:

«من فضلك لا تقاطعني ودعني أكمل.. هناك طائفة مسلمة هي الأخرى نجحت في استنساخ جاكسون لكنها لن تعلن هذا الأمر أبداً..»

بدا راكان مذهولاً، وسأل بتلقائية:

«هل يدفعون مالاً لأجل هذا العمل.. يبدو أنه مكلف!»

بدا الغضب واضحاً هذه المرة على وجه جونسون، حرّك أصبعه الأوسط من اليد اليمنى منبهاً راكان بأن يصبر ولا يتكلم ولا يسأل أبداً، وكانت ثمة إشارة منه فهمها راكان..

«إذا أردت للعلاقة بيننا أن تنتهي على الفور فتحدث مرة أخرى»

ولذا لزم الصمت، في حين واصل اليهودي كلامه:

«نعم يدفعون أموالاً طائلة.. وجاكسون بدد حوالي مائة مليون دولار بسبب رغبته الاحتفاظ بنسخة له في العالم.. يبدو عملاً جنونياً.. وكثيرون لا يصدقون هذا الشيء.. يعتبرونه من قبيل الخرافة.. لكنها الحقيقة التي يجب على البشرية أن تواجهها بعد سنوات قليلة.. كان مايكل كما تعرفه جيداً وأنت كنت قريباً منه، مؤمناً وباحثاً دوماً عن حقيقته وحقيقة العالم.. كان يحب اللّه بطريقته الخاصة دون أن يكون له دين محدد.. ولهذا تعرف على طوائف كثيرة تتسم معظمها بالغموض والغرابة في طقوسها.. لقد كان يعيش باعتقاد لا أعرف مصدره، وقد أكون سبباً من أسبابه.. لا أدري.. ولا يمكنني أن امتدح نفسي في غياب الرجل.. هذا الاعتقاد يقول بأن الحقيقة تمتلكها قلة من الناس.. فالدين الحقيقي ليس ملكاً للعامة.. وهذا بالفعل ما جعله لا يتورع أبداً وهو ينفق المال على من كان يسميهم أهل الحقيقة أو أصدقاء اللّه.. لكن الأمر الذي كان يشغله قطعاً هو الخلود.. الخلود لا كلمة غير هذه الكلمة كانت تثير جاكسون وتجعله يشعر كما لو أنه يطير أو يغني في حلم»

كان جونسون قادراً على شد الذهن بخياله الجامح، وقد كان راكان يجد في كلامه نوعاً من التشويق، وربما كان ذلك السبب هو الذي جعل جاكسون يحب دائماً أن يسمع له.

فكّر راكان بهذا الشكل، وهو يسرح بعيداً في تذكر لحظات متشتتة من حياة جاكسون.. أماكن غريبة كان يأخذه إليها.. لقاءات مع أناس يتمتعون فعلاً بقدرات خارقة.. فجأة كانت قد انفتحت أمامه بوابة لم تكن مرئية، وأصبح قادراً على رؤية وتذكر مواقف كثيرة جداً بحيث يصعب إحصاؤها، عن حياة رجل غامض جداً.. وهو ما يشفعه جونسون الآن.. الذي بلا شك له معرفة أكبر بالناس.. ويعرف كيف ينفذ إلى قلوبهم.

بدا راكان يشعر أنه كما لو أخطأ طوال السنوات السابقة، وهو يملأ قلبه بكراهية جونسون.. وحاول أن يفسر سبب هذه الكراهية بدقة، وهو يطالع الرجل أمامه في هذه اللحظة، لكنه لم يكن قادراً أبداً على معرفة السبب. ذلك الأمر الخفي المحشور في دماغه الذي جعله يرى جونسون شريراً..

«هل هي العداوة التقليدية لرجل جاء من أصقاع الهند.. لكل ما هو يهودي؟!.. والتي تتغلغل في القلب والجسد ويصعب نزعها؟!».

تلك العداوة التي كان لها تاريخ عميق في ذاكرته منذ طفولته في الهند، قبل أن يبتسم له الحظ ويصل أمريكا ومن ثم يصبح السائق الخاص لواحد من أشهر مطربي العالم وأكثرهم إثارة.

(٣٧)

وقتذاك وقبل أن يكون أي شيء.. كان الطقس بارداً أيضاً ساعة هبطت بنا الطائرة.. أيضاً طائرة ومطارات ولكن في موسكو.. وكان بجواري واحد من أعظم موسيقي السودان الذين درسوا في هذا البلد من قبل.. ولدقائق ونحن نسير على الأرض شبه الرطبة.. داخل صالة مغلقة محاطة بزجاج كثيف الضباب.. كنا قد توقفنا، وعزف صديقي الموسيقار على آلة الترومبيت ذات البوق، ضاغطاً بأصابعه بقوة على الدواسات.. لتخرج النغمات كما لو أنها قادمة من مقبرة ملكية قديمة في شمال السودان، تلك المقابر نفسها التي شيدها أجدادي الأثيوبيون، وهم أنفسهم السودانيون، لا فرق عندي. فيما بعد تم اقتراح تاريخ منفصل لكل شعب، في حين أنه من ناحية الحضارة فقد كانت تلك الشعوب واحدة ذات يوم.

وللحظات سرح خيالي بعيداً في تذكر تلك الأيام التي ذهبت برفقة مجموعة من الأصدقاء إلى البجراوية بشمال البلاد، حيث توقفنا نتأمل ما شاده الأجداد ذات تاريخ بعيد..

خيّل لي وقتذاك أنني أسمع عزف موسيقي على الآلة نفسها التي أسمعها الآن.. ربما لأن صديقي الموسيقار أخبرني أنها عرفت منذ عهود طويلة ووجدت آثارها في الحفريات القديمة بالبجراوية.. أي هناك حيث وقفت والأصدقاء.

وقتها في مطار موسكو استرجعت تلك اللحظات المؤثرة بجوار الأهرامات، وكيف أن العزف توقف فجأة ليس لأن عسكرياً بالمطار كان يستمع إلينا انتبه فجأة لرمقات رئيسه الضابط الذي كان يحمل عصا وقد نبهه، كيف يسمح بالإزعاج في مكان عام.. أو لأن الروس ربما لا يحبون لحن هذه الآلة، بل لأن قافلة من البشر عبروا من أمامنا مسرعين وهم يحملون تابوتاً ضخماً وطويلاً، قيل أنه لأحد الجنود الروس الذي ماتوا في عملية عسكرية بالشيشان. في تلك الفترة كانت الحرب قد بلغت أوجها بين الروس والشيشان المسلمين الباحثين عن استقلال بلادهم ما بعد تفكك الاتحاد السوفيتي سابقاً.

فجأة انتبهت أن روحي تكذب عليّ، فأنا لم أذهب إلى السودان إلا بعد عام ٢٠٠٤ في حين أن حرب الشيشان انتهت في ١٩٩٦ فما الذي يحدث معي الآن، خاصة أنني لم أزر روسيا أبداً في حياتي.

ووجدت نفسي في مقابل روحي أواجهها في تلك اللحظات بالكذب. أنني لست أنا، لست أنا مايكل عبد الله الحقيقي، أنا من يرغب أن يكون مايكل عبد الله، مايكل الحقيقي الذي أحبه السودانيون.

ففي ذلك اليوم كان قد مات الفنان الحقيقي.. مات مايكل عبد الله السوداني في ذلك الصباح.. وأنا الآن بين الجموع في

جنازتـه، أبحـث عـن موضـع لـي أحـاول أن أعيـش شـخصيته. فهـل يمكـن أن يحـدث لـي؟

هـل يمكـن لـي أن أكـون مشـهوراً ذات يـوم، أم أننـي أكـذب علـى نفسـي؟

هل يمكن أن أصبح بشهرة مايكل عبدالله السوداني؟

نعـم لقـد كذبـت علـى نفسـي طيلـة الطريـق إلـى المطـار قادمـاً مـن الحـي الـذي أقيـم فيـه مـع مليـون مهاجـر حبشـي علـى الأقـل في وسـط الخرطـوم، وحيـث أعيـش في شـظف، لـم تتحقـق لـي أي وعـود مـن تلـك التـي أطلقهـا معلمـي وعرّابـي الـذي كفـرت بـه ماركـوس غـاريف، الـذي بـدأ يتهـرب منـي ويتركنـي، يهجرنـي، أو لا يـرد علـى اتصالاتـي. حتـى الطائفـة وهيلاسلاسـي بـدأت أكفـر بهـم، لكننـي مـا زلـت أحـب مايكل جاكسـون، مـا زلـت أتمسـك بنبوءتـه لـي، ولـي أمـل أننـي سـوف أكـون ذات يـوم قريـب.

وأنـا أتعلـق كغيـري بنعـش الفنـان مايـكل عبـد اللّه وهـم ينزلونـه في المطـار في الشـتاء البـارد، كنـت أذرف دموعـي، لا أعـرف لمـا أفعـل ذلـك ولأي سـبب سـوى أننـي أبكـي فشـلي في الحيـاة، ولكـن، هـل كنـت سـأتمنى أن أكـون محمـولاً علـى هـذا النعـش.

وقفت حائراً أمام هذا السؤال!

(٣٨)

أكاد أكون قد تجمدت في مكاني وأنا أرى التابوت المهول. دون أن أتخيل أو أظن أنني سوف أحمل على واحد مثله ذات يوم.. حتى لو كان بحجم أقل أو ملفوف بعلم السودان بدلاً عن العلم الروس.. وهذا طبيعي فأنا لست روسيّا. لكن لهذا حكاية!!

أقول ذلك لأنه أثناء الأسابيع الثلاثة التي قضيناها في موسكو نسجل ألبومي الغنائي الأول، كنت قد التقيت بأحد الشباب السودانيين، كان يعمل جرسوناً في مطعم بشارع صغير يقطنه عدد هائل من شباب بلادي، الذين جاء بعضهم للدراسة وبعضهم تقطعت به السبل منذ سنوات طويلة.

الشاب الذي كان يتحدث العربية بلهجة مُكسّرة، أخبرني أن والدته سودانية وأن والده من روسيا، وقد جاءت لدراسة الموسيقى هنا في بعثة للحزب الشيوعي السوداني في الستينات، واستقر بها المقام دون أن تعود بعدها إلى السودان أو تتعلم الموسيقى كما أراد والدها. وحدثني أنه يحب الموسيقى السودانية رغم أنه لم ير السودان وأنه سيعرفني على والدته.

كل ذلك جعلني أفكر في صورة لسوداني يعودون به في تابوت إلى موسكو ملفوفا بالعلم الروسي بدلا عن السوداني. فما الذي

يجعله مرتبطا بالسودان؟! خاصة بعد أن أصبح مواطناً روسيا عليه أداء الخدمة العسكرية الإلزامية في الشيشان.. وهناك يلقى حتفه.

هذه الصورة عبرت بذهني رغم أنني استهجنتها، لأن الشاب الذي يقف أمامي كان حاضراً في تلك الصورة، وهو يحمل بندقية غير قادر على الاستفادة منها أثناء مطاردته من قبل جنود شيشان بلحى كثيفة، وسط أحراش مغطاة بالثلوج أيضا.

لبعض من الوقت أشعرتني هذه المشاهد بالضيق، لدرجة أنني لم أقدر على مواصلة تناول الغداء، وقد لاحظ الشاب ذلك، واستفسرني عن سبب امتعاضي فجأة. فآثرت أن أغير الموضوع وألا أقول له أن مشهداً في مطار موسكو ظل يطاردني لعدة أيام في الصحو والمنامات.

●●●

القسم الخامس

التبول اللاإرادي

(٣٩)

تقدم الشاب الوسيم متوسط القامة، من المنصة، وسط تصفيق حار من الحضور في القاعة الدائرية الشكل. وهذا يعني أن الميكروفون كان في الوسط تماماً ويتطلب أن تدير رأسك كل مرة في اتجاه عكس الأول لكي تتيح للجميع أن يرونك وأنت تتكلم. أما الرجل فقد التزم بأن يعاين فقط باتجاه نافذة صغيرة في السقف بها عصفور يتيم ظل حاضراً إلى نهاية الخطبة، كأنه ركز في سماعها أو تخيل المحاضر ذلك.

غمر التصفيق المكان في النهاية، كما حدث في البداية، ونزل الرجل من على المنصة التي ترتفع حوالي ثلاثين سنتيمتراً عن أرضية القاعة المبطنة بسجاد ناعم ومخطط بألوان هادئة تعطي شعوراً بالأمان، وهي تتناسق مع السقف الملون كذلك بالهدوء، والنوافذ القليلة التي لا تفتح مع برودة الطقس في هذا الموسم، ذات الإطارات الرمادية والزجاج الذي يمرر ضوء الشمس في الظهيرة فيمنح الإحساس بالدفء المفقود في القاعة أغلب الوقت.

أخرج الرجل من جيب بدلته اليمين منديلاً قماشياً، مرر به بعفوية على جبينه يمسح العرق الذي تقطر ندياً، في حين سال أنفه قليلاً ما أشعره بالحرج، أنه يخجل أو ليس لديه الشجاعة الكافية للوقوف وسط جوقة العلماء في القاعة، وهذا لا يليق به، فثمة تصور عام عنه، أنه إنسان استثنائي وفريد فكيف يبدو أمامهم بهذا الهزال والضعف، أنه يرتجف.

تمايل الرجل مرتعشاً مثل بندول ساعة حائط صدئة، ثم توقف أخيراً عندما شعر بعيني البروفسيور «هالم» تحاصره، أو بالمعنى الأكثر وضوحاً تحاسبه على أنه فشل في اللحظة الأخيرة، الزمن غير المتوقع بعد أن انتهى كل شيء، قضيت المهمة الصعبة المتمثلة في المحاضرة نفسها، ومن المفترض أن الجميع صفقوا وطربوا كذلك.. وغادروا القاعة، غير أن أغلبهم بقي لكي يكتب في مذكراته ذات يوم أنه صافح «السيد آينشتاين» أو التقط صورة تذكارية معه أو وقع له على أوتوغراف.

حصار عيني هالم جعله يتماسك، ويقرر أن يستهلك الوقت المتبقي في تناسي أمر هؤلاء البشر الذين أزعجوه دون أن يعلن لهم أنه متضايق، وأنه لا يحب هذه الطقوس الاحتفالية، وأنه في واقعه السري جداً الذي لا يعلمه سواه، أنه إنسان يحتقر البشر، وتلك حكاية طويلة.. سيكون عليه وبسرعة أن يبتكر حيلة للخروج

السريع، لأسباب كثيرة أهمها بالإضافة للاحتقار، أن مثانته قد امتلأت ويجب أن يفرغها سريعاً وإلا تبول في ملابسه ليغطي البول المكان، فهو يعاني من هذا المرض المقلق عدم التحكم في إدارة المثانة وهذا أمر شرير قطعاً.

وإذا كان قد نجح في مرات سابقة في الإمساك بالبول إلى لحظة هرب فيها من الحصار، فهذه المرة يبدو أنه لن ينجو، فالجمهور يتزايد ويضغط من كل الاتجاهات، يهدر مثل موج متحفز لإغراق الشطئان، هذا الموج الحقير الذي سوف يدمره، فقد حدثت الكارثة، المصيبة ونزل البول على البنطلون الأسود، متدفقاً بلا حسيب إلى الأرضية السجادية، هبط لترتفع الضحكات المكتومة، ويبدأ الجميع في التلاشي مثل غيوم كاذبة، ليتركوا الرجل وحيداً يعاني الضيق النفسي والألم، لقد محا مجد ساعتين من الكلام المدهش، والإعجاب النادر بهذه الفعلة الحيوانية، ولم يكن من أحد قد توقف ليسمع عذراً، في حين لم يتبرع البروفيسور هالم لكي يوضح ما جرى معتذراً بأن السيد الشاب يعاني مشكلة التبول اللإرادي ويجب أن يجدوا له العذر.

هل يفعلها؟ هل يمسك بالميكروفون ويقول لهم بصوت مسموع للكل، سيادتي.. سادتي.. عذراً لما جرى، ليس باليد من حيلة، عفواً لما رأيتم، اعتقد أن ذلك لن يزعزع ثقتكم في هذا الشاب الموهوب، والعالم الفذ.

عبرت الفكرة بذهن هالم، ولم ينفذها لأنه شعر بأن ذلك سوف يفضح المشهد بدرجة أكبر ويوسع من دائرة المعرفة لمن لم يعايشوا ما حدث، قد ينقل بعضهم من قبل الوسوسة البشرية المعتادة ما رأوه إلى آخرين ويتم التناقل بمتوالية رياضية هندسية، لتعلم المدينة كلها، وهذا أهون من توظيف الميكروفون للتوضيح ما يوسع دائرة المعرفة ويعقد الوضع.

في المدينة لا شغل للبشر غير أكل لحم بعضهم البعض ميتين، شغلهم الشاغل التسلية بحكايات بعضهم، يحدث أي شيء، تقع أية واقعة، بغض النظر عن حجمها ومدى أهميتها أو قيمتها، لتجدها وقد اتسعت بتلك المتوالية الهندسية وعلم بها الجميع تقريباً، سواء كان ذلك نهاراً أم ليلاً إذ ليس من فرق كبير. الفروقات تخلقها طريقة استعادة الحكاية، الإضافة والحذف وتشغيل الدماغ من أجل جعل ما يروى أكثر متعة، ورأس الأفعى الإعلام، بعد قليل سوف ترى شاشات التلفزة وقد صوّرت ما حدث بشكل مؤسف، هذا ما فكّر فيه هالم، أن الناس تجد معنى لحياتها في هذه الأمور، في تناول القصص التي تحدث مع أي منهم وإعمال الخيال فيها بشتى السبل لجعلها أكثر تشويقاً، ومن ثم كلما كانت القصة مشوقة وجدت الفرصة للانتشار الأكبر في المدينة، بل في العالم أجمع.

ليس لهالم أي علاقة بعلم القصص أو السرد ولم يكتب أي أقصوصة في حياته أو يفكر بذلك، غير أنه يقرأ القصص والروايات بشكل عام، ولا يمر عام إلا ويكون قد قرأ عشرين رواية على الأقل من الحجم الكبير، ليست أقل من ٥٠٠ صفحة، يمارس ذلك في المطارات وهو مسافر وفي أوقات الفراغ وفي الإجازة السنوية إن وجدت، وفي الحمام أحياناً وهو يضع الكتاب جانباً ليعيد التفكير في مسألة فيزيائية معقدة.

إذاً فهو عالم فيزيائي في الأساس، وهو الآن يشعر بالزهو لكونه في مدينته، مسقط رأسه بأمريكا. غير أنه سوف يعود خلال أيام إلى الخرطوم، بعد أن يكون قد قدّم الشاب الموهوب السوداني إلى جامعة برينستون في نيوجيرسي، وهي الجامعة نفسها التي انخرط بها ألبرت أينشتاين الحقيقي باحثاً بمعهد الدراسات المتقدمة التابع لها في سنة ١٩٣٩م. وقد تبدد الزهو قليلاً بعد فاجعة التبول، دون أن تهتز الفكرة أو المشروع المتعلق بتبني خليل المكي، لإكمال دراسته في علم الفيزياء في برينستون.

مرّ المشروع بخطوات ومراحل وعقبات إلى أن صار واقعاً، بوصول خليل إلى هذه المكانة بأن يلقي محاضرة علمية غاية في التخصص أمام جمهرة من العلماء الكبار، ووسط عدسات الباباراتزي، الذين طاردوه بكاميراتهم وهم يلتقطون صوراً غير

محبذة لشاب في التاسعة عشر من عمره مبلل البنطال، وهو متعرق ومتهجم جراء ما وقع معه من تصرف لا يملك له تصريفاً. وهذا قطعا أساء له، وآلم هالم أشد الألم، كيف أن مراهنته قد تفشل، فالمقدمات تقود إلى النتائج، غير أنه اضطر لكي يقلل من أثر الجرح، أن يظهر في قناة تلفزيونية محلية ويصرّح بأن ما جرى فيه نوع من الإيلام النفسي غير المحبذ لشاب غاية في اللطف والتهذيب.

لم تكن الاستجابة سريعة، ومع عَالَم باتت فيه الأحداث درامية التغير، والإعلام ينتقل من قضية لأخرى فقد مضى أسبوع لينتهي الكلام حول الشاب الأفريقي الذي تبول في قاعة المؤتمرات بالجامعة، وينشغل الناس بقصص أخرى، وتدريجياً كان على خليل أن يستعيد عافيته النفسية بعد أن خضع لعلاج نفسي لعدة أيام، بتوصية من أحد العلماء المقربين لهالم الذي أكد له أن الخلل الذي يعاني منه الشاب إذا تطور فسوف يخصم من قدارته العلمية، فالتبول اللإرادي ليس مخيفاً لذاته، إنما يكتسب رعبه من تمدده ليصبح مرضاً مستعصياً يصعب التعامل معه، قد يصل إلى تشويش الدماغ وفقدان التركيز، وهذا سيضر بعَالِم صغير له مستقبل.

●●●

(٤٠)

يعيش سليمان النوراني في بيت كبير يبدو من الخارج كما لو أنه قصر لحاكم، حيث تحيط به حراسة مشددة وأسوار عالية، وعلى الأطراف الدائرية للسور من كل اتجاه يوجد برج صغير مشيد على نمط القلاع التي سادت في فترة قديمة من التاريخ الإسلامي.

في القصر من الداخل توجد حديقة كبيرة معشوشبة، في ركنها الشمالي الشرقي يوجد مرصد فلكي مزود بأحدث المجاهر الفلكية، وفي وسط الحديقة يوجد تمثال عظيم لجابر بن حيان العالم العربي الذي يكن له النوراني وجماعته تبجيلاً كبيراً.

كذا يمتلك النوراني مكتبة ضخمة تشغل طابقاً كاملاً من القصر تحت الأرض، وقد تعود أن يقضي فيها فترات من الليل، فما أن تغرب الشمس لا يقابل الرجل أحداً ولا يطلب شيئاً من حاشيته التي تعمل معه من أبناء الطائفة سوى أن يزودوه بالدخان والشاي الأخضر وقليل من المكسرات، حيث يبدأ برنامجه اليومي بالصلاة لساعتين، قبل أن يشرع في القراءة والكتابة. بعد أن يكون قد أجرى مكالمات عبر الهاتف مع أعوانه في عواصم عديدة من العالم، وبعد أن يكون قد طالع بريده الإلكتروني غير المتاح إلا لأعوان بعينهم في الطائفة، لكن هذا البرنامج يختل فقط في نهاية الأسبوع.

وإلى حد بعيد فإن حياة زعيم الطائفة التي تسمي نفسها بأسماء كثيرة – فكل كتيبة من كتائبها تحمل اسماً، تظن أنه الاسم الأساسي للطائفة -تحاط عوالم هذا الزعيم بالأسرار والغموض، حتى لأقرب الناس إليه، فلا أحد يستطيع أن يعرّفك بالضبط أين ولد، أو ما هي جنسيته الحقيقية، وهو لا يجيب على هذا السؤال لو سئل عنه.

مرة سئل في أحد الندوات السرية للطائفة، التي أقيمت في مدينة أنطاليا التركية من أحد الأعضاء، فأجاب بأنه:

«إنسان كوني»..

وأردف:

«انتمي لكون مفتوح، خلقه اللّه لكي نتأمله ونعيشه وقد آن لنا الأوان لكي نسافر إلى كوكب آخر منه بعد أن انتهى عمرنا في الأرض.. هذا ما يجب عليكم أن تعوه جيداً»

صمت قليلاً وواصل:

«الأسئلة المتعلقة بالجنس.. الجنسية.. ما هي إلا ثرثرة فارغة»

●●●

(٤١)

وُضِع خليل في مصحة نفسية تابعة للجامعة، فالعادة أن علماء الفيزياء والكيمياء والعلوم البحتة عامة، يمرون بأشكال مختلفة من التوترات النفسية، يعلم هالم ذلك جيداً ولهذا فحتى لو أنه أبدى تضجراً في البداية من فعلة خليل إلا أنه كان يعلم أن مرد تخوفه عائد إلى الأثر النفسي على الشاب، أن يتطور، فثمة مرحلة يمكن السيطرة فيها على الأوضاع، بعدها يصبح التحكم مستحيلاً.

حدث ذلك لزميل قديم لهالم، وهي حكاية بعيدة في الذاكرة استرجعها اليوم بحذافيرها وهو يأخذ موهوبه إلى الغرفة المخصصة له لتلقي الصدمات الكهربائية وبعض التخدير الذي رآه خليل لذيذاً في أوله ثم تعود عليه.

في تلك الحكاية، تعقد الوضع وفقدت الجامعة واحداً من أفضل العلماء المستقبليين في الفيزياء الحديثة، كان يمكن أن يشغل مكانة مرموقة في العالم لولا ما وقع له. قصته معقدة ويصعب اختصارها، طابعها مزيج بين طفولة معذبة لرجل في الأربعين من عمره فقد عائلته وهو صبي في حريق بمجمع تجاري، ونهايتها بفقدان أسرته المكونة من زوجته وطفلتيه في حادث مروري بشع، لم يعثر فيه على الأشلاء، أصيب ذلك الزميل القديم لهالم برهاب

نفسي قاس وعدم رغبة في الحياة وصار يضرب رأسه بالجدران بلا هوادة، إلى أن استقر بمستشفى للمجانين، في الولاية، لم يعد له من قيمة سوى أنه يقضي النهار في صمت مطبق، يرسم لوحات بعضها طفولي وساذج أو يعزف على البيانو الذي اشتراه لطفلته الصغيرة قبل أن تعلمه هي بنفسها كيف يعزف عليه.

يستعيد هالم الحكاية بحزن، وهو يعلم أن السيطرة لم تكن ممكنة، فافتراضه عن مرحلة يمكن أن يوقف فيها المرض النفسي أو يزاح، يتوقف على الاستعداد عند الشخص المعين، وذلك الزميل فقد ذلك، لم يكن بمقدوره التحكم في دماغه وانتقل الوعي عنده إلى اللاشعور، أو جعل حياته يقودها اللاوعي التام كأنه يعيش مخدراً أغلب وقته، لا يعرف من حوله هل هم بشر أم حيوانات أم جمادات!

خرج خليل معافى دون أن يتخلص نهائياً من آفة التبول اللإرادي، وكان عليه أن ينتقل لعلاج متواصل قد يستمر لشهور حتى ينقطع ذلك المرض الذي شخّص في درجة «دال»، بما يعني أنه ليس خطيراً ما دام الإنسان يمتلك الرغبة الكامنة في التحرر منه. ولهذا فقد حث هالم خليل أنه يجب أن يلتزم بالعلاج، لأنه دونه سوف يعجز عن الوصول إلى تحقيق الأمل المنتظر فيه، قال له وهو يودعه عائداً إلى الخرطوم:

«لا تخذلني ولا تخذل رهاني عليك.. أنت عظيم فلا تترك الضعف النفسي يسيطر عليك فيقتل طاقتك الإبداعية.. أعلم أنك سوف تكون عظيماً ذات يوم يا أينشتاين»

ابتسم خليل بشكل مقتضب كعادته، لا يميل إلا نادراً لأن يفرج عن أسنانه واضحة جلية أو يقهقه بصوت مسموع، وأومأ برأسه دليلاً على أنه سوف يكون شجاعاً إلى أقصى مدى، وحضن معلمه ومرشده الذين طالما أحبه في السنوات الماضية، دون أن يجد التعابير المناسبة ليقول له:

«إنني أحبك يا هولم، أنت الإنسان الوحيد الذي عرف قدراتي في هذا العالم ووثق فيّ، فطالما كنت ضحية لأناس حولوني في أغلب الأحيان لمسخرة يتناطحون عليها ضحكاً وهلوسة.. إنهم يقتلون البذرة التي يمكن أن تصبح شجرة مثمرة وحلماً يتحقق».

●●●

(٤٢)

في طفولته كان راكان يحب اليهود جداً، لكن هذا الأمر تغير فجأة. ففي ولايتي مانيبور وميزورام الهنديتين كانت تعيش قبائل تسمي نفسها القبائل اليهودية المندثرة، وكان نسب راكان بحسب جده يرجع لهذه القبائل، الذي كثيراً ما أخبر حفيده:

«أنت من نسل مانسيه بن يوسف النبي الذي تولى الوزارة في مصر، ولو كانت الحياة تجري كما يرغب الإنسان لا كما يرغب الرب، لكنت اليوم ملكاً يا حفيدي، لكن ثمة مقادير لا نفهمها.. لقد طرد أجدادنا من الأرض المقدسة في فلسطين قبل ٢٧٠٠ سنة على أيدي الآشوريين»

إلى هنا كانت القصة ممتعة وتشعر الصبي بالفخر وأنه ربما يصبح مهماً في مستقبل حياته. ولم يكن يناقش جده في موثوقية ما يرويه، فقط كان يسمع الحكايات ويتلذذ بها.

لكن لاحقاً كره اليهود بعد وفاة جده، وعرف أن جده أخبره بأشياء وحجب عنه أشياء، ومن ضمن ما حجبه عنه، أنه لم يجب على سؤال كان قد طرحه عليه مرة؛ بإجابة نزيهة. لقد تعمد الجد تضليله.

كان راكان قد سأل جده:

«ولماذا لا نعود إذن إلى الأرض المقدسة؟»

أجاب الجد:

«بإمكاننا أن نفعل ذلك.. ونحن مرحب بنا هناك.. لكن عليك أن تعلم أن تاريخ عودتنا لم يحن بعد، هؤلاء الذين استعجلوا السفر إلى فلسطين من اليهود وأقاموا الدولة هناك، لا يعلمون بالتاريخ المفترض للعودة والمذكور في العهد القديم»

ما عرفه راكان فيما بعد أن هجرات كانت قد تمت بالفعل من قبيلته إلى إسرائيل، لكن الإسرائيليين تعاملوا معهم بمنتهى البشاعة لقد استخدموهم كدروع بشرية في حروبهم ضد العرب، وأجبروهم على خدمة إسرائيل وكأنهم عبيد لا سادة.

«كانت رحلات مضللة»

هذه هي الحقيقة التي عرفها من عمه البروفيسور في جامعة دلهي متأخراً عندما كبر وفكر في الهجرة إلى الولايات المتحدة، قبل أن يلتقي جاكسون بثلاثة أعوام فقط.

قال له عمه:

«لم يكن جدك يريدك أن تعيش مكسوراً، كان يرغب أن يراك بطلاً ولكن يا ابني هذه هي الحقيقة».

قال راكان لنفسه وهو ينظر إلى جونسون ويراه كأنه إنسان آخر في هذه اللحظة:

«كان جدي مضللاً وكان عمي أكثر تضليلاً..»

وتذكر مقولة كان يرددها جاكسون تشفع كلامه:

«عليك أن تجد الحقيقة بنفسك.. لا تسمع لغير صوتك المنفرد».

استعادة المقولة جعلته يشعر بأن كل ما سمعه في الماضي البعيد يجب أن يمحوه على الفور، وأن يبدأ من الآن حياته.. هو راكان الحقيقي، فهذه هي اللحظة المناسبة له لكي يصنع مجده، وجونسون أحد الفرص التي جاءته من الرب، وعليه ألا يضيعها.. قال لجونسون:

«كم أحبك يا جونسون.. صدقني.. ربما في الماضي حدثت...»

قبل أن يكمل، كان جونسون قد وقف وتحرك من مقعده اتجاه راكان وطبع قبلة على رأسه، قائلاً:

«أعرف ذلك يا راكان.. لا تتحدث عن الماضي.. نحن أبناء هذه اللحظة.. أنت الآن بمجرد أن تعبر عن مشاعرك الصادقة تكون قد غسلت قلبك.. كنت أدرك أنك ذات يوم ستعرف أن ما سمعته مني وظننته تصغيراً من شأنك، لم يكن سوى مزحة.. هل تعرف أنه حتى الرب نفسه يحب المزاح مع عباده الأوفياء؟!»

●●●

(٤٣)

غاب هالم ليجد خليل نفسه وحيداً في مواجهة عالم الجامعة والعلماء والمراجع الهائلة وبعض من أطياف تزوره في الليل وهو يتمشى بين الأشجار، فقد رأى مرة أينشتاين يناديه من وراء شجرة، إذا قال ذلك لأحدهم لن يصدقه، سيقول، «قطعاً إنه مجنون»، وهو في قرارة نفسه متأكد من ذلك جداً.

يمكن لشخص واحد فقط أن يصدقه هو أينشتاين نفسه، يتخيل لو أنه كان قد قابله ذات يوم وجلس وجهاً لوجه معه إذا لفهمه بشكل صحيح وقدر موهبته كما يفعل هالم اليوم، بل أعمق من ذلك.

يعلم أن هالم يقدره جيداً لكن ما من شك أن أينشتاين أذكى من الأول بكثير جداً، ولكي يكون موضوعياً مع نفسه سأل خليل سؤالاً شفافاً لا يحتاج لمواربة، هل يتمتع هالم بالذكاء الكافي؟

ثم أجاب إنه ليس كذلك في واقع الأمر، فهو إنسان عادي تدرج في المسار الأكاديمي حتى أصبح عالماً في مجاله، وقد بدأت الصورة تتضح له الآن في الجامعة وهو يقضي الأسابيع الأولى يحتك مع عدد من الأساتذة والعلماء وإن كان لا يحبذ كعادته أن يرمي بأوراقه مرة واحدة، دائما هو حذر إلى أشد درجة في

التعامل مع البشر، خاصة أنه ينظر إليهم باحتقار، يراهم أضعف وأغبى من تصوراته عن أنفسهم، وهو لا يملك الشجاعة ليقول ذلك أو يصوغه في نظرية واضحة، حتى لا يرمى بالجهل، فالإنسان هو الكائن الأكثر عقلانية وعقلاً في الوجود، على الأقل في هذا الكوكب، لا أحد يشكك في ذلك إلا غبي أو جاهل أو مستهتر بالتجربة البشرية، سيكون ذلك الرد القاطع الذي سيلجمه عن التفكير في الموضوع.

نعم.. هالم يدعمه إلى أبعد حد، يعرف خليل ذلك، بيد أنه يدرك أن الرجل مرات يتثاقل عليه يمارس عليه نوعاً من الغرور الذاتي، أنه من اكتشف موهبته وهذا يعني ضغطاً نفسياً على خليل، فأسوأ التجارب التي يمكن أن يمر بها شخص موهوب وهو قادر على فهم موقعه جيداً أن يأتي متنطع ليدعيّ أنه لولاه لما أصبح له قيمة.

«نعم البشر قد يساعدوننا للوصول إلى مراتب معينة أو احتلال وظائف بعينها أو يقدمون لنا خدمات من أي نوع كان، وهذا بالطبع لا يعطيهم حرية التصرف في الإساءة لنا»

يفكر خليل بهذا الشكل، ثم يشعر بشيء من الإحباط العابر، له قدرة على النسيان وهذا جيد، وهي نقطة إيجابية لذاته يفهمها تماما، وأنها سبب مباشر في كونه استطاع أن يكون على الأقل

موجوداً في هذا العالم، فربما لو كان شخصاً آخر في مكانه لربما فقد حياته ومضى إلى غياهب الموت، لم يعد حياً يرزق على الأقل دعك أن يكون فاعلاً يؤمل فيه أن يقدم معجزة للبشرية.

كلمة «معجزة» يراها مضللة وإن كان قد تذكرها فقد استخدمها هالم مرة لتوصيف الإضافات الكبيرة التي يمكن أن يقدمها بعض الناس في طريق الإنسانية الطويل، قال له:

«أنا متأكد أنك سوف تقوم بمعجزة ذات يوم».

وكعادته لا يعلق، بل يشعر بالحياء والخجل الذي لا يبرحه لدرجة أنه لا يقدر على معاينة محدثه حتى لو أنه يعرفه منذ زمن بعيد. وهالم كان يرى تلك الصفة إيجابية لا عيب فيها، إنها تتعلق بالمبدعين الكبار في العالم، وأينشتاين الحقيقي كان من هذه الشاكلة من البشر، لم يكن شجاعاً لمواجهة كل البشر أو الرد عليهم أو حتى تفنيد حججهم، وعندما يغلق على نفسه يشعر بالضيق من ذلك مع حواره الذاتي وأنه مفترض أن يكون شديداً في المواجهة، ثم يقرر أخيراً، أن العبرة بالمحصلات النهائية، فالماراثوان لا يزال طويلاً.

●●●

(٤٤)

وفقاً لمرويات تراثية فإنه في القرن الثاني قبل الميلاد، أمر ملك برجموم في آسيا الصغرى، أتالوس الثاني (١٣٨ - ١٣٣ ق.م)، رجاله بالعثور على «جنة على الأرض» ليتخذها عاصمة له، وبعد جهد جهيد عادوا إليه بهذا المكان الذي سوف يدعى «أنطاليا» والتي كانت تسمى في البداية «أتاليا» ثم سميت «أداليا» فـ «أنطاليا».

هذه المدينة بالتحديد من سائر مدن الكرة الأرضية ظلت تشغل قلب سليمان النوراني الذي يرى أنها «عاد» التي لم يخلق مثلها في البلاد، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وكان يردد دائما لأتباعه:

«من يدرك السر العظيم لهذا المدينة لن يعيش في سواها».

على جدران البهو الرئيسي في مقر الزعيم علقت خارطة قديمة، وهي بحجم كبير بارتفاع الحائط حتى أنها تحجب النوافذ، إلا على يمينها فقط حيث تشغل الجانب الأيسر من الحائط الشرقي من البهو.

تصور هذه الخارطة ميناء ومدينة أنطاليا وساحل كيمير المجاور لها، وفقاً لتصور البحار التركي القديم المعروف بالريس

بيري، في كتابه الذي يحمل اسم «كتاب البحرية» والذي ألفه بحدود سنة ١٥٢٥م وقدمه هدية للسلطان العثماني، وهو كتاب في أساسه أطلس ملاحي بحري، لكنه أهميته أكبر من ذلك كما شرح سليمان النوراني لزائره جونسون، الذي وصل بصحبة مايكل جاكسون:

«تم تضئيل هذا الجهد العظيم لمستر بيري، وحشره في خانة الكتب البحرية ذات النظرة السمجة للجغرافية، لكن هذا الكتاب له بعد أعمق من ذلك».

انتبه جاكسون وركّز بشدة لسماع باقي إفادة النوراني:

«صحيح أن الرجل قدم في كتابه ما يشبه الأطلس الملاحي، وشرح وصوّر التيارات البحرية والشعب والمراسي والخلجان والمرافئ ومنابع المياه العذبة، أيضا المواقع المحصنة والقلاع لضرورات تتعلق بعالم كانت الحرب هاجسه الأول.. ولكن ثمة أسرار أعظم من ذلك»

لا يعرف جاكسون ولا جونسون هل كان الرجل يخترع أكاذيب أم هو صادق، فخياله يبدو واسعاً ولم يكونا يدركان أنه كان صادقاً خاصة. ولاحقا تأكد جونسون من المعلومات الأخيرة التي قدمها سليمان وجاء فيها:

«مؤخرا عرفوا كم كان هذا الرجل عبقرياً، فخرائطه كانت دقيقة جداً، لقد قام إريك فون دانكين مؤلف رواية (عربات الآلهة) بمقارنة الصور الأرض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء للأرض، بالخرائط التي رسمها هذا القائد البحري العثماني قبل أربعة قرون، ليكتشف حجم التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري».

قال النوراني وهو ينظر لعيني جاكسون بدقة، فهو يعرف أثر ما يقوله عليه:

«إنه السحر الغامض لحقائق لا يعرفها كل إنسان.. لم يكن الرجل عبقرياً فحسب، هناك أمور أخرى يجب ألا تقال».

ثم يترك الموضوع غامضاً ومفتوحاً.

●●●

(٤٥)

فكرة هالم عن أينشتاين إلى حد كبير، لم تكن صحيحة في بعض جوانبها إن لم يكن كلها، فهو يعرف نظريات العالم الفيزيائي ويحللها بطريقة محترمة ويمكن أن يناقش فيها كذلك في أعرق الجامعات مستعيناً بخبرة كافية، غير أن ذلك لا يعني أنه يفهم كل شيء عن أينشتاين، وقبل سنين كان قد قرر أن يؤلف كتاباً حول أثر المجتمع في حياة أينشتاين على تجربته كعالم فيزيائي، وكان موضوعاً فيه بعض الصعوبة له، لأنه يتطلب جوانب أخرى غير الإلمام بمجرد الفيزياء، واستعان بمراجع لا بأس بها جمع منها كماً هائلاً من المعلومات خاصة بعد الإفراج عن الأوراق السرية لأينشتاين، ومع بدء التحليل والكتابة وجد أن النتائج بدأت تتضارب وأن هناك أمور كثيرة يحتاجها فهمها لوقت أطول وربما للتخصص في علوم أخرى كعلم الاجتماع الجديد والنفس البشرية وغيرها.

وقرر أخيراً أن يطوي الملف، مكتفياً بذخيرة من المعلومات يوظفها في محاضرات عابرة كنوع من تلطيف الأجواء وخلق المتعة في المزج بين التجربة الشخصية لحياة الإنسان وإبداعه أو نتاجه العلمي الخلاق.

يمكن القول إن النتيجة أو الفائدة الوحيدة التي تمخضت عن ذلك العمل المضني الذي استمر لعامين من البحث والتفكيك، أنه قاد

لاحقاً بعد ست سنوات إلى اكتشاف خليل المكي في جغرافية أخرى غير أمريكا، وحيث ظل هالم يعتقد أن العقل البشري خارج نطاق الغرب ليس بإمكانه أن يبدع أو يقدم قفزات هائلة في المشروع الكوني والإضافات الإبداعية. ولولا أنه فهم أينشتاين من خلال موضوعه الاجتماعي لما التفت لشخصية هذا الشاب الذي استطاع أن يستله من بين العشرات ممن كانوا يندسون وراء المدرجات السلمية في القاعة الكبيرة لطلبة العلوم بجامعة الخرطوم.

عندما وصل هالم الخرطوم لأول مرة، كانت الشوارع تفيض بالدماء في ذلك اليوم، حرائق في كل مكان، يبدو أن أمراً جللاً يحدث، أخذوه في سيارة مغلقة، مصفحة، وأوصلوه إلى فندق هيلتون، حيث أطل من غرفته على النهر أمامه، ومحيطه الهادئ، رغم أنك في عاصمة مفترض أنها تصنع الضجيج.

لم يحفل بما يحدث، وعلم لاحقاً أن شباب جامعيين كانوا يتظاهرون في يوم وصوله احتجاجاً على مقتل زميل لهم من قبل السلطات الأمنية التي اقتحمت مبنى الجامعة الكبيرة في البلاد وقتلته بسبب تصريحاته المناوئة للنظام وحديثه اللاذع في أركان النقاش الطلابية، وكشفه لصور الفساد والفوضى في البلاد، حروبها المدمرة والمشحونة بالغضب المكتوم ونزعات المتسلطين في كل مكان تقريباً.

لم يكن لهالم فكرة كبيرة قبلها عن السودان، وبدأ يصنعها مع الوقت دون أن يبتعد عن الهدف الأساسي الذي جاء لأجله، كأستاذ للفيزياء بالجامعة وهو غطاء لمهمة أخرى لا يعرفها الكثيرون وإن كانوا يتحدثون همساً، أن له هدف ما، لا أحد يعلمه وأن مسألة العلاقات السيئة أو المقطوعة بين واشنطن والخرطوم هي التباس لا يمكن فهمه بسهولة، فعالم السياسة أكثر تعقيداً من الفيزياء.

وبدأ هالم عمله في الجامعة، وكانت تحركاته في المدينة محدودة نوعاً ما لإيمانه بأن حقيقة الزمان أكبر من المكان، وأن الكون الحقيقي ينطوي داخل الكائن البشري، وهي موضوعات طالما تجادل فيها مع تلميذه الموهوب بعد نهاية إحدى المحاضرات وهما يقفان تحت الأشجار، فالشجرة هي المكان المناسب في الجامعة ليكون المرء سعيداً تحتها ويتفتح ذهنه بالمعاني المستترة ويرى حجب الغيب، كما قال خليل ذات مرة.

ظل هالم يقدم محاضراته في خلاصات الفيزياء الحديثة، وهو يفعل ذلك مقابل أجر يقدر بخمسة آلاف دولار أمريكي، يقبضها في نهاية الشهر أو قبله بأسبوع، دون تأخير، في حين تتأخر رواتب الأساتذة الآخرين المحليين من أبناء المدينة، والمنطق البسيط لذلك، أن هالم ليس مادياً فحسب، يقيس كل خطوة

بالمال، إنما لأن العروض تتكالب عليه من جامعات أخرى، وبمبالغ أكثر إغراء، ولو تأخر الراتب فالنتيجة ستكون جلية تماماً. غير أن هذا المنطق كان ينقصه أمر مجهول لإدارة الجامعة، أن هالم سوف يبقى إلى مدة غير محددة حتى لو تأخر راتبه كثيراً، بل حتى لو أنه انتظر لعدة شهور بلا أجر، وأن راتبه في حقيقته يأتي من جهة غير محددة خارج الجامعة والإدارة تعلم ذلك.

عادة هالم أنه قليل الكلام، كتوم جداً وشخصيته غامضة بل غير مفهومة لأغلب الأساتذة بالجامعة، سواء في قسم الفيزياء أو الأقسام الأخرى. فعندما يجلسون في الكافتيريا الجامعية المخصصة للموظفين، ليتناولوا وجبة الغداء تحت أشجار النيم والسيسبان الظليلة وهم يعيدون قصص الصباح، وتندرات المحاضرات، وضعف الطلبة في هذه الأيام وإصابتهم بالشلل الدماغي؛ يقوم هالم بتناسي كل ما حوله من ذلك العالم المشوش، ليسرح بعيداً في عوالمه الخاصة بالتحديد في موضوع طالبه غريب الأطوار الذي يرى فيه صورة مصغرة لأينشتاين جديد يمكن أن يبهر العالم.

لم يكن هالم يبني تصوراته على مجرد الحدس أو تخمين كاذب، بل على تشابهات كثيرة وجدها، تكاد تجعل هذا الشاب صورة مثيلة لذلك العالم الذي لا أحد تقريباً يجهله.. بحيث أن

التماثل لا يقتصر على الذكاء والخلاقية الإبداعية بل يتجاوز ذلك إلى مسائل تتعلق بالسلوك الاجتماعي، متشابهة بين الاثنين، يكتشفها هالم تدريجياً ما يشعره بالدهشة والانزعاج مرات، أنه أمام حالة مستعصية على الفهم، تضيء جانباً آخر من الوجود الإنساني وألغاز الكون العسيرة سلفاً، بحيث تحولت قصة ذلك الشاب إلى أحجية فيزيائية في حد ذاتها لا تقل تعقيداً عن المسائل الكونية الكبيرة وأسرار الثقوب السوداء، حتى لو أن في ذلك بعض من المبالغة، غير أن هالم يؤمن بأن الكائن البشري أعقد بكثير من الكون، بل هو حقيقة الكون وتلخيصه.

●●●

(٤٦)

راكان الذي سوف يكمل الخمسين مع عمره بعد أقل من شهر، كان ينتظر هذه المناسبة لكي يدشن حياته الجديدة، لاسيما بعد قراره الذي توصل إليه أثناء اجتماعه مع جونسون.. فقد كان قد أدرك المطلوب منه تماماً، وبقي عليه أن يشرع في التنفيذ وألا يؤخر الوقت.

قبل أن يتناول العشاء كان قد تلقى مكالمة من جونسون يذكّره:

«يجب أن نبدأ.. لا مجال للتأخير»

في الشقة التي كان يعيش فيها بمفرده والمكونة من ثلاث غرف وحمام واحد ومطبخ صغير، وبالكونة تطل على حديقة عامة، بدأت أحداث حياته الجديدة، عندما أخرج الورقة الصغيرة التي سجل عليها رقم السيد لويد في لاس فيجاس، والذي زوده به جونسون، وأجرى الاتصال به.

«من يتحدث معي؟»

سمع صوت يسأله على الطرف الآخر.

«أنا راكان..»

«من راكان؟!.. يبدو أنك أخطأت الرقم.. لا أعرف أحداً بهذا الاسم!»

«أنت تعرفني سيدي.. أنا راكان الذي حضرت معك مؤتمرك هذا الصباح.. بدعوة منك شخصياً.. أنا سائق جاكسون»

صمت الرجل على الطرف الآخر قبل أن يقول:

«إذن أنت تطلب السيد لويد.. لطفاً لويد لا يرد على أرقام أناس غير مسجلة عنده»

«لكن الأمر ضروري.. سيد لويد»

«أنا لست لويد.. أنا مساعده.. لو كان لويد يعرفك لعرفت صوته.. يبدو أنك متطفل..»

كاد الرجل أن يغلق الهاتف.. لكن راكان صرخ فيه:

«سيدي الأمر ضروري يتعلق بما أعلنتم عنه اليوم في الصباح»

«تعني استنساخ جاكسون؟»

«نعم بالضبط»

«أغلق الهاتف الآن وسأتصل بك لاحقاً».

أغلق راكان هاتفه وظل في انتظار المكالمة، ومضت نصف ساعة دون أن يتلقى رداً.. الأمر الذي جعله يشعر بالانزعاج، وأن الأمور قد لا تسير على ما يرام، وهذا قطعا سيجعل جونسون يغضب منه.. لذا فكّر أن يخبره بما جرى.. اتصل به في الحال:

«الرجل لا يحمل هاتفه.. وانتظر منه رداً عبر مساعده.. لكن الوقت طال»

كان جونسون قد ابتسم، كما بدا لراكان من الصوت الذي جاءه عبر الهاتف دافئاً، وسمعه يقول له:

«لا تيئس.. بعد ساعة من الآن إذا لم تتلق اتصالاً منهم.. كرر الاتصال مرة أخرى.. وثالثة.. يجب أن يعلموا أنك جاد وأنك ترقب في لقاء السيد لويد في أسرع وقت.. هذه الليلة قبل الغد.. إذا شعر الطرف الآخر بأن ملحاح وجاد فسوف يهتم بك»

●●●

(٤٧)

داوم خليل على مراجعة العيادة النفسية والجلوس مع الطبيب المختص، لسماع نصائحه والحرص على أن يكون إنساناً جديداً كما يتطلب الوضع، فتقرير إدارة الجامعة يفيد أن عبقرية هذا الشاب ينقصها نوع من الإدراك المطلوب الذي ينبغي أن يغرس فيه رويداً، حتى يستطيع أن يبني سلوكَ عَالِم حقيقي، فالعبقرية وحدها والموهبة لا تصلح لكل شيء، إذ لابد من مقومات أخرى يفتقدها خليل وأبسطها عدم ثقته في نفسه وتشظيه الداخلي.

كان من ضمن وصايا الطبيب النفسي أنه كتب لإدارة الجامعة يفيدها :

« ... يتطلب هذا الشاب أن يوضع في تجربة حب عنيف، إن الهيام هو الأمر الوحيد الذي سوف يضعه أمام حقيقة وجوده ككائن وليس ظلاً أو خيالاً كما يتصور.. إنه يعيش على أنه إله صغير.. لكن لم نسمع عن آلهة متشظية وقلقه بهذا الشكل المدمر.. إنه سوف يدمر نفسه وقد يفقد حياته لأي سبب ليس له قيمة ذات يوم...»

استوحي الطبيب ذلك من قصة أينشتاين الأصل، بعد أن قرأ التقارير التي زوده بها البروفيسور هالم، عن تلك العلاقة الملتبسة بين الاثنين.. وهو يخبره:

«أنه بالإمكان من خلال القرائن المتشابهة حل مشكلة هذا الشاب، ومن ثم جعله مفيداً»

«أتعني أن مجرد تشابه شكلاني يمكن أن يجعل المشكلة تحل بطريقة عاشها كائن آخر..»

«ليس كائناً آخر إنه هو..»

«أنت تمزح يا سيد هالم»

«أبداً أنا لا أمزح أنا لدي يقينيات بهذا الخصوص.. والشاب نفسه يشعر بذلك لكنه خجول جداً وهذه آفة»

«مجرد شعوره لا يكفي.. أوضح لي أكثر ماذا تعني، هل لديك قناعة بواحدة من تلك النظريات الجديدة حول التماثل البشري.. إمكانية وجود نسختين من كائن واحد أو أكثر بذات القدرات»

«هذه هي خلاصة فكرتي.. لقد جئت على المفيد.. دعني أكلمك بوضوح، أنني..»

«سيظل الأمر سراً بيننا».

لم يكمل هالم فكرته، غير أن الطبيب النفسي، وهو عالم لا يستهان به في جامعة برينستون يمزج في أبحاثه بين علم النفس الجديد والفيزياء والكونيات عموماً، واسمه بروس، كان قد فهم مقصد البروفيسور الفيزيائي، إنه يفكر في خليل كمختبر تجريبي لأبحاثه، وهذه كارثة، فالشاب لا يدرك ذلك أنه مثل فأر تجارب.

توصل بروس لذلك، غير أنه لا يملك الدليل لأن هالم لم يفصح أو يكمل، وهذا لا يقدم دليلاً كافياً ضده يمكن أن يدان به، ثم أن الأمر الذي لا يمكن فهمه بالنسبة لبروس لماذا سيترك هالم خليل هناك ويعود إلى الخرطوم، لو كان فعلياً يريد ذلك الفأر، وقرر أن لا يواجهه بالمسألة طالما أن صديقه القديم صمت عنها. فقد كانت تجمعهما صداقة قوية قبل سنين طويلة تعرضت لشروخ مع الزمن.

أغلق بروس الملف أمامه، لم يعد مشغولاً إلا بالحيثيات الموضوعية للقضية، العلاج الممكن لهذا الطالب النابغة بغض النظر عن كونه يشبه كائناً آخر أم لا، فهذا ليس من صميم تفكيره خاصة أن هذه الأبحاث التي يتكلم عنها هالم في نظرية التماثل ليست إلا تجريبية لم تثبت أو تنفى بعد، كما أن السيد هالم بتقدير بروس ليس ذلك العبقري الحقيقي لكي يتوصل لنتائج باهرة كما يظن، العلماء في جامعة برينستون يعرفون قدراته جيداً وأنه مزهو بنفسه بعض الأحيان، لدرجة أنه يظن أنه أكثر أهمية من أينشتاين وأن الفيزياء الجديدة هو سيدها، في حين أن نظرياته لا تزال كاسدة لا تجد الانتشار ولا المدلولات القوية لها، وهذا يضعف وضعه، وفي تقدير بروس أن ثمة إشكال نفسي يعاني منه هالم هو الآخر وليس تلميذه فحسب.

(٤٨)

كان ربيع كل عام في شهر أبريل تحديدا مع نهاية أعياد النيروز وبداية فصل الصيف، يشهد أحد الندوات السنوية الكبرى للطائفة النورانية، التي يدعى لها أعضاء بعينهم من جميع الدول، ليس بالضرورة أنهم من الأعضاء الكبار أو قادة الكتائب، فالزعيم كانت تعرض عليه قوائم كثيرة وكان يختار دون أن يشرح الأسباب، وكان يكتفي بالنظر إلى صورة العضو ليقول: هذا.. أو يرفضه بقوله: «هيا غيره».

وفي وسط المدينة التاريخي المعروف باسم كاليتشي، الذي يعرف الآن على أنه المركز السياحي لأنطاليا، يقضي سليمان ساعات آخر الليل في نهاية الأسبوع، متجولاً بين الفنادق والحانات والنوادي والمطاعم والأسواق، دون أن يكشف عن هويته لأحد.

في الواقع ليس ثمة إنسان قادر على تمييز الرجل، فمظهره عادي جداً خاصة أنه يلتزم بهيئة لا تثير المتطفلين، لابساً رداء أزرقاً وقميصاً مورداً. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يلفت إليه الانتباه، هو الكوفية البيضاء المقلمة بالأسود، لكن نسمات الليل الباردة تجعل غطاء الرأس أمراً عادياً. خاصة لرجل يبدو في العقد السادس من عمره.

يقول سليمان لأتباعه المقربين أنه يتتبع في رحلته الليلية آثار القرون الأولى، فثمة إشارات وعلامات في المكان لكنها ليست مرئية لكل إنسان، هو وحده قادر على رؤيتها.

ويستطرد:

«هذه الإشارات تكفي لفهم الكثير من أسرار الماضي، وكذلك المستقبل.. وفي اللحظة المناسبة سوف تعلمون بكل شيء».

لا أحد يجادل أو يشك، أدنى شك في إفادات الزعيم، الذي يفضل أن يكون وحيداً في رحلته هذه وهو يتنقل في أماكن مختلفة من المدينة، أبرزها حديقة شاطئ كونيالتي، والتي تكشف وراءها عن عوالم جبلية مثيرة زرقاء، كأنها امتداد للوحة يرسمها البحر الأبيض المتوسط بمياهه الأكثر زرقة.

لا أحد أيضا يدرك سر تعلق الزعيم بهذه الحديقة تحديداً، لكن بعضاً من أعضاء الطائفة ممن حضروا منتديات الربيع في أنطاليا، يتذكرون كيف أن النوراني كان يتوقف أحياناً عن الحديث في الهواء الطلق، وهو واقف، في حين تكون البقية جالسة على العشب، ليس بعيداً من البوابة ذات البوابة المغطاة بالحجر.

يتوقف ليخاطب المكان، العشب، الأشجار الملتفة في أطراف الجبل، كائنات غير مرئية.. لا أحد بإمكانه أن يتكهن. فالرجل

كانت عيناه تحدقان بعيداً وقريباً في الوقت نفسه، وهو يقول بصوت شبه مسموع، كأنما هو آت من مغارة بعيدة وراء البحر:

«لو أنكم تعرفون السحر الذي يخبئه هذا العشب الأخضر.. هذا الزرع الذي تربى على طين ذرية الأولين الذين جعلوا من هذا المكان ذات يوم جنة الأرض.. لكنهم أفسدوه بطغيانهم.. حتى انتهت دورتهم في الحياة.. الآن وعما قريب سوف ينتهي دورنا».

●●●

(٤٩)

ستمضي أيام وأيام، قبل أن تتعمق علاقة جذب بين بروس وخليل، يشوبها حذر من الطرفين، ثمة حالة من الشد الخفي تجمعها، في حين أن ما يباعدهما أن يعلم هالم بالأمر، فبروس من طرفه لديه فكرة عن هالم من زمن معرفتهما القديمة وخلافهما فيما بعد في مواجهات علمية لاذعة، يمكن القول أن بروس هو الذي انتصر فيها. وخليل كان يدرك أن هالم طالما حذره قبل سفره وكلمه هاتفياً لاحقاً أن علاقته مع الطبيب النفسي هي علاقة طبيب بمريض، وليست عقد قران، ما ينبغي الانتباه له.

في البدء كان خليل يتصور وإن كان يشكك في ذلك بذهنه الوقاد، أن العلماء الكبار هم نسخة مكررة من الأنبياء، لاسيما في الغرب، الحضارة، فهم لابد يتمتعون بحب الخير للإنسانية وأن العطف من سمتهم وهم يعملون لهدف واحد هو خدمة العلم وتطوره، ومع مرور وقت وجيز شعر بالأسى أن ذلك التصور من قبيل الخيال الذي لا ينطبق حتى ولو في الأفلام السينمائية، فالعالم يقوم على الصراع والمصالح التي يتقاتل عليها الجميع بلا كوابح كانوا علماء أم أناس عاديين، وهذا عزز قطعاً نظريته بخصوص كراهية البشر، قبحهم النادر وبلادتهم، وأن ليس من حل، فالحياة سوف تستمر بهذه التفاهات.

من جهة ثانية، فإن إدارة الجامعة تعاملت مع تقرير بروس بشيء من الاستهتار، بل لم ترد عليه، هل لا يؤمنون بالحب ودوره في تغيير العالم، أم أن هالم وراء ذلك؟! ليس لبروس من توضيح، ولم يجهد نفسه ليطلب ذلك، إذ قرر أن يخوض معركة إصلاح خليل نفسياً معه مباشرة دون الحاجة إلى تقارير رسمية لا يعرف مصيرها، فهو يدرك عالم الجامعة المعقد والبيروقراطية التي تسكنها في مؤسسة مفترض أنها تخدم المعرفة والسمو الإنساني، وهي تقود أبحاثاً خطيرة في الشأن الكوني ومستقبل البشرية.

قرر بروس أن العاطفة هي الحل، الشحنة الفائضة التي يجب أن يغزى بها خليل لكي تغسل روحه بشدة وترّجه رجاً مثل ماعون مليء بالقذارات حتى يفيض السيء ويبقى الحسن والنافع، هذا اليقين الذي كان يمقته مع نفسه في بعض تأملاته لأنه كان يرى أن وحي الفكرة جاء من إفادات هالم وتقاريره التي زوده بها في البداية.

لم يقدم هالم حلاً مباشراً غير أنه مهد الطريق لذلك، وهذا يزعج بروس أنه لم يكتشف الحل بنفسه، ورغم الضيق النفسي الذي شعر به لعدد من الأيام إلا أنه شعر بوخز ضمير لا يدرك مصدره، أن عليه أن يمضي في العلاج فما ذنب خليل الذي سيكون ضحية لصراع قديم بينه وهالم أو مدير جامعة متخلف لا يؤمن بالحب. كان بروس يتغير وهو لا يدري!

●●●

القسم السادس

هوامش البدايات

(٥٠)

في طفولته، ربما في سن الثالثة أو الرابعة أولع خليل بأشياء كثيرة لا تشبه الأطفال الذين حوله، ففي حين كان أغلبهم يفضل التسكع في الشوارع والأزقة بالحي أو اللعب بالدمى أو الطين أو مشاهدة التلفزيون، كان يقضي أغلب وقته في الانزواء وحيداً في غرفة قصية من بيتهم، يشخبط على أوراق ودفاتر بالية من مخلفات والده، قد لا يكون لما يرسمه أو يهوس به على الورق من معنى ملموس، لكن تلك المرحلة المبكرة كلما استعادها، قد تكون شكلت بعض من شخصيته، كما يقنع نفسه.

في البداية ظن والده أن ابنه يهوى الرسم وسوف يصبح رساماً في مستقبله، ولأنه ينحدر من عائلة ليس فيها من إنسان له قيمة إبداعية أو موهبة، فقد كانت سعادة والده تتضاءل أمام الفقر المدقع الذي يعيشونه، بأن يصبح ابنه طبيباً وهذا يعني أنه بدلاً من أن يرسم فسوف يقوم بالعمليات الجراحية ويكسب مالاً طائلاً ينقذ به الأسرة من براثن البؤس.

وفي هذا النوع من التفكير لم يكن المكي والد خليل استثناء عن الآباء، وهو يرى ملايين الشباب يهيمون بعد تخرجهم من الجامعات بلا وظائف، حتى الأطباء بعضهم صار متعثراً إلا أن يكون ذكياً ومحظوظاً، معادلة يصعب فك شيفراتها بسهولة.

لم تمض علاقة الطفل مع الرسم كثيراً، كان متقلب الهوى، سرعان ما انتقل لممارسة هوايات أو اهتمامات أخرى، تبدو غريبة لمن حوله، مثلا كان يهوى جمع أوراق الشجر الجافة ورصها في أوراق من تلك الدفاتر البالية، بعد أن يكون قد قام بلصقها ومرات يكلمها دون أن يُعرّف ماذا كان يقول لها بالضبط.

وذات يوم ضبطه والده وهو يسميها بأسماء عائلتهم ويطلق قصاد كل اسم صفة للشخص المعين، أناني، جبان، كئيب، حقود، كلها صفات سلبية كما سمعها الأب وهو يظن أن ابنه ممسوس بالجنون، وإلا فلما يعيش بهذه الأسلوب الذي لا يشابه أقرانه وهو يتهجأ الكلمات بنطقه المتقطع والغريب.

تعقد الوضع مع المكي يوم رأى ابنه يعلق نفسه في حبل ضبطه في اللحظة الأخيرة قبل أن يكون قد مات، ولم يوبخه أو يضربه بل استفسره لماذا يفعل ذلك؟

فجاء رد الطفل إنه يريد أن يعرف إلى أين يذهب الإنسان إذا مات؟

لهذا قام بذلك الفعل، فهو يسمع في كل يوم أن ثمة من مات، ويرى المدفنة قريباً من بيتهم حيث لا يمر وقت وجيز إلا ويدفنون أحداً. يراقب ذلك ليتحرك فيه السؤال المقلق، إذا كنا قد جئنا فلما نسافر أو نغادر ولماذا يحدث ذلك؟ وإلى أين يذهب من يموت؟!.. وكان ما يفكر فيه أكثر أن يرى أمه لو أتيح له أن يمضي إليها، فربما كان تصوره عنها غير سليم، كونها بنظره شريرة.

من محاسن القدر أن خليل طفل يتيم الأم، ولو عاشت أمه لربما صار شرساً جداً أو عكس ذلك، ما لا يمكن التكهن به، وقد ماتت وهي تقذف بابنها البكر في ماعون الحياة، صرخت صرخة عميقة ثم مضت، وبقي خليل مشروخاً من هذا الجانب يسأل عن أمه ما وصفها؟ كيف كانت؟ ولا يجد من دليل عليها سوى ألبوم الصور في درج البترينة الخشبية بصالة البيت.

من نظرات عينيها تبدو لطفلها اليتيم صادمة ومقيتة، ولهذا ففي أوراق الشجر الجاف كان لها موقع، وكانت لها صفة غير محبذة، لحسن الحظ لم يسمعها والده، وقد كان خليل يجمع في الأوراق بين الموتى والأحياء، دون أن يضع فاصلاً بينهم.

أزاح المكي الحبل جانباً وهو يتمزق ألماً لما يراه أمامه، وهو عاجز عن مراقبة الطفل الذي بلغ السادسة، طوال اليوم، فالعادة أن يتركه في المنزل ويذهب لمطاردة الأرزاق، يجمع ما تيسر له من

المال لكي يستمر مع ابنه في الدنيا، وكان العمل صعباً مع ضيق الأحوال وكساد التجارة، كان والده عتالاً في السوق استفاد من متانة بدنه ووظفها في هذه المهنة الشاقة، وهو لا يملك أمام ما يؤمن به من قدر سوى أن يستمر في ما هو عليه دون كلل أو ملل.

توصل الوالد إلى أن الحل الوحيد هو أن يأخذ ابنه إلى الرجل الذي يثق فيه الشيخ بركة وهناك سوف يحصل على الحل، وقاده في العصر إلى الفكي الذي ذاع صيته في البلاد على أنه يعالج المجانين والمرضى النفسيين، وصل ليجد أن المكان مزدحم بالبشر، جاؤوا من الجهات الأربع بالسيارات وراجلين، نساء ورجال وأطفال أمثال خليل، بعضهم يصرخ وآخرون يحبون على الأرض رغم كبر سنهم، وهذا أشعره بأنه في نعمة قصاد ما يرى أمامه من مآسٍ، وتذكر الحكمة القائلة «من يرى مصائب الناس تهون عليه مصيبته».

طال الانتظار، يدخل قوم ويخرج غيرهم، إلى أن حل المساء ووقف الجميع صفوفاً يصلون المغرب خلف الشيخ بركة، ومن ثم صلاة العشاء، دون أن يدرك المكي متى يأتي دوره، خاصة أن الوضع غامض ولا صف واضح وكل شيء عماده الفوضى.

لما تأخر الوقت، وقارب الليل على ربعه الأول، قرر المكي أن يعود وابنه إلى المنزل وأن يجربا حظهما في الأيام المقبلة. وعادا،

في حين كان يراقب خليل ما يجري، دون أن يعلق، وعادته ألا يتكلم، حتى أن البعض يظن أنه أخرس، وفي طريقهما وهما يعبران المقبرة في الدرب الواقع بوسطها تماماً، قال الطفل وهو يرتجف إنه يرى أناساً يتحركون.

شعر الوالد بالفزع حتى لو أنه لم يكن ليرى أي شيء، وتبسمل باسم الله، وهو يمسح على رأس خليل عسى أن يمحو تلك الشياطين أو الأشباح عن ناظريه ولكن دون جدوى، فقد استمر الطفل في الارتجاف الشديد، وصرخ وهو يهرول مسابقاً نفسه في الطريق إلى البيت ليصل قبل والده الذي كان يطارده لاحقاً به.

●●●

(٤٣)

يقولـون إن كل المشـاهد التـي نمـر بهـا في حياتنـا الدنيـا تظـل مسجلة بطريقة دقيقة جداً في أدمغتنا.. حتى لو أننا لم نتذكرها أو لا نتذكرها فإن ذلك لا يعني أنها غير موجودة.. فهي حاضرة وقوية وتبرز في اللحظة المناسبة.. ولهذا فإنني الآن وجسدي يهبط في مطار الخرطوم، تقف روحي متأملة تلك المشاهد القديمة والماثلة أمام هلام روحي من نافذة «بعيدة»، ليس بمقدور أحد من تلك الحشود التي جاءت لأجلي، لكي تودعني أن تراها.

إذا كنت قد قلت «بعيدة» فلكي أقرب لكم الصورة.. فنعم، تلك النافذة موجودة.. في عالم آخر!! لكنه عالم لا يكون فيه معنى لقوانين الفيزياء الأرضية وفكرتنا عن الزمن والمسافات والأبعاد.. فعندما يقول المرء أن الروح تطل من الفردوس أو من السماء، فليس معنى ذلك أن هناك مسافة شاسعة تفصلهما عن مطار الخرطوم.. قد يصعب عليكم تصور ذلك.. لكن ذات يوم أنا متأكد سوف تفهمون كل شيء.

تستطيع روحي.. طالما أن الذاكرة مكانها الروح وليس الجسد.. أن تتذكر ليالي موسكو الباردة، وحواري السودانيين المثقلين بجراح الغربة، وعلى خلاف ذلك الترف والترحيب الحار الذي وجدته في منزل تلك السيدة السودانية والدة «الجرسون

الروسـي»، فمـا أن دخلنـا الصالـة الرئيسـية مـن البيـت الـذي كان عبـارة فيـلا عظيمـة، إلا ووجـدت ميسـون، وهـو اسـم نـادر وسـط السـودانيات، كمـا تبـادر لذهنـي وكمـا علقـت وحدهـا سـاعة أخبرتنـي السـيدة باسـمها وشـرحت لـي أنـه يعنـي ذات الوجـه الأحمـر وأنـه في الأصـل يطلـق علـى الرجـال، فالمعنـى الأكثـر شـيوعاً للكلمـة هـو الغـلام المليـح.

واسـتطردت:

«على أية حال فالأسماء قد تشبهنا وقد لا»

وواصلت:

«هـذا يتعلق بالبشـر.. اسـماؤهم.. لكن هنـاك حـالات يجـب فيهـا أن تشـبه الأسـماء الأشـياء التـي تطلـق عليهـا.. مثـلا اسـم كتـاب.. لا اسـتطيع ان اسـمي كتابـا بغيـر مضمونـه.. لا يمكننـي ان اكتـب عـن روسـيا كتابـا واسـميه باسـم الخرطـوم»

قال صديقي الموسيقار الذي صحبني لزيارة السيدة ميسون:

«هـذا صحيـح.. غيـر أن للموسـيقى أيضـا في التسـميات وقـع الأسـماء وشـاكلتها.. فعندمـا أؤلـف مقطوعـة معينـة واسـميها مثـلا.. أي اسـم كان.. فـلا يعنـي أن هـذا الاسـم هـو هـذه الموسـيقى نفسـها»

قاطعته ميسون:

«هذا دقيق جداً.. كما يمكن لاسم أن يشبه صاحبه أو صاحبته.. كذلك يمكن لمقطوعة أن تشبه نفسها أم لا.. هذا في النهاية يتوقف على المشاعر البشرية.. كل إنسان يحس ما شاء ويشعر كيفما يحس».

جلسنا إلى منتصف الليل وتحدثنا في أشياء كثيرة، ومن ضمنها التوابيت المخيفة، وكانت ميسون هي التي فتحت هذا الموضوع، وكأنها كانت تتعمد أثارتي، دون أن تدرك طبعا.. وأخبرتنا أن جيرانهم تلقوا بالأمس نبأ وفاة أحد ابنائهم في حرب الشيشان، وبدت ممتعضة وهي تلعن الحروب..

وسألتنا عن أحوال الحرب في جنوب السودان، وقالت:

«سمعت أن المئات من الشباب يموتون يومياً هناك ممن يذهبون باسم الجهاد الديني»

كانت قد اكتفت برد صديقي الموسيقار الذي أجاب بإقتضاب:

«نعم يحدث ذلك».

أما أنا فلم أكن أرغب الخوض في مثل هذه الأمور، والسيدة نفسها لم تكن مهتمة كثيراً بغير شؤون روسيا والشيشان وابنها مجدالدين، الذي أخبرتنا أنها رغم وضعها المالي الجيد، إلا أنها

تتركه يعمل في وظائف عديدة ليرى الحياة كما هي عليها لا كما يجب أن تصورها هي له، ولكي يفهم كيف يكسب رزقه بنفسه.

فهمت من ذلك؛ المفارقة التي كان ذهني يفكر فيها، بين هذا البيت الواسع والفخم وشاب يعمل جرسوناً بمطعم يبدو،كما لو أنه يسكن في كوخ، وقد حسبته في البداية يعمل ليوفر مصروفه كما يقوم بذلك الكثير من الطلاب السودانيين في موسكو.. لكن ما لم نفهمه أنا وصديقي طبيعة عمل هذه السيدة بالضبط، وأين زوجها الروسي الذي ربما هو سبب عيشتها المخملية.. ولأنها لم تتطرق لذلك فقد آثرنا ألا نسأل.

●●●

(٥١)

كان البروفيسور بروس يسمع لخليل وهو يروي عن طفولته وصباه، وبالنسبة له كانت تجربة جديدة وممتعة في فهم النفس البشرية، كيف تمت صياغة هذا الشاب معقد النفسية من حيث الأبعاد المختلفة التي تشكّل منها.. وفكرّ أن هالم قد يكون على حق وهو يحاول أن يجرب أبحاثه على كائن بشري من مجتمعات أخرى، فشروط نشأة الإنسان في البلدان الغربية مختلفة تماماً، وهذا يعني بوضوح أن علم النفس يجب أن يضع هذا في الاعتبار.

شغلته هذه الأفكار، حتى توقف فجأة ليحاسب نفسه أنه هو الآخر يريد أن يحوّل هذا الشاب إلى ملهاة بحثية، وهذا لا يجوز وفق أعرافه الخاصة، فهو على أي حال لن يكون مثل هالم لو صدقت التخمينات طبعاً، وهذا ربما كان أحد أسباب الخلاف بينهما كأصدقاء وقتها، قبل أن تتباعد الهوة بينهما.

رغم ما توصل إليه بروس من نتيجة بخصوص اختلاف شروط النشأة في المجتمعات من حيث المتخيلات والخيال وما يمكن أن يراه الإنسان أو يتحرك حوله، إلا أنه كان له يقين أن ثمة أموراً مشتركة بين البشر، نزعات كالعزلة والتمرد والخوف والتعاطف، هي حاجات بشرية واحدة لا يمكن عزلها، حتى لو أن لها أسباب نشوء أو حدوث مختلفة.

وفي هذا الباب فإنه يمكن أن ننسج وجه تشابه بين أينشتاين الحقيقي والصورة، ما بين ألبرت وخليل.

في جلسات ثانية وثالثة، عرف أكثر عن شخصية خليل، كيف أنه أحب العزلة وطورها عدوانياً، لم يكن يميل إلى معاشرة الناس والاختلاط معهم بحيث يرى فيهم أعداء أكثر من أصدقاء، تلك النزعة التي لم يقدر على التحرر منها إلى اليوم.

فما أن وصل السابعة من عمره إلا واستبدل الأشباح والصور التي كان يراها أمامه حقيقة كان أم خيالاً بتخيل أشكال للناس الذين يقفون بجواره أو يجلس معهم، كان يتأمل في وجه الإنسان لدرجة تجعله ينسى أنه موجود فتتحول خارطة ذلك الوجه إلى غرابة لا يمكن توصيفها، إحساس داخلي عجيب وغامض ينتاب الطفل، يحاول معه أن يجرب استنطاق ما وراء ذلك الوجه الذي تحول إلى مدينة أو قارة.

وفي ذلك كان خليل يضع في ذهنه صورة الأطلس الذي اشتراه قبل عدة أشهر من حدوث هذه التخيلات، أو أهدي له في واقع الأمر، وقد أعجب به وهما في المكتبة الصغيرة بوسط المدينة، حيث أمسك خليل بالأطلس الجغرافي وهو يعاند إلا أن يأخذه ولم يكن ثمة مبلغ كاف مع والده، إلا أن تدخل أحد الزبائن من صناع الخير فدفع المبلغ، وهو يكرر أن بعض الآباء يحرمون أبنائهم من

العلم بسبب البخل، وهو الأمر الذي أزعج المكي وكعادته لم يرد على الرجل، قاد ابنه وانطلقا عائدين للبيت بصحبة الأطلس.

سرعان ما مزق خليل الأطلس بعد أن انتهى دوره، أصبح بعدها غير مهتم بالوجوه، ولا التأمل في البشر، أصبح يمقتهم كثيراً يراهم على شكل حيوانات تسير تفتقد للذيول وتلبس قمصان وملابس مزركشة، بدأ مغرماً هذه المرة بالنجوم والكواكب وقبة السماء.

قام بسرقة كتاب وهو في الصف الأول بالمدرسة من مكتب المعلمين، يتحدث عن مجرة درب التبانة، والشمس ومجموعتها من كواكبها والأرض. كان قادراً على القراءة وهو في أول سنة بالمدرسة، في حين كان زملائه يتأتئون في الحروف، وهذا لا يعني أن خليل لم يكن يتأتي هو الآخر، بل كان ضعيف في النطق والكلام؛ فالقراءة شأن آخر تعلق عنده بالتمرير البصري الذي يفهم عبره كل شيء، في ذلك كان ذكياً جداً.

في الليل كان ينام في الحوش، لا يستغرق فيه، إلا بعد أن يكون قد سرح في عالم القبة السماوية وهو يتخيل أشياء معينة يصعب استعادتها الآن.

طبعاً كانت السرقة آفة عانى منها. وذات مرة قبضوا عليه وهو يسرق مجسماً للكرة الأرضية التي تدور حول حلقة ومحور،

ولأن حجم المجسم كبير فقد كان لابد من تخيّر وقت مناسب لإخراجه من مكتب المدير، انتهز فرصة خروجه للحمام، حيث تقع حمامات المعلمين في ركن بعيد من المدرسة، وقام بأخذ المجسم ورميه عبر النافذة المطلة على الشارع، ثم قفز وأخذ غنيمته هارباً بها. لكن تم القبض عليه، ووبخ، وطالبه المدير بإحضار والده، الذي كان قد أطال الاعتذار، دون أن يجد الفرصة أمام مدير ثرثار بأن يشرح له معاناته مع ولده، وسلوكه الغريب.

غفر المدير أخيراً لخليل بوصفه طفل موهوب وله مستقبل.. وهذه صفة إيجابية في ذلك العجوز صاحب الصلعة التي تشبه نصف الكرة التي سرقها الطفل، الذي استمر في تأملها وهو يكتم ضحكة، انفجرت، ومعها ضحك المدير كثيراً معلناً نهاية المحاسبة وبداية عهد جديد، وأخبر المكي أنه سوف يهتم بشأن ابنه.

احتار الأب في سلوك هذا الشخص كيف أنه كان يلقي باللوم والكلام الفارغ والإهانات في البدء ثم تحول إلى الإطراء، ثم لم يطل استغرابه فهناك أناس كثر على هذه الشاكلة يمرون به يومياً في عمله بسوق المدينة. وخرجا وهو يخشى أن تتحول إشارات المدير إلى عكسها مع تحول مزاج العجوز الأصلع، ولا أحد يعلم بالغد على أي حال.

وفى المدير بعهده لبضع أيام ثم نسي كل شيء، وصار يشعل المضايقات بعدها، وعرف الوالد فيما بعد كيف يمارس الضغط على ابنه وأن العجوز طلب منه شيئاً يراه الناس عيباً، حيث أمره بأن يملأ له إبريق الحمام البعيد، وفعلها خليل حيث ذهب إلى الحنفية الواقعة في حديقة المدرسة اليابسة، وعبأ الأبريق وانطلق به إلى الحمامات التي تفوح روائحها غير المحبذة من بعيد، ليجد منظراً لم يتوقعه، رجلاً يتعرى من وسطه ممسكاً بقضيب متين، وسارع لإغلاق باب الحمام، وهو يدوس على رأس الصبي أن يمصّ وإلا خنقه ليموت.

●●●

(٥٢)

لأمر ما لا أقدر على تفسيره، حيث كثير من الأمور لا تخضع للتفسير وإنما للاعتقاد أو تصورات ذهنية قد لانفهم سببها المنطقي.. ارتبطت التوابيت في ذهني بالحروب.. ولهذا كنت أقول لنفسي ونحن نغادر منزل السيدة ميسون، وهي تودعنا بالرحابة نفسها التي استقبلتنا بها، أنني لن أذهب لكي أقاتل لأي حرب كانت.

وهذا لا يعني أنني كنت جباناً أو أن قلبي غير شجاع.. وإنما لأنني فقط أكره تلك الصورة في ذهني.. هذه الصورة التي تراها روحي اليوم في هذا المساء البارد، بصورة مختلفة تماماً.. ولكم أن تتخيلون الأمر.

فثمة فرق أن يكون تابوتك محاطا بالألاف من المحبين وتابوت يأتي وحيداً حوله عدد قليل من الناس، إلى أن يصل مثواه، وهذا يحدث في حالة الحروب.

«فالجنود الذي ماتوا في الشيشان هم ضحايا نزاعات أكبر منهم، تشكلها مصالح الأرستقراطيين الروس الجدد، وبالتالي فإن موت جندي روسي لا يعني أكثر من شيء واحد، أن يحمل على تابوت لأسرته وأن تدفع نفقة شهرية لهذه العائلة المكلومة، وسيمضي الوقت لتنسى الأسرة.. وعلى الحياة أن تندفع للأمام»

كانت ميسون قد أخبرتنا بذلك، وهي تشير إلى منزل العائلة التي فقدت ابنها، من جيرانها، قبل أن نمضي أنا وصديقي الموسيقار يصطحبنا مجدالدين، إلى حيث أقرب شارع رئيسي لكي نعود للفندق الذي نقيم فيه، وحيث ينتظرنا عمل في الصباح الباكر.

قال لي الموسيقار:

«يجب أن نسجل غداً.. الفرقة الروسية جاهزة.. وقد رتبت كل شيء معهم عصراً».

في تلك الساعة ما قبل منتصف الليل بقليل، بدت لي موسكو كما لو أنها جنة أرضية، فردوساً مفقوداً بالنسبة لي، واخيراً قد عثرت عليه، وأخبرت صديقي، إنني أرغب في التمشي قليلاً في حديقة عامة بجوار الفندق، ولن أتاخر عليه، فرد أنه لن ينتظرني وسينام لأن الوقت قد تأخر وهو مرهق. قالها لي مرتين.

ومضيت إلى نهاية الشارع، لا أدري فيما كان يشغلني بالضبط، وأنا أترنم مع نفسي بكلمات الأغنية التي سيحمل ألبومي اسمها التي تحمل اسم «الهوامش والبداية».. إلى أن وصلت ما تصوره الأغنية على أنه مشهد مغيب الشمس وبداية ليل، وأنه بداية جديدة لكنها قاسية.

معها تذكرت صورة الغروب في بلادي هناك، التي جئت منها.. كنت أقارن بين صورة بلدي وصورة المكان هنا، وأسال نفسي عن

سبب الاختلاف.. ما السبب الذي أسكت ربابنا نحن السودانيون؟ ولماذا يتيه أبناؤنا في بقاع الدنيا ولا يجدون نصيراً؟

ظلت هذه الأسئلة تشغلني إلى أن وصلت الفندق وفتحت باب الغرفة، فقد ترك صديقي الباب شبه موارب، وسمعته يناديني.. من وسط عتمة المكان:

«هل وصلت أخيراً، هيا أخلد للراحة، لا تفكر كثيراً، أعرف أنك تذكرت البلد»

وهجدت للنوم.. نوم نسيت معه نفسي وأين أنا، وفي تلك الليلة رأيت حلماً عجيباً ظل يطاردني طوال حياتي.. لكنني لم أقصه، لأي أحد سوى شيخي الصوفي الذي كنت اسميه «حلاجي».. تيمناً بشيخ المتصوفة الكبير الحسين بن منصور الحلاج.. كان ذلك بعد عودتي للخرطوم ونجاح تجربة الألبوم الأول لي.

●●●

(٥٣)

إلـى اليـوم يسـترجع خليـل تلـك اللحظات الهيسـترية مـن طفولته، يـكاد يشـعر بالحنـق علـى ذلـك المديـر الـذي مـات بشـكل بشـع فيمـا بعـد، عندمـا وقـع في بئـر بالحـي نسـي أهلهـا أن يضعـوا الغطـاء ليـلاً، كان قـد أصيـب بالعمـى أو بالأحـرى ضعـف النظـر بعـد أن تقاعـد ولـم يعـد لـه مـن عمـل يقـوم بـه سـوى التمشـي في الحـي والكتابـة علـى الجـدران وأعمـدة الكهربـاء يتذكـر أيـام التدريـس، هنـاك مـن يقـول إنـه أصيـب بالجنـون، ومـن ينفـي ذلـك.

تحـول خليـل لإنسـان شـرس، طفـل لا يلاعـب سـوى نفسـه، ويقهـر الآخريـن، مـرات يحمـل الحصـى ويبـدأ في القصـف بـه بعيـداً نحـو المقابـر فيضـرب ويصيـب مـن النـاس المتجمعـين لدفـن أحـد الموتـى، وبعدهـا اكتشـف المكـي أن ابنـه قـد دسّ في المخـزن القـديم مـن البيـت مجموعـة مـن الجماجـم وعظـام الموتـى كان يكلمهـم، وهـذا أزعجـه جـداً، مـا يعنـي أن الولـد عـاد لطـوره الأول بعـد أن ظـن أنـه تعافـى، وهنـا كان لابـد مـن البحـث بطريقـة جـادة عـن عـلاج.

وإذا لـم يكـن ثمـة ثقـة بالطـب النفسـي وحيـث لا عيـادة واحـدة ولا اهتمـام بذلـك ولا يقـين بـه، فالسـبيل هـم شـيوخ الديـن، وكان الطريـق إلـى بركـة مجـدداً وهـذه المـرة تم الدخـول إليـه، فقـد تضعضعـت سـمعته عـن الأول بعـد أن ظهـر شـيوخ جـدد قادريـن علـى الشـفاء بطـرق جديـدة ويأخـذون أجـوراً أقـل.

كالعادة لم يكن مع المكي المال الكافي، بل لا مال مطلقاً، كان الشيخ قد لمح الصبي من بعيد وأعجب به وقرر في نفسه أمراً ما، وبالتالي كان باقي الحبكة مدركاً فقد أخذ خليل على أن يبقى معه لعدة أيام بغرض العلاج، وتقدم أحد صبية الشيخ من الأولاد الكبار، جرّ خليل مثل كلب أو بقل إلى زريبة مغطاة بالقش، تشبه زرائب البهائم وضعه مقيداً بالسلاسل وهو يصيح بين مجموعة من الصبيان والرجال من كبار السن والعجائز، وكانت ثمة امرأة واحدة قيل إنها رجل مخنث.

وجد الطفل الذي بلغ الثامنة نفسه وسط هذا العالم الغريب، سجن إجباري بعيد عن عوالمه الخاصة في البيت، دفاتر الشخبطة وعظام الموتى والأشجار الجافة وأشياء أخرى يعيد تقليبها في دماغه، وشعر بالإنهاك لينام.

كان المكي قد ذهب مع وعد أن يعود خلال أسبوعين على الأقل ليحصل على نتيجة المعالجة.

ومر أسبوعان عاد المكي ليجد أن ابنه في حالة هلعة، يعاني الهزال، لقد ضعف جداً وفقد كثيراً من وزنه، وأساساً لم يكن الطفل سوى ذلك الضعيف البنية، كان يكلمه وكأنه لا يعرفه.

بكى الأب بكاءً ساخناً، لم تذرف دموعه منذ سنين بهذه الطريقة، وشك في القدر وتصاريفه فهل سيحكم عليه بأن يفقد

ابنه الوحيد وفلذة كبده؟ ما هذه الدنيا التي أخذت ذات يوم زوجته برغم ما فيها من الشر؟! إلا أن المكي كان يحبها.. يعشق جنونها وغضبها الجارف وحتى وهي تجرب أن تضربه بالعصي وتقذفه بالفحم والجمر المتقد وهي تحمله من الموقد المتقد بيدها، كانت مجنونة بحق. امرأة كارثة، مضت ونساها.. واليوم يتذكرها، ويتخيل أن ابنه في طريقه إليها. يتذكر جداً كيف أنه كان يعاني الويلات وهو يقدم على مضاجعتها، معركة شرسة لا تنتهي إلا بالخربشة والعض والجسد الذي يتعرض للندوب والجروح وكأنه خرج من غزوة في غزوات داحس والغبراء، لكنها لم تكن سوى تلك المخلصة له لم يعرف عنها أي كائن أنها تخون زوجها.

كان الجميع تقريباً يعلمون شقاوتها وما تمارسه باتجاه المكي المغلوب على أمره، وأغلبهم كان يفسر الصورة على أنها الحب في أبهى أشكاله وتجلياته.

●●●

القسم السابع

العلم.. الفن.. والرومانسية

(٥٤)

في الهزيع الأخير من الليل يسجل بروس على ملف بجهاز حاسوبه القديم ماركة آبل، عن تلك المعاناة المبكرة لطفل، عن ما يمكن أن يسميه أبوه القدر ارتباطاً بالإيمان والبيئة، الاقتراب من ذلك المتعالي، الله.. وما يمكن على الجانب الآخر أن يسميه بروس بالمعطيات الموضوعية للتشكيل النفسي.

يظن بروس أن العلم بإمكانه أن يتنبأ بخواص الإنسان تماماً من خلال دراسة مفصلة لطفولته، ففيها يختزن سر المستقبل، ورغم أنه قدّم العديد من الأوراق العلمية في هذا الإطار، إلا أنها لم تكن مشبعة بالنسبة له شخصياً، إذ يشعر بأن ثمة فراغات لابد من ملئها.

ومع سيرة خليل كان قد انفتح له إطار جديد، عن قراءة ما وراء المتخيل الإنساني، خواص الذات وعلاقتها بالماورائيات أو ما خلف ستر وحجب الفيزياء والقوانين الملموسة للعالم.

مشكلة بروس البحثية أنه كثير التنقل لا يهدأ له بال، ما أن يبدأ العمل على بحث معين حتى يبارحه إلى آخر حتى لو أنه لم

يكمله، فهو يمارس متعته وحسب، بغض النظر إن كان ذلك العمل قد اكتمل أم لا، وقد يعود له مرة أخرى ويراجعه بعد أن ينفض عنه غبار الأمس وقد يهجره نهائياً فلا يعود من ذكرى له.

مع البحث عن أزمة خليل كما اسماها، كان يخاف أن ينقطع الخيط في أي لحظة وربما لسبب غير متوقع، خاصة إذا عاد هالم من الخرطوم وقرر أي شيء غير متوقع.

هو يعرف هالم جيداً ونواياه التي لا يمكن التكهن بها في أغلب الأوقات. هذا الكائن محدود القدرات الذي استطاع أن ينسج لنفسه زخماً من اللاشيء، فقط بالاجتهاد والمثابرة و«البروباغندا»، إنها تقنيات العالم اليوم، حيث المتخيلات والصور الخارجية تبرق أكثر من حقائق الأشياء.

كان بروس منزعجاً لأمر غامض في ذلك اليوم، هل له ارتباط معين بسيرة خليل؟

ليس لديه أدنى تأكيد، وقبل أن ينهض من على مكتبه ويقابل النافذة في نظرة على المحيط حوله، وقبة السماء الغافلة عن إرسال الضياء في ذلك المساء، كان يرى أمامه مشاهد تبدو كعلامات أمام عينيه، يزيحها ثم تسيطر عليه من جديد، صور كأنها ذات ارتباط بتلك البلدة التي نشأ فيها خليل.

لكي يبدو موضوعياً مع نفسه فقد فكّر بروح العالِم والباحث وبمنطق العلم، أنه حتى الآن لا يوجد ما يدعو للتأمل العميق ولا الاستغراق في أزمة هذا الشاب، هناك أبحاث أهم يجب العمل عليها، مشاريع متراكمة وأكثر أهمية، وقرر أن المضي في هذا الرهق النفسي والنزهة الباردة ليس له من مغزى واضح، إنها الذات أو اللاوعي يفرض علينا أموراً لا نفهم كيف تحصل ولهذا يجب أن نحكّم العقل الواعي هنا وننتفض ضد الاستجابات العابرة.

قرر النوم وهو مشدود الأعصاب تنتابه حالة لم يسبق له أن عبر بها، في المنام رأى أشباحاً شاردة وذكريات غامضة كأنه ذلك الصبي الذي كان هناك، ورأى الشيخ بركة يضربه بقوة على رأسه بعصا وفي كافة أعضاء بدنه.. وهو يصرخ:

«كفى أيها الشيخ.. كفى..»

ولا حياة لمن تنادي.. لا حياة لبركة الذي لا قلب له. كان يظن أن الشيوخ أناس عامرون بالرحمة والمودة، واليوم يكتشف الخديعة. أن نظرته للناس يجب أن تزيد من تحقيره لهم. فهذا الرجل الذي يدعي لباس اليقين ومحبة البشر، يمارس الرذالات. هو لم يكتف بذلك بل يريد أن يجرده من طفولته وبراءته بأن يغرقه باللذة الفاجرة، بأن يجعله يمارس الفاحشة.. لكن الشيخ له مبررات أخرى.

بين اليقظة والمنام يسمع بروس كلمات بركة وهي تأتي على لسان خليل جالساً أمامه في المكتب، ساقاه مفرودتان دون اهتمام. كان قد تحرر قليلاً من الخجل وأصبح قادراً على النظر بعمق في عيون الآخرين، كان بروس يكتشف ذلك التغيير وأن العلاج بات يأتي ثمرته والسبب العشق.. الهيام.. الفتاة الساحرة التي اختارها له، والتي دربها للمهمة ضمن فريق بحثه العلمي.. الأنيقة والجميلة ميليفيا لكنها لم تكن عرجاء كعشيقة أينشتاين أيام دراسته الجامعية، التي ضحى لأجلها وأحبها، رغم أن الأقارب تدخلوا رفضاً وقالوا إنها لا تستحق إنها ليست جميلة، «هناك من هن أجمل يا إلبرت».

حدثه خليل إذن، بصوته الذي بات أكثر جهورية وقوة مشدود بأوتار محكمة، قال:

«يظن بركة أن تماهي جسدين ذكوريين هو انتماء لحقيقة المطلق».

لا يعلق بروس، يسمعه يكمل:

«كان يعرف أنني يمكن استوعب الكثير مما يقول.. أن عقلي وقاد.. كان ذكياً وكان يستغل الناس.. وهذه هي الرذالة. أن توظف عبقريتك في استغلال البشر.. أخبرني عن كيف أن الإنسان هو روح

مطلقة ومجردة.. الذكورة والأنوثة هي مظهر خارجي.. والباطن المخفي والمستتر.. الطاقة الخفية هي الروح التي لا علاقة لها بهذه العوالم البرانية..»

انتبه بروس جيداً، ألقى بنظره بعيداً كأنه قرأ هذا الكلام من قبل أو فكر فيه.. تذويب الحد الفاصل بين الأنثى والذكر.. الانتماء لخصيصة الإنسان الأصل لا تعدده بالتنوع..

أغلق عينيه يسرح في فناء المكتب الصغير، يراقب الأشباح التي تطارده.. والظنون التي يجب أن يتم غسلها ثم أمور كثيرة يجب أن تفهم بدقة.. كما يجب على الشابة ميليفيا أن تستمر في عملها.. وهذا هو المطلوب لكي ينجز حلمه بأن يتوصل إلى نتائج جديدة حول ما يفكر فيه من نظريات تربط النفس بالحب بالعبقرية والطفولة.

●●●

(٥٥)

ذات ليل هرب خليل من زريبة الشيخ بركة، عائداً إلى بيتهم، وجد أباه في الانتظار محملاً بهموم الدنيا وعدم القدرة على تحرير ابنه.

شعر المكي بالفزع أن ابنه قد فعلها، كان خائفاً أن يقوم الشيخ بأي خطوة كارثية تنعكس عليهما الاثنين.

«هؤلاء الناس لا ضمان لهم».

قال لابنه وهو يعانقه ثم يقبضه شديداً إليه، يحس معه بوهج لذكريات من طفولته هو شخصياً. كأن جسدين في جسد:

«أنت أنا.. يا ابني.. كلانا ثمرة العذابات.. والانتظار الطويل.. كلانا أبناء هذا الفقر المدقع والحياة الجارحة».

ضحك خليل كثيراً وهو يسمع والده ينطق بما يشبه الشعر، قفزت بذهنه صوراً مشتتة لا يمكن قبضها، وهو يحاول أن يفهم ما الذي يجري، هل هو واقع أمام والده وهو الذي يتلو هذه العبارات الموجزة والغامضة.. ثم ارتمى على السرير الخشبي.. العنقريب.. ليس فيه من أي ذكرى لشيء سوى الاستجابة لنوم عنيف.. لم يستيقظ منه إلا بعد عشر ساعات.. سافر فيها إلى أي بقعة ممكنة وغير متوقعة ولم يتذكرها فيما بعد.

لـم يناقـش والـده ﭬ قضيـة الشـعر الـذي بـزغ بالأمـس، لأن اليـوم، كانـت كل الأمـور عاديـة، أب يـدرّب ظهـره المنهـك علـى حمـل المزيـد مـن جـوالات القمـح ﭬ السـوق ولا مجـال للتوقـف لأن هـذا يعنـي لا مـال.. لا أكل ولا شـراب.. يعنـي المـوت وحيـث لا أحـد يمكـن أن يقـدم العـون لأحـد.. الحيـاة تضيـق شـظفاً وآفاتهـا لا تنتهـي.. ثـم يعـودان سـوياً ﭬ آخـر النهـار إلـى البيـت، بعـد أن يمـرا علـى سـوق الخضـار يشـتريان بعـض مـن الخضـروات والبصـل، الـذي يحبـه خليـل جـداً، ومنـذ أن وُضِـع ﭬ الزريبـة لـم ينعـم بأكلـه لأن بركـة يكـره ذلـك ويُحرمـه وسـط حيرانـه بزعـم أنـه طعـام الشـياطين، وحيـث لا مجـال لخيـارات ﭬ الأكل إلا ذلـك القـدح الكبيـر الـذي يوضـع أمـام الجميـع ويتهافتـون عليـه مثـل الـكلاب، لا أحـد يفكـر ﭬ محتـواه المهـم هـو قتـل الجـوع وتمزيقـه أرضـاً.

يزيـح خليـل الصـور عنـه، يمسـك ببصلـة يقرصهـا بطـرف أسـنانه يشـعر بفـرح طفولـي، يحـرره مـن أي غمـوض ﭬ العالـم.. يـرى نفسـه خفيفـاً يتقافـز كظـل سـيارة مسـتعجلة ﭬ الطريـق.. ثـم يتوقفـان عنـد بائـع اللحـم يشـتريان كيلـو واحـداً.. وهـذا كثيـر.. يبـدو ذلـك مـن عيـون النـاس، علـى الأقـل هـو كثيـر للمكـي البائـس.

يسـمع الجـزار الضخـم، كلهـم الجـزارون ضخـام، وهـي معضلـة تتطلـب التفسـير لخليـل، يقتـل البحـث فيهـا سـماع صـوت الرجـل يقـول:

«الحمد للّه أن ابنك عاد يا مكي.. أحمده وصلي له، وننتظر الكرامة متى تدعونا لوليمة»

ونادى رجل آخر من داخل الجزارة، كان صوت بعيد بعض الشيء وسط ضجيج الناس والسيارات وعربات الكارو التي تجرها الحمير وسيارات الركشة ذات العجلات الثلاث.. قال على ما يبدو:

«ولدك هذا نعمة من اللّه لا تفرط فيها».

استغرب المكي كيف يكون ولده الكارثة نعمة.. ثم بسمل وغالط الشيطان الذي بدأ يتسرب لداخله، نظر إلى خليل كان في أبهى صوره، جميلاً مثل ملاك، لطيف، وهو يلتهم البصل أمام الجميع بلا مبالاة ولا اهتمام بسوى أن يعيش العالم على أنه صندوق كبير هو موجود بداخله ضمن أغراض أخرى.

في الطريق إلى البيت مرا بالمقبرة كالعادة.. سلم المكي على أهل المقابر كما تتطلب السنة النبوية.

«السلام عليكم يا أهل القبور.. يغفر اللّه لنا ولكم».

كان فم الصبي قد أفرج عن ابتسامة صغيرة مبتسرة لم تكتمل، في حين كانت الشمس الحارة فوق الرؤوس تماماً.. ورياح ساخنة تحمل الأوساخ وترمي بها من ركن لآخر في الشارع، وحيث لا صوت.. ثمة سكون بعدها.

(٥٦)

ميليفيا لم يكن اسمها الحقيقي، فهو الاسم المستعار الذي أختاره لها البروفيسور بروس.. وإن كانت قد وجدت في الاسم جرساً موسيقياً طروباً ومحبباً، وهي تتقاسم مع خليل أحزانه وذكرياته، كان قد انفجر مثل نهر متدفق وبدأ يروي لها كل شيء.. في حين كانت هي تنصحه:

«..الماضي يجب أن يمضي.. علينا أن نركز على الحاضر والمستقبل..»

«لا يمكن لأي شيء في الكون أن يتحرر من الأمس. تاريخ الحياة.. الكون كله منبنٍ على الماضي.. لولاه لما كانت اللحظة..»

يحدثها بروحه الفيزيائية، وتنسيه ذلك بأن تدوس على أصابع يده المبسوطة على الطاولة بقوة.. يشعر بملمسها الرطب شديد الضغط، ويحس ببرودة تسري في جسده.. إحساس لم يعشه من قبل، وهي النقطة التي يتمنى بروس أن يصل لها خليل لأن من شأنها أن تغسله تماما وتعيده إلى التوازن النفسي.

ولكن كيف السبيل إلى قياس معدل الذبذبات المغنطة في طاقته المشتعلة، كيف السبيل إلى ذلك، فهذا يتطلب أن يكون الشاب مدركاً أنه بات مثار بحث علمي. وهذا قد يغضبه. لكن كل شيء يمكن

أن يكون مقنعاً في الوقت المناسب. بأن يتم وصل الأجهزة بالطاولة والمقابس الكهربائية وجلوسه وسط هذه الأسلاك المتناثرة، ليتم كل شيء وفق مقياس علمي دقيق. يفكر بروس بذلك.

كانت ميليفيا تنقل له التجارب التي تعيشها بشكل شبه يومي مع خليل، الذي بات أسيراً لها، وقع في الفخ، أما هي فتعيش فقط دورها التمثيلي لمهمة علمية هي جزءاً منها مثلها مثل قوارير قياس الأحماض القلوية في المعامل.

مرات تشعر بالأسى والاكتئاب أن المهمة الجديدة فيها بعض من الاحتيال الذي يروح ربما ضحيته شخص آخر بخلاف مهام في الماضي كانت مختلفة ولم يكن من متضرر واضح فيها، كانت فضاءاتها عادية، لم تجرب أن تخوض عملاً كهذا، وكان إقناع بروس لها بشكل بسيط:

«الممثلة في أي فيلم ماذا تفعل، أنها تؤدي الدور فحسب».

قالت بسخريتها المستبطنة:

«لو كان لدي موهبة التمثيل مثل إنجيلا جولي لذهبت إلى هوليوود..»

«أنت أبرع منها وأجمل بكثير.. وحالما تنتهين من المهمة سوف تسافرين إلى هناك وتتركين عالم النفس القميء.. أنا واثق من ذلك»

لأنها في صباها أحبت التمثيل وحاولت أن تدخل هذا العالم وجربته في مسرحيات قدمتها في محيط المدرسة، فقد بدأت تعيش قناعة أن تجربتها هذه سوف تفيدها.. وهي قناعة غير مكتملة، باتت معقدة الآن مع الأحاسيس الحقيقية التي بدأ طرف آخر يعيشها وهذا مربك.. فهي تعلم أن التمثيل فيه طرفان يعرف كل منهما أنه يخدع الآخر وهذا لا ينطبق هنا. وهذا مصدر كآبتها.

●●●

(٥٧)

استغرقت في تذكر تلك الأيام، كيف كانت بداياتي العصية، الآن أصبحت عوالم هالم وبروس وميليفيا بعضاً من جنون الماضي والذكريات التي لا أعرف أحياناً، هل كانت حقيقة أم لا؟

كنت لا أزال أحاول أن أكمل ورقتي التي من المفترض أن أشارك بها في المؤتمر، وأقطع تأملاتي بالنظر من النافذة باتجاه فراغ عريض من الأفق يمتد أمامي، وحيث لا يبقى في ذاكرتي سوى بصيص من الأحلام المتهالكة، وطريقي الموحش الذي قطعته في هذا العالم. ما بين رغبتي في أن أكون ذلك العالم الذي يعيد مجد أينشتاين حقاً، أو يكون أحسن منه، وقد صدقت الخدعة التي غرسوها في قلبي، ومرة أقول لا لست أنا.

في النهاية كان طريقي أن أتخصص في ذلك المجال الذي وجدت فيه نفسي. المزج بين عالم الموسيقى والعقل. وفي جامعة برينستون في نيوجيرسي، كان مشواري إلى أن حصلت على الدكتوراة في فلسفة الفن وفي بحث غريب من نوعه بحسب هالم وبروس، كان موضوعه مايكل جاكسون، اخترته لهوى شخصي، وتعلق بفكرة الأسطورة والغرابة، وفي البداية كنت أفكر أيضاً أن الفيزياء والفنون كلها أوجه متداخلة، بما في ذلك الرومانسية التي ابتكرت لها تعريفاً جديداً يقوم على فكرة أنها تلك الحالة التي

يتلاشى فيها الإحساس بالزمن المعقول. وكان ذلك يتطلب بعض من الانتباه لفهمه وقد أثار ضجيجاً بالقاعة في الجامعة. ما الذي يمكن أن يعنيه هذا السوداني بالمعقول؟ فرغم أنني أخذت الجواز الأمريكي منذ سنوات لم يوافقوا على أنني يمكن أن أكون أمريكيا ذات يوم، يرون أن روحي الصوفية الشرقية والعجيبة هي وراء جنوني وغرابة أبحاثي.

حدث هذا في الغرب فما بالك في الشرق، وفي بلداننا حيث يمكن للأشياء أن تكون أكثر تعقيداً بكثير؟!

أتذكر جيداً كيف أنني عكست اتجاه تخصصي بعد تلك الأيام من العلاج النفسي الهائل الذي خضعت له، لقد كنت بالفعل مصاباً بمرض نادر ربما وأنا لا أعلم. يعني لم أكن طبيعياً، أمزج بين عوالم حقيقية وأخرى متخيلة، وعندي إشكال في وعي الزمن، حيث أخلط بين الحلم والخيال والواقع. لكن كل ذلك هل انتهى فعلياً؟ هل أنني تعالجت فعلاً؟!

فإلى اليوم ما زلت أعاني، لا أزال أرى كثيراً من تفاصيل وجودي على أنها خيال، وما زلت لا أفهم من أكون أنا..

أخذت الأوراق جانباً كنت أشعر برغبة في التدخين، ودخنت كثيراً قبل أن أكتشف أنني لم أكتب أي شيء بخصوص الورقة

العلمية، سوى انطباعات وخواطر شخصية، لا أعرف هل سيعملون على فهمها أم لا.

الإشكال الذي سيواجهني. أنني أمام أطروحة قد ينظرون إليها بشيء من الشك العميق ملخصها هو أن مايكل عبد الله ليس سودانياً كما يتصورون، وأن موسيقاه وفنه وشخصيته إذا درست بعمق سوف تكشف عن الثقافة الأثيوبية وبالتحديد تأثره بالطائفة الراستارفارية، إذا صدقوا أم لا، فأنا متقنع.

وسوف أخبرهم، لم يكن مؤمناً البتة، بالطريقة التي كان عليها إيمانهم. كان له عقيدته الأخرى.

سوف يقفون ليقولوا لي في القاعة:

«لا يا دكتور.. هذا غير حقيقي.. أنت خيالي»

وسوف يحاولون كما تعودوا أن يعيدوا لي قصصاً تتعلق ببحوث قديمة قمت بها مثل بحثي حول إيلين أبوبكر، التي أثبت أنها سودانية حتى لو أنها سيرتها كلها التي كتبها صحفي مصري مغمور، تدعي أنها لبنانية. قلت لهم ذات مرة في مؤتمر كبير للموسيقى في بيروت:

«ليس هذا صحيحاً.. إيلين تكذب»

«لكنها لبنانية مائة بالمائة»

«كل ما جاء في السيرة والقصة ملفق»

«ولكن ماذا عن مئات التقارير والمقابلات الصحفية قبل ذلك أثناء حياتها وقبل موتها الغامض؟!»

«كله تمويه.. الفن الحقيقي يقوم على التمويه.. لقد كان مايكل جاكسون أكبر المموهين في تاريخ الفن، وهو الذي زرع فيهم هذه الخديعة».

لم يكن أمامي سوى الرضوخ لهم؛ فلديهم العالم يجب أن يقبل وفق ما تعوده.

أخيراً رفعت الهاتف واتصلت بصديقي القديم.. قائلاً:

«عفواً لن استطع أن أشارك معكم. لدي أسبابي الخاصة»

ولم أمنحه فرصة لكي يكمل أو يرد.

●●●

القسم الثامن
فتنة أن تُغني
(٥٨)

بحكم عملي كصحفي فني، كانت لي علاقة اعتقد أنها وثيقة مع إيلين أبوبكر، فقد استجبت لطلب الناشر الذي اتصل بي هاتفياً وأنا في دبي، ليطلب مني أن أكتب عن حياة الضحية في كتاب سريع العائد. كان يفكر في التكسب من وراء تلك المأساة، يفعلون ذلك كثيراً ساعة تحدث كارثة ويكون على تاجر الورق أن يسترزق من وراءها.

لم أفكر كثيراً من أين حصل الرجل على رقم هاتفي، ولم أسأله. كان شاغلي الوحيد هل استجيب للطلب أم لا. وطلبت منه أن يمهلني أسبوع للتفكير. وفي النهاية وتحت ضغط الرجل كان الاتفاق على يومين، بعد أن أوضح لي أن عقدي جاهز.

أعرف أنهم لا يدفعون وفي الغالب هم يحتالون بشتى السبل، لكنني أعرف أن كتاباً عن حياة إيلين وأسرار نهايتها الغريبة وغير المتوقعة لمحبيها سوف يكون كنزاً من ذهب. كان الناشر أيضاً متأكد من ذلك. والعقد بيننا هو الفيصل.

الواقع أنه لم يخطر ببالي في البداية أن أكتب عنها، خاصة أن أسبوعاً واحداً فقط مضى على رحيلها. والتحقيقات ما زالت جارية.. أي أن الجهات القانونية والشرطة لم تقل إفادتها بعد.. لهذا فإن أي نتائج يمكن أن يتكلم عنها كتاب سوف تكون نوعا من التخمين.

أقنعت الناشر المصري بذلك، وأن أي كتاب عنها لابد أن يكون موضوعياً، هذا هو الشرط الأولي لي لكي أكتب.

وكان الجدل الثاني يتعلق بمدة الانتهاء من العمل.. فالرجل مستعجل جداً.. كان منطقه أن الناس باتت سريعة التأثر وسريعة النسيان أيضاً، وهذا يعني أنه إذا لم يسارع المرء لفعل الأمر في الوقت المناسب فسوف يموت.

اتفقت معه على هذه النقطة.. لكنني طلبت مهلة أسبوعين على الأقل لكي أسافر من دبي إلى بيروت ثم القاهرة وقليلاً ربما إلى باريس، لأن هذه الرحلات ضرورية لجمع بعض الوثائق التي كنت أرى أنها مهمة لكتاب من هذا النوع.. كنت أصنع أفكاري عجولة وأقدمها من طبق من ذهب للناشر على الهاتف مباشرة، دون أن أخاف على سرقتها.. فأنا متأكد أن ما أفعله أو ما يمكن أن أفعله لن يستطيع أي شخص آخر غيري أن يقلده، ليس لمجرد حجم ما عندي من معلومات عن إيلين بل لأنني أثق في قدراتي

كصحفي، منذ أن كتبت ذلك التقرير التاريخي عن إيلين المتعلق بوالدها، والذي علقت عليه مرة في مقابلة تلفزيونية بأنه صادر من شاب معتوه.

لم أسعى يوماً إلى مضايقة إيلين.. أبداً.. ولم أكن أنظر إليها كأنثى يطاردها الرجال كما كانت تخمن أحياناً في فترات مبكرة من عمرها الفني.. وهي المسألة التي تخلصت منها لاحقاً بعد أن وثقت في تجربتها خارج إطار كونها مجرد امرأة جميلة، حيث اكتشفت أن موهبتها الحقيقية وجمالها يتعلق بفنها، بصوتها، وصدقها مع ذاتها وهي تغني.. فكثير من النساء قد يكن باهرات من حيث الشكل لكنهن لا يمتلكن موهبة الغناء.

أنا شخصياً كان لي مساجلات معها في هذا الموضوع بعد أن توثقت المعرفة بيننا لاحقاً. واقتربت مني كثيراً دون أي علاقة بيننا.. أؤكد ذلك.. لأنها عرفت.. وأقول ذلك دون أدنى خجل:

«إنني مثلي».

ردت علي بانزعاج مغلف بسخرية محببة:

«ليت كل الصحفيين المهتمين بالفن مثلك».

قال الناشر إنه سوف يتكفل بكل شيء.. لن يبخل بالمصروفات التي تجعل الكتاب يخرج شهياً.. ضاج بالإثارة والمعلومات الثرية والمتعة في القراءة.. وهمس لي:

«ليس مهما أن تكون كلها صحيحة.. المهم أن تكون مقنعة.. أعرف قدرتك على نسج الأساطير».

كنت في حيرة من أين جاء الرجل بهذه الأفكار عني ومن غزّاه بها.. نعم أنا صحفي معروف.. ولكن كثيراً من الإفادات المتعلقة بي شخصياً لم يكن لكل الناس اطلاع عليها.

كانت «دار القمر الوردي» تصدر كتباً رومانسية.. يكتبها في الغالب رجل تجاوز الستين من عمره يعالج فيها خساراته ومغامراته في الحياة كعاشق قديم لم يتزوج، وكان هذا النوع من الكتب مقنع لجيل الصبية واليافعين والفتيات الباحثين عن تقنيات الحب كيف يمكن أن تجذب فتاة إليك وتسحرها.. ورغم أن الإنترنت وفر الكثير من هذه الأمور، إلا أن هذه السلسلة كانت تبيع بدرجة ملموسة.

إذن الكتاب سوف يصدر عن هذه الدار.. وحتى الآن ليس عندي ما هو كافٍ عن الرجل الذي كلمني وعرفني بأن اسمه جوهر القزاز، وأنه مدير ومالك الدار. وهو الذي حدثني عنها وطبيعة الاهتمامات التي يقومون عليها. وقد علقت له بأنني لن أكتب شيئا رومانسياً. فرد:

«إن يكن هذا صحيحاً فلا اعتقد أن الكتاب ولكي يحقق مبيعات عالية يجب أن يخلو من الرومانسية.. عموماً الإثارة مطلوبة. وعليك أن تتخلى هنا عن الضعف الذي فيك كـ..»

وضحك.. ولم أهتم لما قال.. غير أني عرفت إنه يدرك نقطة ضعفي وسط النساء.

في غضون ثلاثة أيام كنت قد وقعت نسخة العقد، وأرسلتها عبر البريد المستعجل الأمريكي «دي إتش إل».. لم استعن بمحامي أو أي جهة سوى نفسي وقدراتي التي أثق فيها.. لكي اقرأ بنود العقد وأدرك أنه لن يكون مجحفاً لي.. خاصة أنني سوف أقبض مبلغاً مقدماً كنت قد استلمته فعليا فور إرسالي العقد عبر حوالة سريعة أيضاً بنظام «وسترن يونيون».. الأمريكي أيضاً.. فالأمريكيون يحبون السرعة.

المهم بالنسبة لي أن عشرة آلاف دولار أمريكي كانت في جيبي الآن.. وقد أخبرني مدير الدار إن هذا المبلغ لا يشمل مصروفات العمل.. كتذاكر الطيران أو الإقامة بالفنادق أو أي أمور أخرى خاصة.. قالها أيضا مازحاً.. وكنت أعرف مقصده.

بصدق فقد قبلت رغم أن هناك شرطاً مجحفاً بحقي ظهر في اللحظة الأخيرة وتم تضمينه في العقد.. أن الاسم الذي سوف يظهر على غلاف الكتاب ليس أنا.. بل شخص آخر لم يفصح لي عن من هو.. وبرر الناشر ذلك بأنه مهماً، قال لي:

«مهما كانت براعة ما تكتب وعظمته، حتى لو كان مثل الإلياذة أو روايات أحلام مستغانمي فإن الاسم الذي يوضع على الغلاف

يجب أن يكون شخصاً معروفاً.. وإلا سقطت نصف الطريق إلى تحقيق المكاسب»..

أعرف أن هذه إهانة مباشرة لي ولرحلتي مع الكتابة، ولم أكن لاستجيب لهذا الإجحاف لولا أنني فعلا في حاجة إلى المال.. فعملي في مجلة فنية في دبي لم يكن ليحقق لي أكثر من تدبير شؤون الحياة العادية.. الأكل والشراب وبعض من كؤوس العرق.. والدخان صديقي المفضل لاسيما في الليل.. والتمتع مع بعض أصدقائي من رفاق المتعة، خاصة الآسيويين، من الفلبين وكوريا وهذه الدول بالذات.. فقد كنت أخشى العرب لأنهم لا يحفظون سراً.. وأخشى الأوروبيين لأن نصفهم نرجسيين في هذه الأمور.

أكثر من خمس عشرة سنة مضت لي وأنا في المجال الفني.. أطارد أخبار أهل المغنى وحياتهم وأسرارهم وأكتب عنها.. أنشئ الصداقات وأقتلها.. دون أن يكون ذلك النشاط قادراً على تحويلي إلى رجل ميسور الحال.. أعيش حياة لن أصفها بسوى الذليلة.. رغم أنني أظهر في القنوات الفضائية كثيراً بجوار مطربين ومطربات لأتحدث عنهم أو أسألهم أو أجري حوارات معهم، وكان كل من يراني يعتقد أنني من الأثرياء وأن الظهور في التلفزيون يكسب الإنسان مالاً كثيراً، بينما حقيقة الأمر أنهم لا يدفعون مبالغ محترمة.. إن كنت ستقبض مائة دولار على حلقتين تزيد

الواحدة عن ساعة فهذا جيد.. وربما لن يحدث، لأن المشاوير التي ستقطعها جيئة وذهاباً وأنت تبحث عن حقك سوف تكون مكلفة أكثر من المبلغ الذي سوف تحصل عليه.. هذا هو العمل في بلداننا العربية.

ربما كان الجانب الوحيد الممتع في عملي أنني أحصل مرات لن تقل عن خمس في العام على دعوات مجانية تشمل تذاكر السفر والإقامة والأكل والمشروبات لتغطية مهرجانات وحفلات في بلدان مختلفة، في الغالب هذه هي النقطة المضيئة الوحيدة في عملي وتمسكي بالمجلة الفنية رغم أن صاحبها لا يطاق بالنسبة لي.

●●●

(٥٩)

يعيش سويرس حياة بذخ وجنون، قراءة وعمل دائب وسهرات بالليل والإنجليز لا يقتربون منه.. ولم أفهم ذلك كثيراً.. لم يكن الزمن قد منحني الفرصة الكافية لكي أصل لتصور واضح، فشهرين لا يكفيان. لكن أبوبكر يصر أن سر هذا الرجل العمل لا شيء آخر. هذا سره. وبقية السر مجهول تلك العلاقة التي تجمع بين الرجلين.

وكان يصعب لي أن أوجه أسئلة لأبي بكر. انتظر دائما أن يتحدث عن الأشياء التي يجب أن أفهمها، وإذا لم يتكلم فسأظل صامتة أو أثرثر في أمور أخرى، خاصة ذلك الغموض الذي يملأ صدري ويستقوي على روحي ويجعلني أحس بالأنثى التي بدأت تخرج كالمارد من قمقمه، لتعبيء كل مسامات جسدي القوي والصارخ.

بدأت اكتشف تفاصيل أخرى لهذا البدن الخرصاني بمداعبات كانت بدأت تصل لأسماعي من عمال يعبرون الشوارع في الصباح والظهيرة وهم يتعرقون كثيراً ويُصفِّرون من فوق دراجاتهم الهوائية، التي تحتشد بها المدينة. وبعضهم يختلس النظرات نحو تنورتي السوداء في الغالب وقميصي الأبيض حيث أبدو كطفلة تخرج من مدرستها بضفائرها الطويلة والمرمية للوراء، يختلسون

النظرات وهم يمصون الشفاه كأنهم يحسون بأوجاع فيها، وكنت أتخيل في صورة كل واحد منهم أبوبكر الذي لم أر منه أي عاطفة اتجاهي. عاطفة تعني حباً حقيقياً، أن أشعر بأنني أمام رجل أحبه، يدخل قلبي ولا يخرج منه. كنت أقول لنفسي لماذا لا يريد هذا الدكتور أن يفهمني أم أنه يمارس غروره، أو ربما هي تلك العلة التي تثار حوله.

●●●

(٦٠)

في تلك الأيام البعيدة كنت أسعى لمضايقتها.. ما أن أسمع بمؤتمر صحفي لها أو مناسبة إعلامية ستحضرها إلا وأكون أول الحضور.. كنت أتلمس بداية طريقي في الإعلام في بيروت.. وكانت ظروف الحرب التي بدأت تلملم أشلائها قد جعلتني أرغب في الفن أكثر من السياسة.. فالسياسيون كريهون بالنسبة لي.. أمقتهم ولهذا قصة مرتبطة بأبي.. أما الفن فمجال رحب ومحبوب لي منذ الصغر.. منذ أن كنت أقلب المجلات الفنية واقرأها بشغف.. تثيرني حياة أهل الفن لأنها فيها ألغاز تبحث عن حل، وهو الأمر الذي يجعلني أشعر بأن ثمة تحدي أو لغز يجب أن تصل إلى نهاية له بعقلك.

كنت أقضي ليال طويلة مشغولا بالتفكير عن السبب الذي جعل المطرب المعين ينتحر أو لماذا طلقت هذه، هذا.. أو لماذا تزوج الفنان كذا من صديقه.. قصص غربية وشرقية وكانت إجادتي للغة الفرنسية بطلاقة قد ساعدتني كثيرا على أن أحصل على ما أريد، فكثير من هذه القصص لم يكن متوفراً بالمجلات أو الصحف العربية هذا بالإضافة إلى ما يسمى بالمحظورات في الإعلام العربي.

كانت ظروف الحرب الأهلية قد فرضت على كثير من الفنانين بل أغلبهم، الهجرة إلى القاهرة.. لهذا ولكي تكون صحفياً يجب أن تسافر.. وحدث ذلك معي.. ولكن هذا لم يمنع حضوري لبيروت من فينة لأخرى لاسيما بعد أن انقشعت الأحوال السيئة وترمم الحال، كنت كثير الحضور لأن الوضع الاقتصادي والفني بدأ في الازدهار. وكوني ولد ضمن سبع بنات.

كنت مقيداً وكان واجباً علي أن أكون شهرياً في بيروت لزيارة أمي التي لا تفرح في الحياة إلا برؤيتي.. وبعد أن توفيت بسرطان الدم وأنا في الثانية والعشرين من عمري، قبل عشرين سنة تقريباً.. كانت بيروت قد أصبحت قاتمة لي وكان كل من أخواتي قد اتخذ طريقه في الحياة.. حتى يصعب علي أن أعرف أن تقيم كل منهن الآن.. قد يكون هذا أمر غير مبرر خاصة أنني الأكبر.. وقد لا يكون عندي الحجة أو ما يشفع لي.. لكن هذا حدث معي.. وكن يقلن عني منذ البداية إنني مشغول بأموري الخاصة.

والدي كان قد توفي وأصغر أخواتي عمرها سنتان، حتى أنه يبدو لهن مثل شبح ينتمي لعالم قديم، فنحن في واقعنا المزري فلسطينيون لاجئون أصبح لبنان بلداً لنا بالصدفة. كان والدي يحب أبو عمار.. وكان يثق فيه وقاتل مع كتائبه في سنوات الحرب الأهلية.. والنتيجة أننا فقدناه مبكراً.

مرات أقول لو أنه كان حياً.. لو أنه لم يمت لربما اندملت الكثير من جراحي في العالم، لهذا أنا لا أحب السياسة. حتى علاقتي بموضوع بلدي الرئيسي الذي يشغل العرب على مدى ستين سنة وأكثر.. لم أكن لانتبه له.. لم أزر فلسطين إلا مرة واحدة ومعها هي.. إيلين أبوبكر.

كنا قد وصلنا إلى رام الله بطريقة تبدو مربكة وعسيرة عبر الأردن، في رحلة هدفت لمؤازرة الزعيم المحاصر في بيته، والذي عجز عن المشاركة في القمة العربية وقتها. كان اليوم بالتحديد السبت ٢٦ كانون الثاني، يناير ٢٠٠٢، وبعد أن انتهى أبو عمار من إلقاء خطاب عبر شاشة متلفزة للقادة العرب المجتمعين في بيروت، استقبل الوفد الإعلامي والفني.

كنت أقف وإيلين إلى يساري.. وكانت تلك أول مرة نجتمع سوياً بعد خصام استمر لسنوات.. أعرف أنها طيبة ويمكن أن تصفح عني.. علمت ذلك من زملاء المهنة.. ووجدتها فرصة لكي أتحدث معها بشكل مختلف.. وبوصفي كنت مكلفاً بإلقاء كلمة الوفد فقد عبرت في كلمتي المرتجلة أمام الرئيس عن أننا نحب فلسطين كثيراً لأنها بيت الإسلام والعروبة وأن الفن العربي لا يمكن أن ينهض إذا لم تحل القضية الفلسطينية.

اكتشفت في ذلك اليوم أن لي مهارات في الخطابة.. لم أوظفها بعدها أبداً.. غير أن أهم ما قلته كان في الفقرة الأخيرة من خطبتي عندما تحدثت عن إيلين أبوبكر، بوصفها الفنانة العربية الوحيدة التي امتلكت الشجاعة الكافية لتأتي هنا.

كنا نتحدث عن وفد فني في حين لم يكن هناك سوى إيلين.. لهذا وصفتها بأنها «امرأة بقامة وفد» وهو التعبير الذي أعجبها كثيراً وكان كافياً لتذويب جليد السنوات المريرة في الشد والجذب بيننا، خاصة بعد ذلك اليوم الذي طردتني فيه من قاعة المؤتمر الصحفي. وقد كان تعبير «امرأة بقامة وفد» عنواناً عريضاً في العديد من صحف اليوم التالي.

التقطنا الصور التذكارية مع الزعيم وخلفنا صورة بحجم مترين طولاً في عرض ثلاثة أمتار للمسجد الأقصى، كانت إيلين بجواري أيضاً ولكن هذه المرة عن يميني وإلى يسار عرفات.. الذي كان يرفع أصبع يده اليمنى عالياً كعادته وهو يهتف بصوت منهك:

«القدس لنا.. القدس لنا»..

في المساء أحيت إيلين حفلا حضره الآلاف من سكان الضفة الغربية، جاؤوا رغم المتاريس الإسرائيلية ومضايقات الجنود لهم واعتراضهم على الحضور لهذا الحدث. كان الكثيرون وربما

الغالبيـة قـد وصلـوا لأجـل مشـاهدة إيلـين أبوبكـر وهـي تغنـي، فهـذه فرصـة لـن تتكـرر.. ولـم يسـمح للزعيـم بـأن يكـون موجـوداً فالحصـار علـى مقـره كان مشـدداً.

كنـت اسـتمع لإيلـين وهـي تغنـي واحـدة مـن أشـهر أغانيهـا التـي أعـدت لهـذا اليـوم خصيصـاً والمسـماة «عـرب أحـرار».. وكان ثمـة جمهـور عريـض يحمـل صـوراً لإيلـين وهـي تصافـح أبـو عمـار.. لا أدري متـى حصلـوا عليهـا وطبعوهـا بهـذا الحجـم.. فالوقـت كان ضيقـا.

كنـت غائصـا في الكرسـي الـذي أنـا أجلـس فيـه لا أفعـل شـيئاً سـوى مغالبـة النعـاس الـذي أرهقنـي، فالرحلـة كانـت صعبـة وشـاقة ومضـت أكثـر مـن سـتة وثلاثـين سـاعة ونحـن لـم ننـم. أمـا إيلـين فقـد كانـت نشـطة، كعادتهـا. كانـت تغنـي وكأنهـا اسـتيقظت مـن النـوم للتـو.. تتحـرك بكـل حمـاس تُقبِّـل الأطفـال علـى خدودهـم.. تحتضـن النسـاء.. تبكـي تـارة وتبتسـم تـارة.. وتلهـب الجميـع.. وكانـت كلمتهـا المؤثـرة في بدايـة الحفـل قـد جعلـت الحضـور يصفقـون بقـوة.. لا أتذكـر الآن مـاذا قالـت بالضبـط.. فقـد كانـت كلمـة مقتضبـة جـداً.. لكنهـا مؤثـرة.. أؤكـد ذلـك.. وأؤكـد أن النـاس سـاعة تتعلـق بإنسـان تـرى كل مـا يفعلـه ومـا يقولـه جميـلاً.

كنـت بـين الغفـو واليقظـة.. والهـواء البـارد في شـهر كانـون الثانـي، يلفـح الأشـياء.. يحـرك في النفـوس وسـط هـذا الجـو غموضـاً

غريباً.. ربما كان هذا إحساسي وقتها.. وأنا استعيد اللحظات التي كنا فيها بمكتب أبو عمار.. ولحظة مررنا لنرى غرفة نومه الصغيرة، وبجوار سريره كان قد وضع مصحفاً وأيضاً كانت صورة الأقصى معلقة في الجدران ولكن أصغر عن تلك الأولى. ولفت انتباهي أيضا صورة إيلين أبوبكر وهي تصافح أبوعمار.. كانت ضمن صور صغيرة في لوحة بطول متر تقريباً جمعت مجموعة من الصور الأرشيفية لعرفات.. وهو يوقع أوسلو مع اسحاق رابين.. وهو يبتسم بجوار حسني مبارك وخلفهما طائرة حربية.. مع نيلسون مانديلا.. ومع إيلين أبوبكر وهي تلبس بالطو شتوي أزرق.. وعرفات هو الآخر يرتدي ملابس شتوية بيضاء.. تبدو الصورة كما لو أنها في بلد أوروبي وفي قمة الشتاء، فالجليد كان حولهما في المشهد.

كنت أود لو أنني رأيت صورة لأبي بجوار أبو عمار.. ليس لسبب.. فقط لكي أثبت له أنني أنا من ضحى والدي لأجل فلسطين ولأجله هو شخصياً ولكن دون نتيجة.. لا أعرف عن أي فائدة أتحدث.. فقط كنت متضايقاً رغم تماسكي وأنا أتذكر ذلك النهار في حزيران، يونيو ١٩٨٢ عندما عشنا الوقائع المحزنة المتعلقة بوالدي.

في عشية ذلك اليوم. أي الليلة السابقة.. كانت قوات إسرائيلية قد دخلت مشارف بيروت وطوقت الجهة الغربية من المدينة، بما في ذلك موقع القيادة الفلسطينية، وجرت معارك بلا هوادة.

كنا نسمع صوت الرصاص وهو ينخر الأذنين ويصمها..

وكان صوت أبي يأتي بعيداً.. ربما كنت أتخيله..

لم تمض سوى ساعات إلا وكان رجلان قد جاءا به جريحاً وهو يمسك مكان قلبه.. لم يكن من السهل إنقاذه فالرصاص قد اخترق صدره.

كان يعلم بأنه يموت.. وكان آخر ما قاله أتمنى أن ينجح الزعيم في الوصول إلى السفينة الفرنسية.. تلك التي أخذته ومعاونيه بعيداً عن بيروت.. ذلك المشهد يعود في خاطري، بقوة وأنا لا أفكر بسوى أنني أعيش حياة إنسان تائه.

●●●

(٦١)

تأخر أبوبكر عن زيارتي بالسجن المركزي في أتبرة، وكان قلبي يشعر بشيء من الخوف عن سبب ذلك الغياب، لماذا لا يأتي الرجل ليخرجني من هنا بتوظيف علاقاته مع السادة والرجال الكبار أمثال سويرس، لكن يبدو أنني كنت مخطئة أتخيل أشياء لا وجود لها بسوى ذهني، يبدو أنه ورقة احترقت في مهب الريح، في زمان لا يمكن فيه للإنسان أن يركن لسوى مصالحه.

عشت هواجس كثيرة قبل أن يدخل أحد العساكر السودانيين ممن يسمون بالسجانة، فتح باب الزنزانة. كنت راقدة على الأرض الرطبة ليس لي من لحاف ولا غطاء رغم برودة الطقس في أول الشتاء. كان شهر ديسمبر في تلك الأيام غريباً عني ليس كما عهدته في طفولتي قبل عشر سنوات وأنا ألعب في حواري المدينة التي جئت منها يحملني جدي فوق رأسه ثم على كتفيه وهو يقول لي:

«غني يا عالية.. غني»

وأغني له، أسمع صوتي وأنا صغيرة أحس بجماله الذي ينساب في المزارع الخضراء المحيطة بنا، تحت شمس تبعث دفء الحياة. أسمع جدي يكلم أناس آخرين قبل أن نعود للبيت محملين بالطعام.

كان جدي شحاذاً يمكن لي أن أفهم ذلك الآن وقد استعان بصوتي كي يتكسب رزقه، ومع أنِّ كبرت قليلاً حتى بدأ هو وأبي يوظفاني لمصالحهما الخاصة، كيف أكون مصدراً للأموال أو (الفلوس) كما يردد جدي الذي لا يشبع أبداً.

لم يكن جدي في حاجة للمزيد من المال ولا الطعام الذي نحصل عليه من المارة في الشوارع والأزقة، وكنت رغم صغر سني أرى ذلك عيباً وأنه لابد من ثورة واستفاقة على هذا الوضع المذل. وأنا أفكر لماذا يضع إنسان محترم نفسه في هذا الوضع المزري؟ هل هي الحاجة. أرد على نفسي، لا إنه مرض ويجب التخلص منه. مرض نفسي كسائر الأمراض التي يعمل الدكتور أبوبكر علاجها أو يظن ذلك.

ورث أبي عن جدي أموالاً طائلة فقد وجدوا أنه كان يدخر أو يكتنز المال والمجوهرات وحتى البقوليات في غرفة قصية من البيت أطلقوا عليها المخزن السري لا يدخلها أحد سواه، ولم تفتح إلا بعد موته لكي يتأكد للجميع بخل ذلك الجد، غير أن أبي لم يكن أفضل منه فقد استمر في فعل رذائل جدي وهو يسمح للناس بأن ترصعه بالإهانات ويفخر بذلك، ما دام الثمن صوت شجي ينطلق من حنجرة ابنته اليافعة.

●●●

(٦٢)

ظللت سهراناً إلى الفجر أفكر في لملمة أفكاري بحثا عن البداية، اعتقد أن السطور الأولى من الكتاب هي التي سوف تقنع القارئ إما أن يمسك به أو يرمي به بعيداً.

كنت أتحدث عن كتاب لن يحمل اسمي، لكن كنت أفكر في المال لكي أحل بعض المصاعب التي أواجهها. فالشقة التي أقيم فيها باتت لا تسعني مع أصدقائي في السهرات الليلية.. كما أنني أريد أن أعيش حياتي كما ينبغي، أرغب في ملابس جديدة وعطور فاخرة.. لي شغف خاص مع العطر.. أراه أحد العناصر الجاذبة في شخصية الرجل ساعة يرغب في أن يقدم نفسه للآخرين..

أريد.. وأريد.. استطيع أن أكتب قائمة مطولة بالرغبات والأمنيات.

استطيع أن أكتب عشرات الكتب وفي موضوعات أخرى تدر المبيعات، فليأخذوا هذا.. ليس عندي مشكلة خاصة أنني لم أكن أفكر في مشروع كهذا بداية.

كانت أمامي مجموعة من الألبومات.. لسنوات متباعدة من حياتي.. أفضل أن أحفظ الصور الشخصية على الورق.. لا أثق في التوثيق الإلكتروني، فقد خذلني مرة ساعة ضاعت مني مائتا

صورة على الأقل مرة واحدة عندما تعطل جهازي الكمبيوتر الشخصي لسبب مجهول. ذهبت به من محل لآخر في دبي. دون نتيجة. أخبروني أن «الهاردسك» قد فقد حيويته ويجب إبداله وهذا يعني ضياع الجمل بما حمل. وتأسفت كثيراً وتعلمت بعدها من هذا الدرس.

المهم أن الصور التي أمامي كان فيها العشرات لإيلين أبوبكر في مناسبات متنوعة سواء معي أو مع أناس آخرين.. وبعضها من أرشيف المجلة الفنية التي أعمل فيها.

كانت تصلنا بالبريد المستعجل مع كل حدث جديد أو نشاط لإيلين مجموعة من النشرات الصحفية التي تتضمن صوراً تتعلق بالحدث المعين أو للمطربة مع جمهورها في أحد المسارح بإحدى العواصم.. أو صور تتضمن حواراً صحفياً جاهزا للنشر، من نوعية الصور التي تبدي المفاتن لامرأة جميلة لا تحتاج لذلك أصلاً.. في السنوات الأخيرة كنت أعرف تماماً أن محسن تاريتو وراء كل هذه الحبكات السحرية لترويج أنشطة إيلين.

كان محسن تاريتو قنبلة في عالم الأعمال الفنية، كنت قد وصفته بهذه الصفة تماماً في إحدى مقالاتي بالمجلة، وقلت إنه إذا كان العمل مع إيلين هدية إلهية فإن تاريتو هو الآخر هدية إلهية لا يحظى بها إلا من كان يشبهه، لقد استحقا هو وإيلين بعضهما البعض.

كان كلامي عنه من واقع تجربة واحتكاك مباشر معه، وقد أثار ذلك استفزاز الكثير من زملاء المهنة ومن مدراء الأعمال الآخرين لعدد من الفنانين، فردوا عليّ عبر متعهديهم من الصحفيين في صحف ومجلات عديدة، فقد كانوا يحسدون تاريتو على أنه أصبح نجماً في ظرف وجيز وكونه كسب إيلين التي طالما حلموا جميعاً بالعمل معها، وهم يدركون جيداً أنها رغم طيبتها إلا أنها صعبة المراس، ليست هي ذلك الكائن المداهن الذي يسهل استرضاؤه، هي إنسانة عميقة وتعرف كيف تصوغ تفاصيل عملها بطريقة فريدة وساحرة.

توقفت عند صورة لتاريتو وهو يقدم إيلين في إحدى المؤتمرات الصحفية قبل سنتين تقريباً، كان المكان فندقاً متواضعاً في وسط القاهرة، وكان اختيار هذا الموقع مفاجئة للكل تقريباً، لإعلان تدشين ألبوم إيلين الجديد، الذي أهدته إلى ثوار الربيع العربي، وأطلقت عليه «ثائر»..

كان الفندق قليل الحيلة، موقعاً غريباً لأن العادة أن هذه المناسبات تتم في أماكن راقية، لكن تاريتو كانت له رؤية مختلفة وهو يرد على سؤال الصحفيين:

«المسألة تتعلق بهويتنا وثورتنا.. لكي تفهموا الأمر راجعوا واجهات المبنى من الخارج.. ستجدون أن آثار الدم لم تبارحه، هل

نسيتم أن العشرات سقطوا قريباً من هنا، في تلك الليلة الدامية ساعة زجّ بالرئيس المخلوع إلى السجن»

كان تاريتو إذن يخلق نوعاً من العلاقة بين مضمون الألبوم الجديد الذي يستوحي مناخات الثورة وهذا المكان.. كانت هذه إشارته التي لم يفهمها أحد إلا ساعة صرح بها. لهذا كنت أصر دائماً على أنه مختلف وذكي.. من النادر أن يتم تقليده.. لقد صار علامة مسجلة مرتبطة بإيلين وطريقة تفكيرها واعتزازها بمسيرتها الفنية. والأهم أنه كان متواضعاً لم يتغير أبداً عن ذلك الشاب البسيط في سلوكه وملبسه، منذ أن عرفته، ففي حين كان الآخرون من مدراء الأعمال خاصة المرتبطين بالفنانات الجميلات يمارسون غرورهم كان تاريتو يثبت أنه مختلف وصانع ألاعيب وحيل مبتكرة يتعلم منها منافسيه، دون أن يكون لهم الاعتراف بفضله.

فكرت أن تاريتو سيكون مفتاحي لكتاب جيد ينال الانتشار والتوزيع عن حياة إيلين والأسرار الخفية وراء لغز نهايتها.. اعتقد ولابد أنه يحمل الكثير.. قد لا يقول كل ما عنده، وقد لا تسمح ظروفه النفسية بذلك.. غير أني سأحاول معه ما استطعت سبيلاً.

هذا يلخص لي ما ظللت مشغولاً به أن المدخل لا يتعلق بالجملة الأولى فحسب، بل بهذا الشاب الأسمر تحديداً.. أعرف أنه سيكون في أشد حالات نكده وتعاسته.. خاصة أنه في الشهور الأخيرة تناولته الصحافة بوصفه رجل إيلين الذي لا يفارقها أبداً.

لا أحد متأكد أين وصلت العلاقة بينهما، ولا أي طرف من الاثنين يحكي عن شيء، ذلك السؤال الذي لا يجوز طرحه في المؤتمرات الصحفية أو اللقاءات التلفزيونية.. فلا أحد ممن يستضيفون إيلين يجهل أنها حادة في المواضيع التي تتعلق بحياتها الخاصة، وأنا أكثر من يعرف ذلك. دائما تكرر: «لا تسألوني عن بابا وماما، أنا هنا جئت لأتحدث عن مهنتي وفني». لهذا فإن حياتها الشخصية ظلت مغلفة بالكثير من الأسرار وإذا ما تجرأ أحدهم وكتب عن هذه الأمور، فالغالب أن معلوماته مغلوطة.

كانت إيلين تغضب وفي بعض المرات تصل قضايا من هذا النوع للمحاكم، ومرة أغلقت مجلة تصدر في الكويت لأنها كتبت عن الموضوع الممنوع الذي كان سبباً في خلافاتنا المبكرة.. عن والدها ووصفته باليهودي الذي يظهر في ثوب عربي مسلم. ومنذ أن ظهر تاريتو قلت مسألة اللجوء للقضاء، لأنه توصل إلى خلطة سرية مقنعة لصاحبته، بأن تتجاهل مثل هذه الترهات، فهي لن تخلص أبداً.

نعم تجاهلت إيلين الترهات، بدأت أكثر هدوءاً في الشهور الأخيرة.. أو في الأعوام الأربعة الماضية منذ أن ظهر تاريتو بجوارها كأيقونة لا يمكن فصلها عن حياتها الفنية والخاصة.. الكل يعلم ذلك. غير أن وراء ذلك الهدوء في حياتها ثمة بركان لم

يكن ثمة من يتوقعه، هذه اللحظات المؤثرة والمحزنة، هذا الموت المفاجئ والغريب الذي أزعج الملايين من محبيها في العالم العربي وخارجه.. فبالإضافة إلى أن إيلين رحلت في زهرة شبابها، ربما هي في السابعة والثلاثين ليس أكثر.. وهو أمر شديد الأسف.. فهي كذلك ستترك فراغاً كبيراً في الوسط الفني ومسيرة الطرب.. فمن سيملأ مكانها الشاغر، أو سيكون مادة شبه يومية تقتات عليها وسائل الإعلام.. ومثلما شغلت الدنيا قبل موتها اللغز.. هاهو الانشغال مستمر.. فشاشة التلفزيون أمامي حيث الصوت خفيض، تعرض صوراً متحركة لها وتبدو في مشهد آخر وهي تغني في إحدى حفلات مهرجانات جرش على خشبة المسرح الشمالي.. كانت تلك واحدة من أكبر حفلاتها.

كنت موجوداً هناك.. سبق ذلك اليوم ضجيج إعلامي كبير أن ملك الأردن سوف يحضر الحفل، ولم يحدث ذلك، غير أنه ترك صدى لما يحيط أخبار وحفلات إيلين دائما من شائعات وأساطير يصعب فيها فرز الحقائق عن الخيال والتمنيات.

ضغطت على زر الريموت كنترول.. قناة أخرى تعرض أيضاً ريبورتاج عن حياتها.. ولم تمر ثوان قبل أن أرفع الصوت قليلا لأشاهد رجلاً يجلس بجوار إيلين في حوار تلفزيوني قديم، كان ذلك الرجل هو أنا.. في تلك السهرة الرمضانية التي تمت استضافتي

فيها وتحدثت عن تجربة غنائية ثرة وعن رحلة مفعمة بالتغيير دائما والبحث عن الأفضل والنموذج.

كانت إيلين تسمع لي بصمت قبل أن تقاطعني أحيانا لكي تضيف نقطة معينة، وكنت أتحدث من واقع رحلات عديدة خلال عملي ولقاءات شخصية مباشرة معها.. كان ذلك قبل أن يظهر تاريتو.. وضغطت بقوة على الزر.. أغلقت صوتي.. وأنا أفكر مع نفسي بضيق شديد.. من هذا الذي سيكون أكثر شهرة مني، وأنا في كل الفضائيات.. ليأخذ اسمه مكان اسمي في كتاب موعود؟!

كان الأمر يضايقني جداً ويشتد ضيقاً.. ولم تكن لي من حيلة سوى الرضوخ للقدر.. فقد وقعت العقد الذي يتضمن جزاءات في حال عدم الوفاء به.. وقبل ذلك لابد لي أن أفكر في تدبير أموري قليلاً.. فحياة بلا مال في دبي، هي الجحيم.

●●●

(٦٣)

لأنني سهرت كثيراً.. كنت قد نمت على الأريكة دون أن أغادر الفراش، وأنا أدخل غابة النوم كنت مشغولاً بالتفكير في تاريتو، كيف أصل إليه، لابد أن ألتقي به قبل أن أسافر إلى المدن الثلاثة التي قررتها في ذهني. هذا إذا لم يحدث طارئ.

رويداً ارتخت أعصابي، سرحت بعيداً في أمكنة مجهولة من هذا العالم، كمن يمشي في تضاريس وعرة وسط ثلوج في رام الله في ذلك الصباح البعيد. وطني ومسقط رؤوس الأجداد التي لم تشغل بالي كثيراً ذات يوم، حتى أنني يوم زرتها لم أشعر بحنين اتجاهها، كأنني لا علاقة لي بهذا المكان. ليس بمقدوري أن أفسر ذلك ولست مشغولاً به.

نمت.. واستيقظت على صوت هاتفي النقال يرن.. نسيت أن أرخي زر الرنين كالعادة فقد داهمني الإرهاق.. وضعته عند أذني اليمني، وعيناي مغمضتان.. كان محدثي جوهر القزاز.. كأن صوته يأتي من عالم آخر.

سألني «ماذا فعلت؟» وقال لي إن السيد الذي سيوضع اسمه على الغلاف، ينتظر مني اليوم إن لم يكن غداً.. عنوان الكتاب.. بالنسبة له العنوان أهم شيء.. يريد عنواناً مثيراً ومقلقاً يجذب كل من يقرأه ويشده شداً لشراء الكتاب وقراءته.

كان يضايقني بحكاية هذا الشخص الغامض بالنسبة لي والذي رفض الإفصاح عنه واختصر القول:

«ليس مهماً.. في الوقت المناسب ستعرف.. وهذا ليس مهماً».

اتفقنا على أن أزوده في حدود مساء الغد بمجموعة من العناوين المقترحة لكي يختار صاحبنا منها ما يحبه.. لكنني أوضحت له أن أي عنوان لابد أنه مرتبط بشكل بنيوي بموضوع الكتاب.. يعني أننا لا يمكن أن نكتب عنواناً ما ثم يكون اتجاه الكتاب مغايراً.. وهذا يعني أيضاً أنني لن أبدأ في الكتابة عملياً إلا بعد معرفة العنوان وهذا ليس صحيحاً دائماً.. فبعض العناوين لا تأتي إلا في النهاية، وربما في الوسط أثناء الكتابة، وإذا كانت القصة كلها غير واضحة ولن تكتمل إلا بعد الرحلات المزمعة، فهل سيكون العنوان واضحاً؟

عموما لو ترك الأمر لي بلا تدخل فأنا أعرف كيف أدبر أموري..

كان يسمع لي ولم يهتم بما قلته كثيراً..

المهم أنه فهم ما قلت، وقال لي إنه سيخبر الشخص المعني.. ولدقائق تأكدت أن هذا الناشر بطيء من حيث الاستيعاب، ما يثير الاستغراب عن السبب الذي زجّ به في هذا المجال. ولم اشغل روحي بهذا. فأنا أعرف أن العالم العربي كله يقوم على

هـذه الشـاكلة مـن التغـول والتبضـع بـكل شـيء ودون أفهـام أو وعـي. الجميـع يمـارس حرفـاً وتجـارة دون سـابق خبـرة.

كانـت المكالمـة قـد قلعـت النـوم عنـي، وتركتنـي أهـرع لأخـذ حمامـاً دافئـاً.. قبـل أن أسـرع لارتـداء ملابسـي.. قميـص وردي وجاكيـت أزرق وبانطلـون أزرق.. دون ربطـة عنـق.. حيـث لا أحبذهـا غالبـاً إلا في مناسـبات خاصـة.

في غضـون وقـت وجيـز كنـت قـد اسـتغليت سـيارة أجـرة إلـى المكان الـذي حـدده ذهنـي.. الفنـدق الـذي شـهد الحادثـة.. وطـوال الطريـق كنـت أحـاول أن أتجاهـل أي شـيء سـوى التفكيـر في عنـوان الكتـاب مـاذا سـيكون؟.. غيـر أن الذهـن البشـري يصعـب التحكـم فيـه.

كان سـائق التاكسـي الهنـدي يسـير ببـطء.. والمشـكلة تتعلـق بالطريـق الـذي كان مزدحمـاً مـع تعـدد إشـارات المـرور.. ثـم أننـا مررنـا بحـادث مـروري بـين سـيارة صغيـرة وأخـرى كبيـرة ذات دفـع رباعـي، أغلـق الشـارع لربـع سـاعة إن لـم يكـن أكثـر، فالنـاس هنـا مغرمـون بمشـاهدة الحـوادث رغـم كثرتهـا، كأنهـم أمـام مشـهد سـينمائي.. كان الـدم يتدفـق علـى الإسـفلت وجثـث مرميـة علـى الأرض.. أحصيـت ثـلاث منهـا.

تجمهـر عشـرات البشـر في المكان.. كأننـا في معركـة حربيـة ولسـنا في شـوارع مدينـة.. حـوادث المـرور أمـر فظيـع هنـا وهـي السـبب الـذي

جعلني أخاف قيادة السيارات منذ وقت مبكر في حياتي ما سبب لي فوبيا لم أقدر على التخلص منها إلى اليوم، حتى أنني عندما حاولت التدرب منذ أعوام على القيادة في مدرسة مخصصة لذلك، كنت أفشل في الاختبار كل مرة، هذا سبب لي قناعة بأن أترك الأمر نهائياً.

لكن يبدو أن للقصة جذورها في الماضي، ففي زمن صباي قدت سيارة لعمتي في الضاحية الغربية ببيروت، كنت قد سرقت المفتاح مع أختي نوارة.. وبدأت المهمة جيدة استطعت أن أحرك السيارة وسرنا بها إلى الشاطئ.. كان إنجازاً عظيماً انتهى بمأساة في طريق العودة عندما اصطدمنا بشاحنة كانت تسير أمامنا تدفقت منها خراف مقطوعة الرؤوس.. لا أدري ما الذي حدث حيث صعب علي فجأة أن أتحكم في المكبح.. ولم نجد أنفسنا إلا في المشفى. بعد أن تحولت السيارة إلى عجينة. كان ذلك الحادث إنذاراً مبكراً بأن أبعد عن عالم قيادة السيارات إلى اليوم، خاصة بعد تقريع عمتي.

استرجاع ذهني لعلاقتي المنبتة مع القيادة أو أن أفكر ذات يوم في شراء سيارة، أعادني لمشهد فيديو كليب كانت إيلين قد صورته قبل خمس سنوات على ما اعتقد.. كانت تقود سيارة بسرعة مذهلة جداً.. أظنها تجاوزت مائتي كيلومتراً في الساعة.. وانتهى بها الأمر بأن دخلت المشفى أيضاً بعد أن نجت من موت محقق وبعد أن فقدت الوعي لأسبوع.

كان ذلك في بلدة كيب تاون بجنوب أفريقيا حيث كانت قد صورت عدداً من الأغاني هناك. ولأن الطريق كان جبلياً كثير التعرجات ويرتفع شيئاً فشيئاً عن الأرض فقد لطف الخالق، أن هي عادت إلى الحياة بعد هذا الموت المؤقت.. كانت تحكي عن تلك التجربة كأنها انتقال حقيقي إلى عالم آخر.. ثم عودة من جديد إلى الدنيا..

حدثتني مرة إنها لم تصدق ساعة فتحت عينيها مرة ثانية في المشفى، لتجد أنها في الأرض مجدداً وسط كائنات بشرية، فقد ظنت أنها في مكان غريب آخر من عالم لا يمكن تحديد موقعه.

تم تركيب ذلك الجزء من الحادث بشكله الحقيقي في الفيديو الكليب.. حيث ترتفع السيارة إلى أعلى ثم تهوى في حين تقع إيلين بعيداً على الأرض مضرجة بالدماء.

الذين لم يعرفوا ما جرى سوف يتخيلون أن الأمر مجرد تمثيلية على شاكلة ما يحدث في الأفلام الهندية.. ولهذا بعد عرض الفيديو كليب بفترة وجيزة تمت إضافة عبارة في البداية تفيد بـ «أن المشاهد في هذا الفيديو حقيقية مائة بالمائة».

كانت تلك الإضافة قد تمت باقتراح مني لإيلين التي استجابت فوراً واتصلت بالعديد من الفضائيات بنفسها لتعلمهم بذلك.

في ذلك الوقت لم يكن تاريتو قد أطل.. وكان مدراء الأعمال معها يتغيرون من فترة لأخرى.. «لا أحد يستطيع أن يعمل مع إيلين طويلاً إلا أن يفهمها جيداً».. هذه خلاصة خبرة تاريتو في معجزاته الكلامية المقتضبة عن تجربته معها.

وصلنا إلى الشارع القريب من الفندق.. يبدو البناء العالي التقليدي من بعيد كما لو أنه من الطراز القوطي الكلاسيكي في البناء الذي طالما ارتبط بالعمارة الكنسية لفترات طويلة من التاريخ.. لكن بمعرفتي المعقولة في العمارة وأنا أتأمل المبنى الذي أركز فيه لأول مرة رغم أنني دخلته عدة مرات من قبل.. تخيلت أنه برغم تشكيله المعماري الأوروبي الذي ينتمي لفترة قديمة ما قبل القرون الوسطى إلا أنه يحمل طابعاً عربياً في توظيف شكل الخيام في الواجهات القريبة خاصة في الطوابق التحتية.

لا أعرف السبب الذي جعلني أفكر في شكل الفندق وأقارن بينه وبين صورة في ذهني لمبنى كنسي قديم قرأت عنه في رواية كلاسيكية، حيث تحدث جريمة قتل داخل الكنيسة.. بشكل غير مرتب من التفكير تخليت أن ثمة علاقة بين الاثنين.. رغم أن تلك قصة خيالية وهنا واقع.

في تلك الرواية التي تجري أحداثها في القرن السادس عشر الميلادي، كانت راهبة قد قتلت بطريقة بشعة داخل الكنيسة وأثار ذلك غضباً عاماً في أوروبا وكان البابا أول الغاضبين حيث أصدر بيانا شديد اللهجة..

كانت تلك الراهبة قد تخصصت لجمال صوتها في تلاوة الأناشيد والترنيمات الدينية في أيام الآحاد.. القصة طويلة تنتهي بشكل غير عقلاني بمجرد أن نكتشف أن القاتل كان شبحاً متمرداً على القيم دخل المبنى رغم أن الأبواب كانت موصدة.. قتل الراهبة المغنية وفر.. ولم يترك أي أثر.. لا يسميه الكاتب لنا من يكون ذلك القاتل، ويتركنا في حيرة إلى نهاية الرواية..

حاولت أن أتذكر اسم الرواية بعد أن غادرت التاكسي، ومعالم الفندق تبدو أمامي الآن جلية تذكرني تماماً بما حدث في تلك الليلة داخل كنيسة في تلك القرون البعيدة، في ذلك القرن الذي حدثت فيه التغيرات الكبيرة في التاريخ الأوروبي.. من انشقاق كنسي قاده مارتن لوثر في سنة ١٥١٦م كذلك الحرب بين العلم والدين وتداعيات رسومات دافنشي التي شغلت العالم..

كل هذه الأحداث ليست بذات علاقة بما يحدث الآن.. حاولت أن أتغافلها وأن أمضي إلى داخل البهو الرئيسي من الفندق.. لكني لم أقدر على السيطرة والفصل بين تلك اللحظات السردية ولحظتي الراهنة.. إلا عندما أوقفني رجل شرطة كان يحمل رشاشاً ومن وراءه بدأت مجموعة أخرى من رجال الأمن المدنيين على ما يبدو من طريقتهم في الحركة التي تثير الارتياب.

ما يشبه هذه المشاهد سبق لي أن شاهدته في اليوم الذي قتلت فيه المطربة المعروفة سوزان تميم في سنة ٢٠٠٨م، حيث

ذهبت لرصد الموقف قريباً من شقتها التي لقت فيها حتفها هنا.. كأن التاريخ يعيد نفسه.. سوزان قتلت وقطعت رأسها بالسكين وقيل إن الجثة مثل بها وهو ما نفته شرطة دبي.. والآن يتجدد الأمر في لغز جديد، ومطربة أيضاً. ومن البلد نفسه لبنان.

لم يكن من طريقة لدخول الفندق فالأمن يحاصر المكان تماماً.. سيارات الشرطة تقف هنا وهناك.. وناداني أحد الضباط من بعيد.. كأنه يعرفني.. «يا صحفي..»

وصلت عنده.. سلم علي وأخبرني أنه كثيراً ما شاهدني في التلفزيون أتحدث عن الغناء والمطربين.. وأنه مرة شاهدني أنا وإيلين في برنامج على الهواء مباشرة.

شكرته على الاهتمام وطلبت منه أن يساعدني في أن أرى مسرح الجريمة.. لكنه اعتذر لي بلطف، بأنه لا يمكن أن يقوم بذلك الآن.. يحتاج إلى بعض الوقت.. وأخذ مني رقم هاتفي النقال ووعدني بأنه سيكلمني ساعة يحين الموعد ويسمح للزوار بدخول الفندق.. ولم يقدم لي رقمه وخجلت أن أطلبه لأن الرجل كان لطيفاً معي.

كان علي إذن أن أعود من حيث أتيت.. ولكن إلى أين.. فأنا لم أفعل شيئاً.. ولم أصل لعنوان الكتاب.. لقد نسيت الأمر تمامًا.. وسط انشغالاتي مع تلك الرواية الكلاسيكية التي قرأتها

منذ سنوات طويلة وعاد دماغي لتذكرها اليوم.. رغم أنني نادر القراءة للروايات وفي الغالب أقضى أيام كثيرة لأكمل عملاً.. هذا إذا أعجبني.. كان دافعي لإكمال تلك الرواية يتعلق برغبتي في معرفة من صنع جريمة القتل.. وفي النهاية كان الأمر مخيباً لي.. لا أحد واضح.. لا آدمي.. هناك شياطين وسحرة وأشباح ومصاصي دماء. هؤلاء الروائيون بعضهم معتوهون وخيالهم مفرط لا يمكن تبريره، غير أنهم يخدعون القراء لمواصلة البحث عن نهاية ما.

وأنا أسلك طريقي إلى موقف سيارات الأجرة.. من بعيد رأيته خالياً.. لا سائق سيأتي هنا وهم يعلمون أن الفندق معطل والسائق الهندي الذي أوصلني يبدو أنه شعر بخطورة الوضع في الموقع ففر هارباً قبل أن يتورط في شيء، فقد بدأ متوجساً منذ البداية عندما علم وجهتي.

كان علي لزاماً أن أمشي راجلاً إلى أقرب شارع رئيسي لأحصل على سيارة أجرة، وكانت فرصة لكي أفكر مع نفسي قليلاً.. تحديداً في موضوع العنوان.. لكن خطر في بالي تاريتو مجدداً كيف أصل إليه.. أين ذهب وهو لم يعد يرد على الهاتف منذ يوم الجريمة!! هاتفه لا يمكن الوصول إليه، مغلق دائماً.

حاولت أن أجرب الاتصال عليه الآن، مجدداً.. ولا نتيجة أيضاً.

قبل أن أشير لسيارة أجرة أمامي.. على بعد خطوات رن هاتفي.. كان محدثي مديري في العمل ورئيس تحرير المجلة.. الذي بدا غاضباً، كعادته ساعة اختفي من العمل لأيام.

لكنني لم أغب كثيراً.. هو يعلم ذلك.. ويدرك أنني ساعة أتغيب فهذا يعني أنني سوف أعود بصيد ثمين.. سبق صحفي للغلاف.. فقد كان موعد العدد الجديد قد اقترب.. أعني تشطيب الإخراج الصحفي والتصميمات الداخلية للمجلة.. ولابد أن موضوع إيلين.. جريمة قلتها سيكون هو موضوع الغلاف بلا منازع.. ولابد أنني أنا دون غيري من الزملاء من المفترض أن أكون قد فعلت شيئاً لأجل ذلك.. فهذا سيدي المدير.. رئيس التحرير وصاحب الامتياز الذي لا يفعل سوى توجيه الأوامر، لن يفهم أنني من المفترض أن أفكر أيضاً بخصوص عمل خاص.. كتاب سوف يجلب لي أضعاف راتبه الشهري.. بالإضافة إلى رحلات مجانية لعدة دول وإقامة بفنادق مجاناً.

طلب مني أن أحضر فوراً إلى المجلة.. وأن أترك أي عمل آخر.. فهناك شخص مهم في انتظاري.. الأمر يتعلق بموضوع الغلاف.. اختصر القول هكذا وأغلق الهاتف.

●●●

(٦٤)

ربما تصدق توقعاتي أحياناً.. ولكن قليل جداً في الحياة فأنا أصنف نفسي في خانة الناس غير المحظوظين.. كنت قد دخلت مكتب المجلة في الطابق الخامس من العمارة التجارية ذات الشركات متعددة الجنسيات.

كان هناك شخص ما يتكلم مع مديري في مكتبه، عرفته من خلال صوته رغم أن نشيجاً قوياً كان يلتف بنبرته، إنه محسن تاريتو.. لم أصدق التخمين السريع الذي عبر بذهني وأنا أصعد السلم الثابت.. فقد كان المصعد معطلاً.. أن الشخص الذي ينتظرني هو تاريتو.. ربما أغلق هاتفه لأن هناك من سيتصلون به وسيحاصرونه بالأسئلة ولا أعتقد أن لديه الوقت الكافي ولا الرغبة في مثل هذه الظروف، سيكون شديد الحزن عليها.

استقبلني لا كعهده ساعة يحتضنني بجنون.. وهو يهمس بإذني أحياناً مداعباً.. «لست منهم.. لا تتعشم في».. كان حيوياً وحاضر الذهن.

اليوم يبدو منهاراً رغم ما يحاول أن يبدو عليه من تماسك.. ربما كان هذا انطباع أولي.. لأنه سرعان ما تغير الوضع، فبمجرد أن جلسنا سوياً في غرفة مكتبي الصغير بحجم حمام، كان قد

استعاد جنونه نوعاً ما.. لم يكن قطعاً قد نسي المأساة.. فقط كان قد شعر بما يحرك ذكريات مفرحة في خاطره وهو يعاين الصورة الكبيرة المعلقة ورائي على المكتب بإطار مذهب والتي تبدو فيها إيلين في حفل غنائي بزي وردي شفاف يكاد يكشف تفاصيل جسدها المخبأة.. ذلك العالم المكتنز بالأشواق لكثير من عشاقها الباحثين عن المتع.. كانوا كثيرون كما أعلم. فعشرات المواقع على الإنترنت تحمل صوراً مدبلجة لها وهي عارية، في أوضاع مخلة.. ليست هي قطعاً، حيث يقومون بقطع أسفل صورة امرأة عارية من الإنترنت ثم يقومون بتركيب رأس إيلين ليمارسوا شهواتهم وجنونهم وشبقهم.

لدقائق كان تاريتو منشغلاً بالتركيز مع الصورة من خلال غوصه في عوالم مجهولة داخله.. لا أدري فيما يفكر بالضبط. ولم أتكلم معه.

طلبت قدحين من القهوة التركية، أعرف أنه يعشقها لأن إيلين هي التي علمته ذلك. غير أنها مرتبطة عندهما بظروف خاصة وأوقات محددة.. كما أنها ممنوعة في الليل لأنها تقلق الإنسان وتحرمه التركيز.. هي أكثر ما تظل متعلقة بالجلوس مع الأصدقاء وأناس منتقين بعناية أمثالي، كما قالت لي ذات مرة.

أخيراً كان قد تكلم وهو يرشف القهوة لا كعادته.. سريعاً.. قال لي:

«تبدو هذه الحياة كما لو أنها أحلام.. لا أكاد أصدق ما جرى.. أنت أول شخص أنطق له بهذا الكلام أخبره بأنني حزين.. قد أبدو متماسكاً لكن وضعي الحقيقي أنني منهار جداً.. لا يمكنني أن أحتمل العالم دونها»

لم أعلق.. فقد كان هو محتاج لمن يفضفض معه وهذا الشخص هو أنا كما يبدو.. ربما لو كان في القاهرة أو بيروت لوجود أناس آخرين.. أما هنا في دبي فليس ثمة شخص آخر يعرفه جيداً كما يعرفني.

كنت أراقب حزنه هذه المرة ينسال شديداً في تضاريس وجهه الطفولي وفي تعبيراته التي بدأت تتباعد عني بحيث لم أعد أسمع له أو كان لا يتكلم أساساً. وانفجر في البكاء بقوة.. في حين كان صوت مديري يصرخ في الخارج.. متسائلاً إن كنا قد أنهينا تسجيل معلومات المادة الرئيسية للغلاف.

أسرعت لإغلاق باب المكتب متجاهلاً الرجل، فالوقت ليس مناسباً لمثل هذه الترهات.. يبدو أنه مارس ضغطاً على تاريتو وطلب منه بأن يعطي وصفاً لما حدث ليستفيد منه في ترويج عدد الأسبوع من المجلة.. ويبدو أنه ينتظر ليسمع رداً منه.

أخبرني تاريتو أخيراً:

«أسمع جئت لطلب آمل أن تساعدني فيه..»

انتظرت لأسمع منه.. لم يحدث أن طلب مني شيئاً من قبل.. يبدو أن الأمر متعلق بالراحلة، بإيلين.. مهما يكن سوف أحاول أن ألبي طلبه.. تكلم أسمعه يقول لي:

«سيتصل بك كثيرون في محاولة لاستغلال ما حدث لأي غرض تجاري.. سيحاول منتفعون أن يتكسبوا من ذلك.. علاقتك بإيلين كانت كبيرة ولديك الكثير مما يمكن أن تقوله عنها.. لكن كن حذراً لا تجعلها تغضب في قبرها.. تعرف أنها لم تكن تحب أن يستغل أحد أسمها.. إذا كنت قد التزمت بهذا في حياتها فلا تنقض العهد بعد رحيلها».

كان الأمر مفاجئاً.. لم أتوقع ذلك.. مع المهمة التي حشرت نفسي فيها.. كيف سأرد عليه، يجب علي التريث.. لن أخبره حتماً.. ربما سأغير رأيي.. خطر لي سؤال:

«هل تعني ذلك بشكل دائم أم أنه أمر مؤقت؟»

«مؤقت على الأقل.. ليس دائماً.. على الأقل حتى تستقر الأحوال وتجري التحقيقات بشكل سلس»

«هـل تعتقـد أن أي كتابـة عمـا حـدث سـوف تؤثـر في سـير العدالـة؟»

«لا أعـرف.. ليس بإمكانـي أن أتكهـن.. فقـط أحـاول أن أرضـي إيلـين حتـى لـو لـم تكـن معنـا في هـذه اللحظـة»

خطـر لـي أن أسـأله أيضـا: «هـل يعنـي تحذيـرك هـذا.. أنـك كنـت تشـك فيّ سـلفا؟.. اعتقـد أنـك وجهـت تحذيـراً لـي.. عفـوا لا أقصـد.. أعنـي أنـك ربمـا تكـون غيـر قـادر علـى اختيـار المفـردات المناسـبة في هـذا الظـرف»

نظر نحوي بقوة.. أظنه غضب.. قال لي:

«أنـا أتيـت لـك لـم أذهـب لأي شـخص آخـر لأنـه لا أحـد سـيكون عنـده مـا يفيـد سـواك.. لكن الأهـم أنني جئت عندك لأنني أعـرف أن هنـاك مـن سـيحاول الاتصـال بـك، أنـا متأكـد مـن ذلـك»

طبعـا كنـت قـررت ألا أخبـره بشـيء وأن أتـرك لذاتـي التصـرف فيمـا سـيحدث.. لكنـي سـألته:

«مـاذا لـو أن.. أفتـرض مثـلا أننـي لـم التـزم.. أؤكـد لـك ذلـك.. فقـط افتـرض أن ذلـك حـدث لأي سـبب.. مـاذا إذا سـيحدث؟»

أطرق قليلا.. قبل أن يجيبني:

«ليس عندي إجابة.. أنا أكلم الضمير فيك.. لا شيء آخر.. سأستأذنك.. وقل لمديرك المعتوه هذا ليس عندي ما أرويه بخصوص ما جرى»

خرج تاريتو في حين بقيت في حيرة من أمري.. هل وصله خبر عن الكتاب.. هل أبلغته دار النشر.. ولماذا تبلغه.. هل له صلة بذلك المؤلف المجهول الذي سيوضع اسمه على الغلاف.. لم يكن لي من إجابات على هذه الألغاز.. كنت ما أزال أفكر في عنوان الكتاب.. في حين أن ضميري كان يوخزني بأنني أخون عشرة وصداقة.. نعم إنني أقلق إيلين في عالمها الثاني.. لكن ماذا سأفعل؟

لم أنهض من مكتبي لوداعه، اكتفيت ومن النافذة في المكتب بأن رأيته في الشارع أسفلي، كان يمشي مبتعداً عن البناية واختفى تحت مجموعة من الأشجار لم أعد أراه.. في الوقت الذي كان فيه المدير قد عاد للنباح مجدداً.

«هل جهزت موضوع الغلاف؟ هل...»

يتلاشى صوته ويتقرب...

لم أسمع له، فقد صممت أذنيّ عمداً.. دون أن أقرر ما الذي سوف أفعله بالضبط. سواء بخصوص الكتاب أم بخصوص المجلة.. الغلاف!..

شعرت برغبة في أن أبقي وحدي وهذا يعني أن أخرج من هنا.. وأقنعت مديري.. كاذباً.. لابد من ذلك.. وإلا عاندني.. أن لي مشوار يتعلق بالعمل.. تحديداً في الموضوع الذي يشغل الجميع.. وخرجت..

أخذت سيارة أجرة إلى أحد المجمعات التجارية المحببة لي.. حيث يوجد مقهى على الطراز الأمريكي يقدم وجبات سريعة ومشروبات ساخنة وعصائر.. طلبت قدحاً من القهوة الأمريكية.. لم أضف لها سكراً.. أفضلها كما هي.. أخرجت قلما معي وبدأت في الخربشة على مفكرتي الصغيرة.. وأنا أفكر في أمر معين.. أن حضور تاريتو هذا النهار أغلق أمامي الطريق إلى أي معلومات يمكن أن يقدمها لي للكتاب.. فقد كنت اعتقد أنه سوف يكون دليلي الرئيسي.. وهذا يعني أنني لابد أن أعتمد على ذاتي تماماً.. ولكن قبل ذلك يجب علي أن أقرر بجدية ما الذي ينبغي أن أفعل بخصوص تحذير تاريتو، إن لم يكن رجاءه، بالتزم الصمت.

كنت في وضع مربك فالقرار صعب في مثل هذه الظروف.. مهما يكن فأنا لي ضمير.. لا يمكن أن أنسى المودة.. ولكنني أيضاً لابد أن أحل مشكلاتي.. هل تاريتو سيفعل ذلك؟.. لابد من الوصول لحل.. وقررت مؤقتاً أن أحاول الخروج من هذا الجو قليلاً لربما توصلت لفكرة عقلانية.

اتصلت هاتفيا بصديقي الفلبيني ماركو.. أن نقضي الليل معاً.. رد علي بأنه لا مانع عنده.. سينهي عمله في مكتب السفر والسياحة الذي يعمل عنده وسيأتي فوراً عندي في الشقة.

كان ماركو لطيفاً، حليق شعر الرأس في أغلب الأحيان، تعرفت عليه صدفة ذات مرة وأنا أحجز تذكرة للسفر إلى القاهرة.. رمقني بعينيه.. رمقته.. بدا لي بهي الطلة.. كان عمره قبل سنتين في حدود الثانية والثلاثين.. أعجبني بوجهه الذي فيه لمحة تستهويني يصعب علي أن أفسرها. ومنذ ذلك اليوم ونحن نلتقي على الأقل مرتين في الشهر.. نقضي سهرات ممتعة معاً.

اليوم أنا في أشد الحاجة إليه، وكنت في فارغ الصبر في انتظار حلول المساء.. وقد تغافلت الرد على مجموعة من المكالمات من مديري.. وأخيراً أرسل لي رسالة على الهاتف يسألني ما الجديد؟!

رددت عليه «أنني ما زلت مستمراً في مهمة البحث عن معلومات للتقرير الأسبوعي بالمجلة وفي الغد سيكون كل شيء جاهزاً».. دون أن أتأكد مما كتبت هل سأفي به أم لا.. وهل سأقوم به أم لا؟!

في طريقي إلى البيت كنت قد جهزت أغراض السهرة.. ووصلت لأجد أن ماركو قد سبقني.. كان في انتظاري أمام بوابة

الشقة.. دخلنا سوياً.. كان في أشد الشوق لي.. وبدا لي كأنه مريض.. أخبرني أن عمته قد توفيت قبل يومين في الإعصار الذي ضرب بلادهم.. عمته التي أعرف أنه يكن لها كل المودة لأنها التي ربته كابنها تماماً بعد أن فقد والده وقبلها أمه.

قال لي:

«إنني حزين جداً.. وليس لي من شيء ينسيني ذلك سوى هذه الليلة..»

وأخبرته أن إيلين قد قتلت.. كان يعرفها فقد شاهدها من قبل وسمع أكثر من مرة عنها من عندي..

بسماعه الخبر شعر بمزيد من الحزن، وجعلني أنا الآخر أشعر بحالة مماثلة مع رغبة في الخروج عن هذا العالم وصراعاته باهظة الثمن.

أغلقت الهاتف حتى لا يطاردني مديري مجدداً أو ربما اتصل هذا الناشر الغبي.. ومضى الليل رائعاً كأبهى ما يكون مع ماركو والعرق ولذة الحياة التي يتخللها القرف أحياناً.. ومن ثم نعاس فأحلام كنت أرى فيها نفسي أسير بدراجة نارية في طريق معبد وحولي مساحات خضراء من كل جهة.. ومن بعيد كانت إيلين تكلمني ألا أتجاهل وصية تاريتو.

القسم التاسع

مسودات إيلين

(٦٥)

«عذابات الإنسان في هذه الحياة لا تنتهي.. وكذا بعض موته.. في المرة الأولى يتعذب لأنه حي يتألم مباشرة.. وفي المرة الثانية لأن هناك أحباء وأصدقاء وأهل يتألمون..»

قرأت العبارات صدفة في مدونة على الإنترنت وأنا أتصفح مواقع أتلهى بها، فقد استيقظت مبكراً.. كان ماركو لا يزال نائماً..

المدونة أقامها أحد المعجبين باسم إيلين.. كنت في الواقع أبحث عما كتب عنها في غضون الأيام السابقة.. ماذا قالوا عن رحيلها.. عن حياتها.. واكتشفت أن ما كتب كثير جداً بحيث يصعب متابعته كله..

كان ذلك المدون.. أو تلك المدونة بالأحرى.. سيدة في السبعين من عمرها كما يشير تاريخ ميلادها ووجها المقطب.. لا يبدو عليها أنها يمكن أن تبتسم.. تسمي نفسها «أم فارس».. قالت إنها من مواليد بيروت وأنها كانت جارة لإيلين.. غريب ذلك!.. يمكن لأي حد أن يمارس الإدعاء.

تحكي العجوز عن ذكريات من الطفولة.. طفولة إيلين وليس طفولتها هي.. تقول إنها كانت صبية رائعة، كانت أكثر بهاء وجمالاً.. كان الجميع يحبونها.. كانت جريئة وصادقة مع نفسها.. وتنقل أنها كانت تتمنى في ذلك الزمن لو أن ابنها فارس الذي مات شهيداً قد عاش، إذن لكانت قد اختارت له إيلين عروسة.. السيدة تقول أيضا أنها بكت شديداً على الفقيدة.. مثلما لم تبكي ابنها الذي فقدته في الحرب.

في موقع آخر يكتب أحدهم عن محسن تاريتو وعلاقته بإيلين.. ويصفه بالانتهازي.. «لا اتفق معه.. غير أن تعليقات الناس وتقديراتهم أمور لا يمكن تحقيق إجماع بشأنها ليقل كل ما شاء.. والعاقل من لا يهتم بذلك».

ويمضي هذا الكاتب إلى إتهام تاريتو بأنه وراء مقتل سيدته.. كما كتب.. يقول: «الذين جاؤوا من الحضيض أمثاله لا يصلحون إلا للإجرام.. الحياة بالنسبة لهم بلطجة وكلام فارغ.. هم دنيئون وخسيسون ويفتقدون للذوق والأدب والاحترام.. هؤلاء أولاد كلب ونواياهم سيئة.. من هذا الذي أسمه تاريتو؟ منذ أن دخل في حياة إيلين أبوبكر وكل شيء قد احترق حتى صوتها الجميل.. بل حصدت الخسائر المتلاحقة..».

قطعت القراءة وأغلقت الصفحة.. «طبعا هذا سخف.. ليصف تاريتو بما شاء.. لكن أبداً لم يكن سبباً في أي نوع من الخسائر.. كما أن إيلين لم تخسر أبداً في السنوات الأربعة الماضية منذ أن عمل معها.. بل على العكس كانت قد كسبت الكثير فالرجل كان مكسباً وفخراً لها بشهادتها هي. لكن هم الناس أيضا يتكلمون كما يريدون».

صفحتها على الفيسبوك كانت قد احتشدت بالتعازي وصورها.. والتعبيرات التي تحمل المودة والحب إلى الأبد..

كنت أفتح صفحة.. موقعاً.. انتقل لآخر.. إلى فيديو.. إلى أن كان ماركو قد استيقظ من نومه العميق جداً وأسرع لدخول الحمام.. صوت ضراطه يصل إلى الصالة.. لديه مشاكل مع المعدة منذ سنوات ولم يصل لحل معها.. الغريب أن هذا الصوت يختفي مع اللحظات الحميمة.

انتظرته إلى أن خرج.. دخلنا المطبخ سوياً، أعددنا بيضاً مقلياً وقليل من الجبن وشاي أخضر.. تناولنا وجبة إفطارنا بحدود الحادية عشر صباحاً.. فتحت هاتفي.. كان جوهر القزاز قد اتصل كثيراً منذ ليلة أمس إلى صباح اليوم.. ماذا يريد هذا الرجل مني؟ لقد اتفقنا على المساء.. أن أعلمه بمقترحات العناوين.

كان مديري قد اتصل هو الآخر ولكن صباحاً.. أعرف أنه يستيقظ مبكراً ليصلي الصبح حاضراً في المسجد القريب من بيته، قبل أن يمارس الرياضة جرياً على الأقدام بجوار الشاطئ.. ثم يذهب إلى المكتب في السادسة صباحا لأنه يكره الازدحام الصباحي ما بين دبي والشارقة.. فقد كان يقيم في الشارقة.

غادر ماركو وبقيت مستلقياً بعض الوقت أفكر أن مشكلتي لم تنته بعد.. بدأ اليوم الجديد وبدأت المشاكل.. شعرت برغبة أن أكلم تاريتو.. أطمئنه أنني سأكون مخلصاً لإيلين.. لكن هاتفه لم يكن يرد بعد.. وما أن سحبت أصبعي عن زر الهاتف إلا ورن القزاز وترددت في الرد عليه.

تركت الرنين يستمر قليلاً قبل أن أجيب «آلو».

هذه المرة كان تكلمني أنثى.. لم يكن صوت الناشر.. نظرت إلى الرقم كان مسجلاً باسمه.. إذا لا يوجد خطأ.. عرفتني بأنها تعمل منسقة في دار القمر الوردي وأنها مطالبة بالمتابعة معي في أمر الكتاب لأن جوهر مشغول بأمور كثيرة.. كانت لطيفة معي.. واعتذرت أنها اتصلت بي كثيراً وكان هاتفي مغلقاً ولأنها تحب ألا تتراكم المهام كانت تتصل من مرة لأخرى من ليل أمس إلى اليوم.. إلى أن حصلتني أخيراً.

لـم أجـد سـوى الاعتـذار لهـا بأنـنـي كنـت نائمـاً ولهـذا أغلقـت الهاتـف.. ولـم نقـل شـيئاً مفيـداً بعدهـا.. سـوى أنهـا ذكرتنـي أنهـا سـوف تتصـل مسـاء لأخـذ العناويـن المقترحـة.. أمـا هـذه المكالمـة فهـي فقـط للتعـارف لا غيـر.

قبـل أن تغلـق الخـط قالـت لـي إنهـا تحـب إيلـين وكانـت تسـتمع لأغنيتهـا «مـن غيـر نظـرة» التـي هـي أحـدى سـبع أغـانٍ في ألبومهـا الأخيـر، قبـل دقائـق مـن الحديـث معـي.. وسـألتني عـن رأيـي فيمـا جـرى ومـن يكـون سـبباً فيـه.

قلت لها اختصاراً للوقت ولأنني لم أكن مستعداً للثرثرة:

«كل هذه الإفادات سوف ترد في الكتاب..»

دون أن أكون متأكداً مما سيجري بالضبط.

وانتهت المكالمة مع المنسقة نونة، كما أحبت أن أناديها.

قالت لي:

«مـن فضلـك نونـة.. هـذا لقبـي المحبـب ومديـري يحـب أن يناديـنـي بـه»

رددت عليها:

«أنا أيضاً سوف أكلمك يا نونة»

أسرعت لارتداء ملابسي.. دون تفكير في الخطوة المقبلة.. وبعد أقل من نصف ساعة كنت في المكتب.. كان المدير موجوداً.. الغريب أنه لم يتصل منذ أن فتحت الهاتف.. وعرفت السبب فقد كان في ذلك الصباح مبتهجاً ولم يكترث بي كثيراً.. كانت معه فتاة بشعر طويل أشقر يمازحها بإنجليزية ركيكة.. ألقيت عليهما التحية من بعيد، في حين قابلتني الفتاة بوجهها العريض وأنفها الصغير بابتسامة صغيرة وهي تهز رأسها من أسفل لأعلى كنوع من الترحيب بي ولم أتعرف على جنسيتها.

هي عادته ما أن يجد عشيقة إلا ويهرب عن كل شيء وينسى توجيه الأوامر. لكن إذا كان زائره رجلاً فالويل لي، لأنه سيشرع في إبداء مهاراته في استعراض فنون تعذيب الآخرين بوصفه صاحب العمل ومالك المجلة. ودخلت مكتبي.. لأبدأ في كتابة موضوع الغلاف الذي من المفترض أن يحتل الصفحات الأولى من المجلة.. كنت قد جهزت مسبقاً القهوة التركية وأزحت الستائر قليلا لأسمح لبعض الضوء الخارجي بالدخول للفراغ الداخلي.. كانت خلفية كمبيوتري غامقة زرقاء في وسطها صورة لي أنا وماركو بملابس السباحة في الشاطئ المخصص لأحد الفنادق بالمدينة، التقطت قبل أسبوعين تقريباً.

في ذلك العصر وقبل أن أذهب للشاطئ كنت إيلين قد اتصلت بي من القاهرة لتعلمني أنها ستكون في دبي خلال مدة وجيزة.. ولم أكن أتوقع أن هذه المرة سوف تكون الأخيرة لأنها ستقع في مصيدة الموت الذي يطاردنا جميعاً».. وجدت أن هذه العبارة مناسبة لبداية الموضوع.. التقرير.. الذي قررت أن أكتبه بطريقة بسيطة وسهلة.. ولن أذهب فيه لأي تخمينات أو تزييف للواقع سأكون صادقاً في رواية ما أعرفه عنها وعن حياتها وباختصار لأن صفحات المجلة المخصصة لذلك تظل محدودة.

●●●

(٦٦)

كان موتها حدثاً غير عادي.. لا أحد توقع لها أن تنتهي حياتها بهذا الشكل الغريب والمريب.. يمكننا أن نتحدث عن الإرادة والقدر.. لكن إيلين خارج نطاق ذلك كله.. أيكون مثلا أن ملاكاً جميلاً جاء واختطفها وسافر بها إلى السماء.. ما زلت أتذكر أنني كصحفي عمل لزمن طويل في المجال الفني، أنني تعرفت عليها بعد مسار طويل من المناكفات بيننا.. وكان يتملكني شعور أنها لم تكرهني ذات يوم.. بل كانت تحب عنادي وإحراجي لها فقط كانت تلذذ وراء الأسئلة المحرجة.. لأن اسمها سوف يكون في كل الصحف بعدها بسبب هذا الشغب اللذيذ.

كانت ترى النجاح أمامها منذ فترة مبكرة في حياتها.. فقد ولدت في أسرة ميسورة الحال في بيروت لأم مصرية ولم يكن لها أشقاء.. ورغم أن والدها كان كثير التنقل جراء طبيعة عمله إلا أنه استطاع أن يجعل إيلين دوماً بجواره.. كانت ملكة صغيرة مدللة.. لم يتخلف عنها في أي لحظة.. أو أي طلب. كان قد علمها بأفضل ما يكون.. كانت متفوقة في دراستها بالمدرسة الإنجيلية ودائما ما تحرز أعلى العلامات.. لكن اهتمامها بالموسيقى والغناء جعلها لا ترغب في دراسة الطب أو الهندسة أو أي مجال علمي آخر.. مثلما تمنت والدتها. أما والدها فلم يكن ليتدخل في خياراتها أبداً.

تعلمت في صباها العزف على عدد من الآلات الموسيقية.. وتدربت على الرقص الياباني بواسطة معلم متخصص جاء به والدها.. كان يقدم لها الدروس في المنزل.. وتوجت شغفها مع الغناء وحب الفن بأن درست الموسيقى في المعهد الوطني.. وتخرجت منه وقد صقلت موهبتها ببعد أكاديمي احترافي.. وأبداً لم يكن الطريق سهلاً رغم وضوح طريق النجاح.. فقد مضت سنوات قبل أن تنال الاعتراف بها.

كان موعدها مع الحظ في اليوم الذي تم اختياره فيها للمشاركة في برنامج تلفزيوني محلي لتقدم سهرة مع عدد من المطربين الكبار.. وفي ذلك الليل السعيد غنت لتنال حسد الكبار الذين كانوا بجوارها.. وصفق لها الجمهور داخل الاستديو بحب كبير وطالبوها بالمزيد من الغناء.. في حين كان المطربون الآخرون قد كظموا غيظهم إلا واحدا منهم لم يستطع ذلك حيث انفجر غاضباً وقال إنه جاء هنا ليغني وليس ليسمع ترهات وخرج من الاستوديو.. ولأن التاريخ سريع الدوران وينتصر للصحيح من الأمور، فلم نعد نتذكر ذلك الذي كان يظن نفسه فناناً.. في حين بقيت إيلين حاضرة بكل قوة وشقت مشوارها الفني إلى أبعد من توقعاتها.

●●●

(٦٧)

هـذه الحكايـة ليـس لـي مـن تفاصيلهـا سـوى ترتيـب الأوراق الممزقـة وإعـادة لصقهـا ومـن ثـم البـدء في القـراءة والتدويـن في صفحـات اللابتـوب البيضـاء.. وكان علـي أن أقـوم بهـذا العمـل المضنـي الـذي اسـتغرق منـي عـدة أشـهر، لأن هنـاك وعـد قطعتـه بـأن أفعـل ذلـك.. والوفـاء بالوعـد ديـن خاصـة إذا مـا رحـل صاحبـه عـن الحيـاة.. يمكننـا أن نحنـث بخصـوص الأحيـاء بيننـا، أمـا الموتـى فالأمـر صعـب.. والأمـر الثانـي أن الناشـر كان يلاحقنـي بالاتصـالات الهاتفيـة ورسـائله عبـر صفحتـي بالفيسـبوك، يطلـب منـي الاسـتعجال في إكمـال مهمتـي، كمـا اسـماها.. لـم أقطـع لـه وعـداً بـأن أنهـي العمـل في وقـت محـدد.. لأن ظـروفي لـم تكـن بيـدي فأنـا أعمـل في مهنـة الصحافـة التـي تسـتنزف معظـم وقتـي في الليـل، مـا يحرمنـي مـن العمـل في أشـياء أخـرى قـد تبـدو مـن قبيـل التـرف أو الهوايـة.. ولهـذا فكثيـر مـن مشـاريعي ظلـت معطلـة.. خاصـة أن التكسـب مـن وراء الأعمـال الإبداعيـة والكتابـة في العالـم العربـي مخاطـرة ليـس وراءهـا إلا الخسـارة.. لـن أطيـل عليكـم وسـأترك لكـم قـراءة الحكايـة..

●●●

(٦٨)

الـذي كتـب الأوراق الممزقـة.. ليـس أنـا.. هـو كاتـب مخضـرم ومعـروف سـأعتذر عـن ذكـر اسـمه.. وكان بإمكانـه أن يقـوم بالمهمـة.. لكنـه الآن في المشـفى.. يعانـي مـن شـبه غيـاب عـن الحيـاة بسـبب مـا حـدث في تلـك الليلـة.. بالأحـرى نهايـة الليـل.. قريبـا مـن الفجـر.. فالرصاصـة التـي اخترقـت صـدره مـن المسـدس كاتم الصـوت.. عطلـت قلبـه لنصـف سـاعة.. كان بإمكانـه أن يكـون في عـداد الموتـى لـولا لطـف اللّه بـه.. فقـد تم انقـاذه بعمليـة إنعـاش سـريع في غرفتـه بالفنـدق ومـن ثـم أخـذ إلـى المستشـفى في دبـي.. حيـث أجريـت لـه عملية جراحية مستعجلة تمّ على إثرها استخراج الرصاصة والتأكد مـن فاعليـة القلـب وظـل ليومـين تحـت رعايـة مركـزة إلـى أن قـرر الطبيـب أنـه سـوف يسـتمر في الحيـاة على الأقـل لشـهر.. هـو متأكـد مـن ذلـك.. لكـن أن يسـتعيد وعيـه فذلـك سـوف يسـتغرق وقتـاً ليـس بالقصيـر.. الطبيـب لـم يحـدد بالضبـط.. لكنـه قـال إن الرصاصـة التـي صـادت القلـب خلقـت ارتجـاج في خلايـا الدمـاغ.. كان ذلـك غيـر مفهـوم فالمفتـرض أن الـرأس يتأثـر مـن رصاصـة تصيبـه لا مـن أخـرى في الصـدر.. لـم نفهـم ولـم يكـن الطبيـب مسـتعداً للإجابـة علـى أسـئلة، أسـاسـاً لـم يكـن الوقـت مناسـب لهـا.. فقـد قـال انصرفـوا لكـي تغمـروه بصالـح الدعـاء.. لـن ينفعـه شـيء الآن سـوى دعـاؤكـم..

●●●

(٦٩)

قبل أن يأتي الفجر يكون قد ارتمى بجوارها بعد أن شربا سوياً كأسين، ثلاثة فأربع من الويسكي، قبل أن تبدأ في رضاعة قضيبه وهي تعدد له فوائد ماء الحياة عند الرجل.. تسميه عصيرها المفضل وأن طعمه يماثل تماماً ما أكله صاحبه قبل ساعة أو ساعتين.. كانت تحرص على أن تطعمه العنب أو قطعا من التوت، ثم تنتظر تلك اللحظات التي كان تاريتو الريفي يراها مقرفة، غير أنه اعتاد عليها، صار ينتظرها كل ليلة بفارغ الصبر ويتوقع معها كالمعتاد محاضرة كاملة عن هذا العصير المدهش كما تسميه هي مع إغراقها في السكر.

أخبرته بالمثل الفرنسي: «الفتاة تنسى طعم حليب الأم لكنها لا تنسى طعم حليب الرجل».. أول مرة يسمع بهذا القول.. بإمكانه التشكيك فهي تعرف كيف تخترع الأكاذيب، يصدق في النهاية.. خاصة بعد أن قرأ ذلك في الإنترنت.. كتب على موقع جوجل في الصباح الباكر.. كلمتين فقط.. وحصل على عشرات النتائج.. مذهلة تلك التفاصيل التي توصل إليها.. لكنها ليست جديدة، فإيلين تعرف كل ذلك.. أخبرته أنه الماء السحري الذي يشعر المرأة بالحيوية والصحة كما تدلل رسومات الرومان والفراعنة، كيف أن النساء كن يصنعن منه أقنعة لتجميل الوجه في رسومات كتلك التي تصفحها تاريتو ليلاً على الإنترنت وهو بين اليقظة والأحلام.

●●●

(٧٠)

أنفقت عشر دقائق في قراءة وتحرير مادة صحفية وردت لي من محرر القسم الفني كانت عبارة عن مقابلة مع مطربة جديدة لم أسمع بها، تتحدث عن تجربتها والاختراق الذي أحدثته. الحوار مكتوب بشكل جميل ومختصر الإجابات. لو كانت المطربة هي التي تجيب لأظنها ذكية جداً وتعرف ماذا تفعل بالضبط.

كان علي أن أتأكد من هوية المطربة، وأيضاً هل الحوار مؤلف أم حقيقي، فكثيراً ما تأتي حوارات من مراسلين هي من صناعتهم يعملون على تجميع معلومات من حوارات قديمة أو مقالات عن الشخص ويقومون بتوليفها من جديد في شكل حوار يخدع القارئ المُحبّ للفنان أو المطرب أو الروائي، وغالبا ما يحدث ذلك مع المطربين. وقد تعلمت قاعدة من زميل صحفي كان رئيسي في العمل ذات يوم. قم بتأليف المقابلة الصحفية فقط لا ترتكب خطأ بأن تزج شيئاً سلبياً عن المطرب أو المطربة. الإيجابيات ونقاط القوة هي الأساس.

بعد أن وضعت العنوان الرئيسي للمادة، كان علي أن أتأكد من هل الصورة المرفقة صالحة للنشر. فنحن في مجتمعات «أخلاقية» إذ لابد من التدقيق على ستر العورات في مثل هذه الصور. كانت الصورة متقنة ولفنان محترف وليس فيها أي مشكلة، والفنانة تبدو

فيها واثقة من نفسها ملامحها باهرة وصافية بفعل الفوتوشوب العظيم الذي خضعت له الصورة. وهذا عادي في عوالم الفن.

كل شيء انتهى. بقي أمر واحد يقلقني.. هوية هذه الفنانة! وكان علي أن أذهب إلى جوجل وأكتب الاسم. والمفاجأة أنني عثرت على عشرات بل مئات الصور لهذه النجمة صارخة الجمال. وتعجبت لماذا لم اسمع بها وأنا الذي كنت أظنها من صنيعة خيال المراسلة الصحفية وأن الصورة ليست لها انما هي خدعة كما يحدث في مواقع التواصل الاجتماعي أن يوضع بروفايل لشخص لا يخصه.

قلت إنني جاهل إذن، رغم ادعائي أنني أتابع الحركة الفنية بشكل يومي وأقوم بمتابعة كل شيء تقريباً ولدي قائمة بكل المواقع الفنية في الإنترنت. العربية بالتحديد لمعرفة ماذا فعلت المطربة المعينة وماهو برنامجها المقبل. إذا لما غابت عني هذه المطربة وأين كانت؟ أم أن ثمة قاعدة خطأ في عملي؟

أخبرت زميلي بذلك فقال لي إن العالم بات متسعاً وكبيراً ومن الخطأ أن نظن أننا قادرين على متابعة ومعرفة كل شيء، ففي كل دقيقة يظهر فنان جديد وكاتب جديد ولاعب كرة قدم جديد. لا يستطيع العقل أن يستوعب كل ذلك. والصحفي سوف يجتهد لكي يضع القارئ أمام ذلك، بوصف طبيعة عمله التي من المفترض أنها تقوم على وضع الناس أمام صور التجدد في العالم،

غير أنه في النهاية إنسان له ميول وطبائع وإخفاقات، وما يحدث أن ننسى أو نتجاهل أناس أمر عادي جداً يا صديقي فلا تبتئس.

قلت له: إنني قطعاً لست حزيناً، لكن ليس لدي تفسير واضح لما حدث. هل يعقل أن يحدث ذلك، تصدق هذه الفنانة بالذات تم استضافتها أكثر من عشرين مرة كما تشير سيرتها على الويكيبيديا في «أم بي سي» وهي قناة تهتم كثيراً بنجوم الفن في برامجها وسهراتها الحوارية.

سأقفز على الزمن. القصة لن تنتهي هنا. مضت أيام. وربما شهور. لا أعرف كم بالضبط فالزمن مرات يذهب سريعاً دون أن نتحكم فيه لاكتشف أمامي حواراً من جديد للمطربة نفسها. وبرغم أنني في الأيام الأولى حاولت تتبع أخبارها. إلا أنه مع تدفق المعلومات وانشغال الدماغ البشري بأشياء كثيرة كان صعب علي أن أجاري كل شيء. المهم أن الحوار أمامي.

تتحدث هذه المرة .. المطربة.. من داخل تنظيم إرهابي وأنها قادرة على تفجير برج إيفل. الله ما هذه الجسارة. مؤلفة الحوار عفوا المراسلة التي أرسلت الحوار هي نفسها تلك التي أرسلت أول حوار فضح جهلي قبل سنوات. ولكن أين التقت بها هذه المرة، هل هي الأخرى تراسلنا هذه المرة من داخل أرض المجاهدين؟ وهل ذهبت سوياً لجهاد النكاح!

حاولت أن أفهم. ثم نسيت كل ذلك، وضغطت زر، إرسال، لقسم التنفيذ الفني، لأكون قد تخلصت من عهدتي لأقرأ باقي المواد المفترض علي أن أراجعها قبل أن أسمع زميلي القديم يقف أمامي واضعاً يده اليسرى أعلى الباب بشكل درامي. قال لي: أتذكر تلك المطربة، الـ...

قاطعته: نعم.. الآن كان أمامي..

قاطعني: يقولون إنها تنوي الترشح لانتخابات الرئاسة..

كانت إفادته عكس ما توقعت. كنت أظن أنه سوف يخبرني أنها فجرت نفسها وانتهى أمرها. وأن بيان صدر يعلن ضمها لزمرة الشهداء.

قلت له: ربنا يوفقها يا علي.

زميلي علي رأى برودي فانسحب إلى الوراء، ليدخن سيجارة في الممر الخارجي المؤدي لمكتب رئيس القسم الفني. كان يفكر في سلفية لإتمام زواجه الثاني الذي تورط فيه. في حين كنت أنا أفكر بجدية في تأليف كتاب عن هذه المطربة!

اقترح لي أن مايكل جاكسون، أهم بكثير. ولكن هل فكرت في الأمر وقتها بدقة. لا أتذكر.

●●●

الخاتمة

وقف على خشبة المسرح وضحك عالياً. كان يترنح من السكر، ولم يكن الجمهور يفرق أن كان الرجل سكراناً أم بكامل عقله. ولأنهم تعودوا أن يروه يقدم تفاصيل مثيرة عن طريق اللعب بالجسد، الممزوج بالضحكات والبكاء مع الدموع أحياناً؛ فقد مضى كل شيء بهدوء. وضحك الجمهور كثيراً جداً. وضحكوا عالياً. وسبح المسرح بالضحكات في أول المساء.

انتهى المشهد، هنا. وانفض الجمهور. وفي آخر الليل كان جسده في غرفة تبديل الملابس يغرق في الدماء.

هل قتلوه أم مات منتحرا،

أم قتله الضحك؟!

كما قال أحد العاملين بالمسرح على سبيل الاستهزاء المصحوب بالألم؛ أمام جثة الرجل المتمددة بطولها الفارع وعينين شبه مفتوحتين.

لا أحد كان يملك الإجابة في اللحظة نفسها التي تجمعوا فيها حوله، وهو خارج الحياة. بالتأكيد كان قد خرج منها، لأن طبيب المسرح الذي كشف على الجسد أولا قبل وصول الفريق الطبي الخاص التابع للجنائيات، قرر ببساطة:

«لقد مات!.. مات (إيرنست مكاي)»

كان الجميع هنا في نيويورك يعرفونه جيداً. كرجل كسب شهرة في سنوات وجيزة. ممثل بارع على خشبة المسرح، وصحفي مرموق في صحيفة «نيويورك تايمز» تخصص في أخبار النجوم تحديداً نجوم الموسيقى والمسرح والسينما، لكنه لم يكن يكتب عن زملائه الذين كانوا يشاركونه العروض.

وقد ذكر ذات مرة لتلفزيون محلي:

«صحيح أنني لا أجامل أحداً، حتى لو كان ذلك الأحد نفسي.. بالنسبة لي المسألة متعلقة بالموهبة والقدرات.. وهؤلاء لا قدرات لهم ولا مواهب»

وعلى العكس مما يمكن توقعه أن يغضب زملاؤه، كانوا يضحكون من تصريحه في التلفزيون وانتظروه خارج مقره، ولحظة خرج كانوا قد أخذوه في حافلة ركاب متوسطة الحجم وهم يغنون، وسهروا في بار صغير إلى الفجر، وهم يألفون أغنية تقول بعض كلماتها:

لسنا موهوبون على أية حال

لكن الجميع هنا في نيويورك يعرفوننا

حتى عمدة المدينة يعرفنا..

لقد دعانا مرة للتمثيل والغناء في حديقة منزله

لكن صديقنا لا يعترف بموهبتنا

يقول عنا أننا أنصاف ممثلين..

وأن الطريق أمامنا لا يزال طويلاً.

الآن هو قد فارق الحياة في الثانية والأربعين من عمره تقريباً، في الليلة التي صعد فيها المسرح سكراناً، وهو الأمر الذي لم يقدم عليه من قبل. فالجد جد. والهزل هزل. والسُكر عنده له وقته المناسب، فما الذي دعاه لأن يفعل ذلك؟!

كان السؤال مطروحاً أمام ثلاثة من زملائه الذين شاركوه العرض المسرحي، دون أن تكون لهم أدنى فكرة أو إجابة محددة، وفي الوقت الذي ظنوا فيهم أنهم يفهمون زميلهم جيداً، اكتشفوا أنهم عاجزين عن تحليل السؤال.

نظر إليهم البروفيسور (هنري فيلد) بتتابع وبقسوة تدل على أنه يتهمهم بالكذب. وقبل أن يأمرهم بالانصراف من أمامه، قال لهم بصوت مسموع:

«عندما تتكشف الحقيقة ستزجون بأنفسكم في موقف حرج.. لن يعود الناس يحبون عروضكم.. ليس لأنكم تفتقدون للموهبة كما وصفكم زميلكم المتوفى؛ مرة.. بل لأنكم قتلة»

«قتلة»..

كان للكلمة وقع سيء على ثلاثتهم.. لم يتوقع أحدهم أن يوجه له الاتهام على أنه قاتل «إرنست مكاي». بل لم يتصور أحدهم أنه سيكون ذات يوم في محل اتهام كهذا، فمهما بلغت الخلافات بينهم وبين مكاي إلا أنهم كانوا يحبونه كثيراً، كانوا يحبون صراحته الممزوجة بالمزاح، ويحبون ألفته غير العادية، والسهر معه وهو يقص حكايات كثيرة وطرائف مسلية عن عمله الآخر كصحفي وعن أسرار النجوم الكبار. فهم ليسوا نجوماً كباراً، هم معرفون جداً هنا في نيويورك لكن قد لا يعرفهم أحد في الولايات الأمريكية الأخرى، دعك عن باقي أصقاع الدنيا، شهرتهم لن تُحصِّل على سبيل المثال جوني ديب، أو باميلا أندرسون، أو توم كروز، أو مايكل جاكسون. وبالتحديد الأخير الذي كان مصدر هوس بالنسبة لهم هوس مأخوذ من عشق مكاي له. فقد كان الصحفي الممثل زميلهم هو أكثر المحررين الفنيين في «نيويورك تايمز» كتابة عن مايكل وأسراره وحياته الخاصة. والثلاثة يعرفون أن مكاي وجاكسون كانا أصدقاء، قبل رحيل مايكل بعدة أشهر.

خرجوا من مكتب فيلد وهم يتساءلون بينهم عن السبب الذي زجّ به في قضية موت مكاي، وكانت أول مرة يرون البروفيسور وجهاً لوجه، فقد سمعوا عنه من قبل، من مكاي، أخبرهم:

«أن أكثر من يفهم في سر العبقرية والإبداع وسبب نجاحات الناس في الحياة، هو هذا الرجل.. لا أحد غيره»

كان يقول ذلك بمنتهى الثقة، ويذهلهم بمعلومات لا يعرفون مدى مصداقيتها عن عوالم فيلد، الذي بحسب مكاي:

«قضى ثلاثة أرباع عمره في تتبع سر العبقرية في التاريخ البشري، تحديدا في العقود الأخيرة، له بحوث منشورة في هذا المجال في مجلات متخصصة جداً. وقليل من العامة يعرفون عنه. أي العامة أمثالكم (يضحك مكاي). أما لرجل مثقف مثلي، وليس مجرد ممثل هزلي فحسب فهو يعرف فيلد جيداً. يعرف عنه تفاصيل مثيرة. يعرف أنه عرّاب مايكل جاكسون. نعم هو معلمه السري والسبب وراء نجاحاته وذيع صيته. سأقول لكم السر، فيلد يؤمن تماماً بأنه لا وجود لشيء ما اسمه العبقرية ولا الموهبة، هو مؤمن تماماً بأن النجاح والشهرة والمجد صناعة. منذ أن بدأ التاريخ البشري وإلى الحاضر.»

كانت أحاديث مكاي عن البروفيسور هنري فيلد ممتعة لثلاثتهم، ومملة أحياناً. وفي هذه الليلة، سيعيدون التفكير في هوية هذا البروفيسور وعن السبب الذي دعا رجال المباحث للاستعانة به للتحقيق معهم، فلا أحد تحدث معهم غيره، فرجال المباحث التزموا الصمت ووقفوا بعيداً، ولم يدخلوا الغرفة التي جرى فيها التحقيق.

عندما خرج ثلاثتهم لم يقف أحد في طريقهم، كانوا قد غادروا المسرح دون أن يعرفوا إلى أين سيذهبون، وزميلهم ميت، والليل في آخره، والسهر في بار في مثل هذه الظرف الحرج أمر لا يمكن تقبله، فقد غلب عليهم الحزن وغرقوا في الذكريات. كل يستعرض مواقف مختلفة عن مكاي منذ أول يوم تعرفوا عليه وانضم إلى فرقة «أبولو» المسرحية التي تأسست سنة ١٩٩٨ وظلت تقدم عروضها على المسرح الشهير في نيويورك، دون أن تتجاوز شهرتها حدود المدينة التي - الشهرة فيها تكفي، على الأقل لأناس كانت الشهرة بالنسبة لهم خياراً ثانياً، فقد كان موقنون بأن مواهبهم لا تتعدى كونهم قادرين على تحريك أجسادهم بطرق مختلفة مثيرة للضحك.

وقد نبههم مكاي مرة:

«إذا لم تطوروا قدراتكم ستجدون أنفسكم خارج المسرح بعد سنوات قليلة.. وربما شهور»

وكان ثلاثتهم على قناعة بأن مكاي كان حلقة مهمة في فرقتهم الرباعية، فمنذ أن انضم لهم وصاروا أربعة، بعد شهرين من إعلان الفرقة وتقديم أول عرض لم يكن ناجحاً بالمستوى المُرضِّي، تغيرت مصائرهم نوعاً ما.

بالضرورة كان لمكاي دوراً في هذا التحول، بموهبته أولاً وموقعه كصحفي له النفوذ الذي يمكنه من تمرير أخبار الفرقة في صحف محلية خاصة جرائد التابلويد الشعبية.

إلى موته الليلة لم يُكتب عنهم أي شيء ولم يرد لهم ذكر في صحيفة «نيويورك تايمز» التي يعمل بها مكاي. لكن ذكرهم جاء أخيراً هذا الصباح.

كتبت نيويورك تايمز تودع محررها الفني:

«لقد كان متعدد المواهب.. كان صحفياً مرموقاً يعرف كيف يصل إلى الخبر. لا إدعاء إذا قلنا أنه كان محبوب النجوم. كان صديق الكثيرين منهم، وكانت أخباره دقيقة ورائعة. وتعلمون أنه كان ذلك الممثل الهزلي المضحك بجسده على المسرح. والغريب أن الأقدار اختارت له أن يموت قريبا من المسرح وبعيدا عن الصحيفة. لكن لا نعرف إلى الآن ما السبب الذي جره للموت، هل قتلوه؟ ومن هم؟ أم قتل نفسه؟ ولأي سبب؟! أسئلة تظل بلا إجابات إلى

أن ينتهي التحقيق ونفهم ما الذي جرب بالضبط!. لقد آن الأوان أن نكتب لأول مرة عن (فرقة أبولو المسرحية الهزلية)، التي كان مكاي عضواً نشطاً فيها بل كان شريانها النابض. وربما لولاه لما رأت النور وصفق لها الجمهور طويلاً. لقد كان مكاي متحفظاً عن نشر أي أخبار تتعلق بـ أبولو في الجريدة حتى لا يتهم بأنه يستغل مهنته الأولى للترويج لما يقضي به وقته فراغه كما يردد وسط زملائه بالصحيفة. وقد أقنع مدير التحرير المسؤول عن القسم الفني بألا تخوض الجريدة في أخبار أبولو.. كان يقول مازحاً: إذا مت مثلاً فيمكن أن تكتبوا عنها. لم يكن يتصور أن هذا يمكن أن يحدث بهذه الحرفية المؤلمة».

●●●

الفهرس	الصفحة

إشارة ١.. :...........................	٥
إشارة ٢..:...........................	٥
إشارة ٣..:...........................	٥
القسم الأول الزهرة الجديدة:..........	٧
القسم الثاني رقصة اليوساكوي:.........	٦١
القسم الثالث الحوت:..................	١٠٣
القسم الرابع الترومبيت والتابوت:.......	١٣٩
القسم الخامس التبول اللاإرادي:.........	١٦٣
القسم السادس هوامش البدايات:..........	١٩٩
القسم السابع العلم.. الفن.. والرومانسية:.........	٢١٩
القسم الثامن فتنة أن تُغني:..........	٢٣٥
القسم التاسع مسودات إيلين:..........	٢٧٩
الخاتمة:...........................	٢٩٥

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر